

الجزء الثاني

٣٩

كتابي



غرام سوان

Looloo

www.dvd4arab.com

المؤسسة العربية الحديثة
للطباعة والنشر والتوزيع
١٠، شارع ستاد - الرياض - ١١٥١٢٠٠

محمي مراد



البحث عن الزمن المفقود

غرام سوان

ترجمها عن الفرنسية : دكتور نظمي لوقا

الجزء الثاني



Looloo

www.dvd4arab.com

وكان من عادتنا أن نعود دائماً من نزهاتنا على الأقدام في وقت ملائم للصعود لزيارة عمي ليوني قبل العشاء . وفي الأسابيع الأولى من عطلتنا التي نقضيها في كبراي ، وهي الأسابيع التي كان النهار فيها قصيراً ، كان يتسنى لنا أن نرى ، ونحن في طريق عودتنا إلى شارع الروح القدس ، انعكاس الأفق الغربي من نوافذ البيت ، وبقعة قرمزية منعكسة على مياه البركة ، في توهج نارى مصحوب أحياناً بلذعة برد ، ويقترن هذا الوهج في ذهني بتصور النار المشتعلة التي فوقها - في تلك اللحظة نفسها - يجري شواء الدجاجة التي ستمدني - بدلاً من اللذة الشاعرية التي وجدتها في السير بانحلاء - بلذات حسية هي لذات الغذاء الجيد ، والدفع والراحة :

ولكن في الصيف ، عندما كنا نعود إلى البيت ، لم يكن وقت غروب الشمس قد حان . وبينما نكون في الطابق العلوى نؤدى زيارتنا المعتادة لعمي ليوني ، تأخذ الأشعة في الغوص إلى أن تستقر على حافة نافذتها ، وتتشابك مع الستائر الداخلية الكبيرة وأربطتها التي تثبت في الجدار ، وتنتثر دوائر ذهبية على خشب الليمون المصنوع منه أثاث حجرتها ، وتضيء الحجرة كلها بتلك الأشعة المائلة التي تجعل ظلال الأشياء مستطيلة كأنها جذوع الأشجار في الغابة . ولكن في بعض الأيام - وإن كان هذا نادر الحدوث - يكون الوقت قد انقضى ، فلا نرى وهجاً نارياً منعكساً على البحيرة ، ولا نثاراً ذهبياً على أثاث حجرة عمي ، بل يكون كل شيء شاحباً ، إلا أن

ضوء القمر يفتش المساحة كلها وينعكس على تموجات ماء البحيرة . وفي هذه الحالة ، عندما تقترب من البيت ، تبتين شخصاً واقفاً على عتبة الباب ، وتقول لي ماما :

- رباة ! هذه فرنسواز واقفة تبحث عنا . ولابد أن عمك قد انتابها القلق : ومعنى هذا أنا تأخرنا !

ومن غير أن نتوقف لنخلع عنا ملابس الخروج نصعد على الفور إلى حجرة عمي ليوني لكي نظلمئها ، ونثبت لها بمثلونا الجسدي أمامها أن كل تخيلاتنا المذعورة لم يكن لها أساس من الصحة ، وأنه لم يحدث لنا مكروه : وكل ما هناك أننا مشينا اليوم في « طريق جيرمنت » . وعمي تعرف جيداً أن المرء حين يسير في هذا الاتجاه لا يدرى بالضبط متى ينتهي سيره ومتى يعود : وعندئذ تقول عمي :

- هاك يا فرنسواز ! أو لم أقل لك إنهم لابد قد ساروا اليوم في طريق جيرمنت ؟ يا إله السموات ! لابد أنهم يتصورون الآن جوعاً ! ولا بد أن فخذ الضأن الذي أعدده لم قد جف الآن جداً بعد كل هذه الساعات من الانتظار : إذن أنتم مشيتم اليوم في طريق جيرمنت ؟

وتجيها أوى :

- ولكني كنت أظنك تعرفين هذا يا ليوني : وأحسب فرنسواز رأنا نخرج من البوابة الصغيرة ، من حديقة الطابق .

ذلك أنه كان هناك في ضواحي كبراي طريقان ، كان من عادتنا أن نسير فيهما في نزاهتنا على الأقدام ، وهما طريقان متضادان بكل معنى الكلمة . بحيث إننا كنا نخرج من باب مختلف للبيت كى نسير في أحد الطريقين ، حسب اختيارنا : وهذان الطريقان يمر أحدهما في اتجاه ميز جلينز لا فينيز Meséglise la Vineuse ، وكنا نسميه « طريق سوان » ، لأنه كان لا بد لنا كى نصل إليه أن نمر على امتداد حدود ضيعه المسيو سوان : وللطريق الآخر هو « طريق جيرمنت » . ولم تكن لى - والحق يقال - معرفة بميز جلينز لافينيز أكثر من الطريق المفضى إليها ، ومن بعض أهلها الذين قد يأتون في أيام الأحد لاستنشاق الهواء في كبراي : وهم أناس لم تكن عمتى ولا أى أحد منا يعرفهم على الإطلاق ، ولذا كنا نستنتج أنهم حتماً « أناس لا بد أنهم جاءوا من ميز جلينز » : أما عن جيرمنت فقد أتيت لى أن أعرفها يوماً ما معرفة جيدة : ولكن هذا اليوم لم يحن إلا فيما بعد . وطوال فترة يقاعتي ، كانت ميز جلينز شيئاً بعيداً عن متناول يدي مثل خط الأفق ، لأنها كانت مكاناً يظل متوارياً بين طوايا الريف مهما سار الإنسان نحوه قدماً ، وهو ريف ليس بينه وبين الريف المحيط بكبراي وجه شبه . أما جيرمنت فلم تكن تعنى عندى أكثر من هدف نهائى أقصى ، هدف مثالى أكثر منه واقعياً : فطريق جيرمنت كان حينئذ ضرباً من الاصطلاح الجغرافى المجرد ، كالقطب الشمالى أو كخط الاستواء ! ومن ثم كان السير في طريق

جيرمنت للوصول إلى ميز جلينز ، أو العكس ، يبدو لى تناقضاً أشبه بالدوران إلى الشرق لكى تصل إلى الغرب : ولما كان من عادة أبى دائماً أن يقول عن « طريق ميز جلينز » إنه يضم أبعد منظر عرّفه على الإطلاق للسهل الممتد ، وإن « طريق جيرمنت » مكان نموذجى لمنظر النهر ، لذا تصورت كلا منهما كائناً مستقلاً متميزاً ، فيه تماسك لا يوجد إلا فيما يختلقه الذهن من تصورات ، وصرت أرى أقل تفصيلاً شيئاً بالغ النفاسة ، ينطوى على امتياز باهر ، وإلى أن نصل إلى رى أحد الطريقين ، لا تستوقفنى المناظر التى أمر بها . وحالى هذا أشبه بحال مشغوف بالذهاب إلى المسارح ، بحيث لا يعير الشوارع والحارات الكثيرة المفضية إلى المسرح نفسه أدنى التفات ، مهما كانت مواطن الجمال فيها . وكنت أقيس البعد بين الطريقين لا بالكيلومترات والأمطار ، بل بتباعد مكانيهما فى عقل ، ذلك التباعد الذى زاده مرور الزمن ، لأننى كنت أحتفظ لكل منهما فى ذهنى بمستوى منفصل . وقد زاد هذا الاعتقاد رسوخاً فى ذهنى أنه لم يحدث قط أن سرنا فى الطريقين معاً فى يوم واحد ، أو فى سياق نزهة واحدة ، بل كنا نخصص لكل منهما يوماً مستقلاً ، فلا عجب أن ينفصلا تمام الانفصال ، كأن كلا منهما لا علم له بوجود الآخر ...

فإذا قررنا المضى فى يوم إلى طريق ميز جلينز انطلقنا (بلون إسرار لا موجب له حتى لو كانت السماء ملبدة بالغيوم ، لأن هذا

الطريق لم يكن طويلاً جداً ولا يبعدنا عن البيت كثيراً) : وكأننا لا نوى الذهاب إلى مكان معين ، فنخرج من الباب الأمامي لبيت عمى ، وهو الباب المفتوح على شارع الروح القدس : ويحيينا في الطريق الرجل الذى يصلح البنادق : ونلقى بخطاباتنا في صندوق البريد ، ونبلغ تيودور رسالة من فرانسواز أثناء مرورنا به أن ما عندها من الزيت أو البن قد نضب ، ثم تغادر البلدة من الطريق الذى يمر على امتداد السور الأبيض لبستان المسيو سوان المترامى : وقبل أن نصل إلى هناك يلقانا على الطريق عبر أشجار الليلك في هذا البستان ، وكأنه خرج خصيصاً ليرحب بالغرباء : وكانت أشجار الليلك ذات الأوراق الخضراء الغزيرة تبرز لنا من السور أزهارها القرمزية التى تتألق حتى في الظل بضوء الشمس الذى اخترنته من استحمامها فيه . وبعض هذه الأشجار تتوارى عنا وراء كوخ أبق يعيم فيه ناظر ضيعة سوان ، له سقف من القرميد على شكل جملون قوطى الطراز ، وأحسب جنيات الربيع خليقة أن تبدو فظة مبتذلة بالقياس إلى تلك الحوريات الشابة التى تضيئ على هذه الحديقة الفرنسية ببحر بلاد العجم :

ومع أنى كنت شديد الشوق إلى تطويق هذه الأشجار المنة القوام بذراعى ، وجذب هاماتها الرشيقة العطرة لأشم شذاها ملء خياشيمي ، إلا أننا كنا نمر بها من غير أن نقف عندها . لأن والدئ انقطعنا عن زيارة تانسفيل Tansonville منذ زواج سوان ، ولكى

لا يبدو كأننا نطل على بستانه ، كنا بدلا من السير في الطريق الذى يتأخم ضيعته ثم نمضى مباشرة إلى الحقول ، نختار طريقاً آخر يدور حول الضيعة من الجهة الأخرى ، ويجعلنا نبعد كثيراً عن البيت : وذات يوم قال جدى لأبى :

— ألا تتذكر أن سوان أخبرنا أمس أن زوجته وابنته سافرتا إلى ريمس وأنه سيتنزه هذه الفرصة لقضاء يوم أو يومين في باريس ؟ ففى وسعنا إذن أن نمر بجوار البستان ، ما دامت الاثنتان ليستا هناك : فذلك يجعل طريقنا أقصر .

وفى ذلك اليوم وقفنا قليلاً بجوار السور . وكان موسم الليلك قد انتهى أو كاد : ولكن بعض أشجاره كانت ما تزال مزهرة سامقة كأنها شمعانات عالية . ولكن معظم الأشجار ذبلت فوقها الأزهار التى كانت منذ أسبوع واحد كأنها بحر زاهر بالزبد الأبيض والأحمر وله عبير فواح : أما الآن فما هى زاوية جافة لا عطر لها . وبين جدى لأبى كيف أن معظم معالم المكان لم تزل كما هى : وكيف أن بعضها تغير منذ ذلك اليوم الذى تمشى فيه في الحديقة مع سوان الأب ، يوم وفاة زوجته : وانهز هذه الفرصة كى يروى لنا مرة أخرى تلك القصة القديمة :

وكان أمامنا درب يحف به نبات الكبوسين ، تحت وهج الشمس مباشرة ، يقضى إلى البيت : أما عن يميننا فكان البستان يمتد مترامياً إلى مسافة كبيرة ، فوق أرض مسوية . وكانت هناك بحيرة

زخرفية تحيط بها الأشجار العالية ، أنشأها والدا سوان . وعند أقدام الدرب الذى يقضى إلى هذه البحيرة الصناعية أنواع شتى من زهور الزينة الأصفر والزرقة والحمراء ، فى غزارة عظيمة زادت هذه البحيرة وتماثيل حوريات الماء جمالا على جمال .

ولما كانت الآنسة سوان غير موجودة ، فقد وقانى هذا من المخازفة برؤيتها عندما تظهر عند أحد هذه الممرات ، وأن أكون موضع ازدراء هذه الفتاة الصغيرة الممتازة التى تتمتع بصداقة برجوت ، ومن عاداتها أن تذهب معه لزيارة الكاتيدراليات . ولكن هذا الأمان جعل توقفتنا واكتشافى لأول مرة لتانسفيل أمراً لا قيمة له عندى ، مع أن الضبيعة كانت فيما يبدو مصدر متعة كبيرة متجددة لدى جدى وأبى . وقد كنت أتمنى أن يخيب ظنهما وأن أرى - على غير توقع - الآنسة سوان تبرز فى البستان مع والدها ، وفى مكان قريب مناجداً ، بحيث لا يتسع لنا مجال للهروب أو الروغان ، وبذلك يتحتم علينا أن نجيبهما ونتعرف إليهما .

ولذا عندما لاحظت فجأة مسلة من القش ملقاة منسية على العشب بجوار شخص (سنارة) كانت فليتنه عائمة فوق سطح البحيرة ، بذلت كل جهدى كما أشغل انتباه جدى وأبى فى اتجاه آخر ، بعيداً عن هذه العلامة التى تدل على احتمال وجودها فى الضبيعة : ولكن بما أن سوان قال لنا فى الليلة السابقة إنه لن يرحل على الفور لوجود ضيوف فى البيت لديه ، فمن الجائز أن يكون هذا الشخص شخصاً بأحد

هؤلاء الضيوف . ولم يترام إلى سمعى وقع أى قدم على درب من الدروب . وفى مكان ما وسط الأشجار العالية كان هناك طائر متوار مثابراً على محاولة تقصير ذلك النهار بإطلاق نغمت صوتية يسر بها عمق الصمت السائد من حوله فى كل اتجاه . ولكنه لم يتلق على صيحاته هذه جواباً سوى الصمت الأبدى الذى جدد اللحظة الراهنة فى مكانها ، بدلا من التعجيل بانقضائها : وكانت الشمس تنصب بلا رحمة من سماء ثابتة صافية لا تتحاب فيها . وسطح الماء ساكن فى هذه القيلولة كأنه يحلم ولا شك بدرود هائل ، مركزه هذه الفلينة الطافية . وفجأة بدأت الفلينة تغوص قليلا . وخيل إلى أنه من واجبي أن أصبح لأبيه الآنسة سوان إلى أن السمكة بدأت تعض الطعم ، مجازفاً بذلك رغم رغبى من أن تعرفنى

وفى كانت هذه الفكرة تراودنى اضطرت فجأة للجرى وراء جدى وأبى ، اللذين كانا يتناديانى ، متعجبين لأنى لم أتبعهما منذ البداية وقد انحرفا فى الدرب الصاعد إلى الحقول الفسيحة :

وكان هذا الدرب الذى يصعد التل غاصاً على الجانبين بنبات الزعرور البرى الطيب الرائحة الذى كنت قد رأيته يوم الأحد يزين مذبح الكنيسة ، فكان جانبي الدرب كنانس صغيرة متوارية تحت أكوام هذه الزهور المكومة فوق مذايحها ، وكان عيرها من الثراء والغزارة كأننى مائل تماماً أمام مذبح العذارى ، والشمس تنصب أشعتها من فوق كأنما هى هابطة من نافذة مفتوحة : فانبهرت

أنفاسي بهذه الأحاسيس ، التي أغرقني دفعة واحدة ، حتى لقد حاولت أن أبعد عيني عنها ، لكي يتسنى لي أن أعود إليها بلذة متجردة وتشوق جديد . ولكن عيناً حاولت ، فأينما حولت بصري مصعداً في التل وجدت تلك الأزهار البيضاء ذات الأربع الفواح كأنما هي بحر بلا انتهاء . وامتألت نفسي بإحساس غامض بشهوة هذا الجمال الفطري الذي لا يدرك له سر ولا يسير له غور ! وتمنيت لو كانت هناك أنواع أخرى من الزهور ، كي يتيح هذا التنوع لعيني راحة تزيد من متعتها :

ولاحظ جدى استغراقى في هذا الجمال ، فقال لي مشيراً إلى سور تانسفيل :

— أنت مغرم بالزعرور البرى . انظر إلى هذا الزعرور الوردى هناك ، أليس جميلاً حقاً ؟

وكان ما أشار إليه نبات زعرور برى حقاً ، ولكنه وردى الأزهار ، وكانت أجمل فعلاً من الأزهار البيضاء التي حولي . وقد تكاثرت هذه الأزهار الوردية بعضها فوق بعض ، فلم يظهر من الأوراق الخضراء شيء . كانت في أبهى زينة كأنها تبرجت احتفالاً بعيد ديني . وأنا شديد الوله باللون الوردى . أحب البسكويت إلى ما كان محلى بالسكر الوردى . وأحب الجبن إلى نوع وردى . والجبن العادى أجعله ودياً بأن أهرس فيه ثمار الشليك الحمراء . وقفز قلبي فرحاً بهذه الأزهار الوردية التي كأنها حسناء يافعة برزت

في أبهى زينتها وسط عجائز مهلهلات الثياب ، فأزرت بسائر الأزهار التي من حولي في كل مكان !

وقد أتاح لنا ارتفاعنا على منحدر التل أن نرى جانباً مما في داخل بستان سوان الكبير ، فلمحنا ممشى تحف به أزهار البانسيه والياسمين وأزهار مختلفة الألوان ، وعلى الأرض المفروشة بالحصباء خرطوم للرى مطلى باللون الأخضر ، متعرج وفيه ثقب ينساب منها الماء وينثقل على تلك الأزهار ، وينعكس الضوء على تلك القطرات المناسبة فيلونها بألوان قوس قزح . وفجأة توقفت جامداً في مكاني ، عاجزاً عن الحركة ، مثلما يحدث عندما يبدو شيء لا يحتاج إلى أعيننا فحسب كي ندركه ، بل يحتاج إلى إدراك أعمق يستوعب كياناته . فقد كانت هناك فتاة صغيرة ذات شعر أشقر حممر ، يبدو أنها عائدة من نزهة على الأقدام ، وفي يدها شقرف ، واقفة تنظر نحونا ، رافعة إلينا وجهاً ينتشر فوقه النمش الوردى . وكانت عيناها السوداوان تلمعان ، وإن كنت في ذلك الحين لا أعرف ، ومازلت لا أعرف كيف أحلل انطباعاتي القوية إلى عناصرها الموضوعية ، لأنني لا أمتلك — كما يقولون — ما يكفي من قوة الملاحظة لتحديد وعزل لون هاتين العينين ، لذا ظلت فترة طويلة بعد ذلك كلما فكرت فيها ، تذكرت عينيها اللامعتين هاتين وكأن لونهما لازوردي ناصع ، لا شيء إلا لأن بشرتها شقراء .

وحدثت فيها أول الأمر بنظرة لم تكن مجرد رسالة من العينين ،

بل وكان من هاتين النافذتين قد تجمعت كل حواسي لتلطل منهما متحجرة لهفانة ، نظرة تكاد تصل إلى الجسم الذي تنبجه نحوه وتلمسه وتحتضنه وتنطلق به ، بل وتلمس وتحتضن الروح أيضاً مع الجسد ، وخامرني الفزع من أن يستعجلني جدي وأني في أى لحظة إذا لاحظا وجود الفتاة ، فينتزعاني منها ويعلاني أجرى أمامهما وأسبقهما بدلا من التلكنؤ خلفهما : فرشقتهما بنظرة أخرى متوسلة ، كل أمنيتها أن تنبها لوجودي ، وتراني ، وتعرفني ، وكانت هي تنظر إلى الأمام ، وإلى الجانبين ، كأنما لتبين جدي وأني ، ولأشك أن الانطباع الذي تكون لديها أننا جميعاً قوم مضحكون بخفاء ، لأنها لم تلبث أن أشاحت بوجهها في عدم مبالاة وازدراء ، وتوارت كأنما لتجنب وجهها مهانة البقاء في مجالها البصري : بينا واصلا هما سيرهما من غير أن يلاحظا وجودها . وعندئذ نظرت نحوي من غير أن يبسود على وجهها تعبير معين ، وكأنها لم ترني ، اللهم إلا ابتسامة يسيرة لم أستطع تأويلها بمقتضى ما تلقيته من آداب السلوك إلا على أنها علامة على التقزز البالغ . وأشارت بيدها إشارة فجأة ، كنت قد تعلمت فيما تعلمته من قواعد السلوك أنها إذا وجهت إلى شخص لا نعرفه بصورة علنية فليس لها إلا معنى واحد ، هو الإهانة المقصودة :

وصاحت سيدة ترتدى ثوباً أبيض بصوت ثاقب ينم عن سلطان ، لم أكن رأيته حتى تلك اللحظة :

— جيلبرت . هيا ! ماذا تصنعين ؟

وكان على مسافة قصيرة منها سيد في بدلة من الكتان ، ذات بنطلون قصير ، لم أكن قد رأيته أيضاً ، راح يحدق إلى بعينين تكادان تطفران من رأسه . وفي الحال اختفت ابتسامة الفتاة . ومضت ممسكة بشقرفها من غير أن تلتفت لتنظر مرة أخرى ناحيتي ، في طاعة غامضة مأكرة .

وهكذا نمنا إلى سمعي اسم جيلبرت Gilberta ، وكأنه طلسم سحري ربما أتاح لي في يوم من الأيام أن أعيد اكتشاف من أضنى هذان المقطعان اللذان يتكون منهما اسمها شخصية محددة عليها ، مع أنها قبل ذلك بلحظة واحدة كانت مجرد شيء رأيته بغموض ، وها هو هذا الاسم قد تراءى لي عبر الأزاهير والخيال والياستين ، حاداً ورطباً مثل الماء المنبثق من الخرطوم الأخضر ، فتضمخت به طبقات الجو وموجات الهواء التي مر بها ، حتى أن هذا الهواء تميز من كل هواء آخر بتلك الحياة التي تنبعث من صاحبة هذا الاسم ، وبه يناديها أولئك السعداء الذين يعيشون في صحبتها . واقترن هذا الاسم بذلك الزهر الوردى الفريد من الزعرور البري الذي يتوج هامة سور حديثتها . وبذلك العالم الخاص الذي تعيش فيه ، والذي أجهله أنا ولا ينبغي أن أنفذ إليه .

وبينما نحن نبتعد صاعدين التل سمعت جدي يهمهم لأبي :
— يا لسوان المسكين ! وبأ لها من حياة تلك التي يسومونه
لأياها ! تصور أنهم أرسلوه بعيداً كي ينسني لها أن تبقى وحدها مع

صاحبها شارلى ! فهذا هو شارلى ، وقد عرفته على الفور ! وتصور
أن الطفلة في سنّها هذه تختلط بمثل هذه البيئة !

ولحظة اشدت على وقع انطباع تلك اللهجة الأمّرة المستبدة التي
كلمتها بها أمها ، وكيف أن جيلبرت لم ترد عليها ، فأشعرتني أنها
مضطرة لإطاعة شخص آخر ، وأنها بذلك ليست أمي منزلة من
العالم أجمع كما كنت أتخيل ، فهذا هذا وسكن من عذابى بعض الشيء ،
وأحيا عندي بعض الأمل ، ولطف حرارة حبي . ولكن سرعان
ما انتقد هذا الحب في أعماقي من جديد ، كرد فعل حاول به قلبي أن
يرتفع إلى مستوى جيلبرت ، أو أن يهبط بها إلى مستواه .

أحببتها ، وكنت أسفاً لأن الوقت لم يتسع لي - ولم تسعني سرعة
خاطري - كي أهيئها ، أو أميء إليها بأى صورة ترغبها على
تذكرى على نحو ما . كنت أعرف أنها رائعة الجمال ، لدرجة أنني
تخيلت لو أتيحت لي أن أعود أدرجى لكي ألوح لها بقبضة يدي
وأصيح بها :

— أعتقد أنك قبيحة ، بشعة ، مقرزة للغاية !

ولكنني مع هذا مضيت مبتعداً عنها ، حاملاً في حنايا صدري
إلى الأبد منذ تلك اللحظة أول نموذج لسعادة فوق متناول غلام صغير
مثل بموجب قوانين الطبيعة التي لا يمكن خرقها ، وهذا النموذج هو
صورة فتاة صغيرة ذات شعر ضارب للحمرة ، وبشرة مرقشة
بشمس وردى ، ممسكة في يدها بشقرف ، وهي تبسم وتحقق في

تحديقاً غامضاً لا ينم على شيء معين . وها هو السحر الذي ملأ مثل
تعبئة من البخور تلك الفجوة بين أزهار الزعرور البرى الوردية ،
التي من خلالها سمعت أنا وهي نبرات اسمها ، قد بدأ يقهر ويغطي
ويعطر ويحمل كل ما له ارتباط به ، حتى جديها اللذين كان جدى
سعيدى الحظ بمعرفتهما ، ومهنة سمسة الأوراق المالية المحيطة ،
بل وجيرة الشانزليزيه التي تقطن بها في باريس .
وعند عودتنا قال جدى :

— يا ليونى ! كم كنت أتمنى لو كنت معنا بعد ظهر اليوم :
فأ أحسبك كنت سوف تعرفين نانسنفيل . ولو واتفى الجراة لكنك
قطعت لك فرعاً من ذلك الزعرور البرى الوردى الذى تحبينه كثيراً .
ثم روى لها جدى حكاية نزنهنا ، إما لكي يسليها ، أو ربما لأنه
كان لم يزل لديه بعض الأمل في أنها قد تتأثر بهذه الأوصاف الجميلة
المثيرة فتنهض من فراشها وتخرج إلى الخلاء . ذلك أنها فيما مضى من
الزمان كانت شديدة الشغف بتانسنفيل ، ثم إن زيارات سوان كانت
هى الزيارات الوحيدة التي تسمح بها في الوقت الذى أوصدت فيه
بابها في وجوه الناس جميعاً . ومثلاً كانت في تلك الأيام المتأخرة ترسل
إليه — عندما يأتي ويطلب زيارتها لأنها كانت لم تزل الشخص
الوحيد في البيت الذى يطلب زيارته — وتقول إنها متعبة في هذه
اللحظة ومخلدة للراحة ، ولكن يسرها أن تراه في فرصة أخرى ،
قالت هذا المساء لجدى :

— أجل : يوماً ما عندما يكون الجو جميلاً سأستقل العربة إلى بوابة ذلك البستان :

وكانت في ذلك صادقة مخلصه ، لأنها كانت تود أن ترى سوان وتانسفيل مرة أخرى ، ولكن كانت الرغبة وحدها هي ما تقدر عليه الآن بما تبقى لها من قوة ، أما تحقيق هذه الرغبة فكان فوق طاقتها .

وفي بعض الأحيان كانت فترة من الجو المعتدل تمددها بمزيد من الحيوية ، فتنهض وترتدى ثيابها ، ولكن قبل أن تصل إلى الحجرة الخارجية ينتابها التعب مرة أخرى ، وتلج في العودة إلى فراشها .

وكانت هذه العملية التي بدأت لديها — وإن كانت بالنسبة لها قد بدأت في وقت مبكر مما ينبغي بالنسبة لجميعنا — عبارة عن التخلي التام والعام عن الحياة والنشاط ، ذلك التخلي الذي يحدثه التقدم في السن استعداداً للموت : إنه مرحلة « الخادرة » التي تلاحظ كلما امتد العمر بإنسان أكثر مما يجب ، حتى لدى العاشقين القدامى الذين عاشوا بعضهم لبعض بكل ولع ، ولدى الأصدقاء القدامى الذين تربط بينهم أوثق الصلات العقلية والتعاطف ، وإذا بهم بعد سنة معينة لا يكلفون أنفسهم عبور الشارع ليرى كل منهم صاحبه ، ويكفون عن التراسل ، ويعلمون عندئذ أنهم لن يتواصلوا بعد الآن في هذه الدنيا : ولا بد أن عمى كانت مدركة تماماً أنها لن ترى سوان بعد

ذلك ، وأنها لن تغادر بيتها أبداً : ولكن هذه العزلة التامة بدت مقبولة لديها بكل التأهب لها ، ولنفس السبب الذي يجعلها بالنسبة لنا لا تطاق ، أي لأن هذه العزلة مفروضة عليها بسبب تناقص قوتها التدريجي المتواصل ، الذي كان في وسعها أن تعيشه في كل يوم ، بما يسببه كل فعل من أفعالها من الإجهاد ، هذا إن لم يكن مؤلماً بالفعل ، فيضئ ذلك على هودها وعزلتها وسكونها سحر الراحة المنعش ؟

ولم تذهب عمى لتشاهد الزعرور البري الوردى في سياج البستان ، ولكن في كل ساعات النهار كنت أسأل بقية الأسرة أليست مزمنة أن تذهب ، وهل لم يكن من عادتها في الزمن الغابر أن تذهب كثيراً إلى تانسفيل ؟ وكنت بهذه الأسئلة أحاول أن أستدرجهم للحديث عن الآتية سوان أو عن والدها وجديها ، الذين بدوا لي في عظمة الآلهة ومجدهم الأثيل ، وكان اسم سوان قد غدا لي شبه أسطوري ، فكنت حين أتحدث مع أفراد أسرتي أشتاق شوقاً مرضياً إلى سماعهم يتفوهون به : أما أنا فلم أكن أجسر على النطق به ، إلا أنني كنت أستدرجهم إلى مناقشة أمور تؤدي بطبيعتها إلى ذكر جيلبرت وأسرته . وبذلك أحس أنني لست منبوذاً من صحبتها على نحو ما : وقد اضطر أبي إلى تصحيح عبارة لي أخطئ فيها عمداً ، بأن أزعم أن مهنة جدي كانت قبل أيامه ، أو أن الزعرور البري الوردى كان في عرض الطريق ، فيقول أبي :

— كلا . هذه المهنة بدأت بوالد سوان ، والزعرور البري الوردى فى بستان سوان ، فى سياج البستان :

وعندئذ أسكت قليلاً كي ألتقط أنفاسى ، لأن الجهد الذى بذلته كان خافقاً . ولأن مجرد سماع الاسم كان يرهقنى ، لأنه يحرك المكان المقتربة به فى فؤادى . ويثير لدى لذة لا تعدلها لذة ، وأعجب لأن التفوه بهذا الاسم لا يسبب لم أى نوع من اللذة . وأحول الحديث إلى سياق آخر حرصاً منى على عدم افتضاح سرى . ولأننى أخشى أيضاً أن أفيد براءة قلوبهم لو سرى لىها شىء من اللواعج التى يثيرها فى سرى رقى هذا الاسم .

* * *

وفى تلك السنة حدد والدائ موعد العودة إلى باريس قبل التاريخ المعتاد فى كل سنة . وفى صباح يوم السفر عقصت شعرى ، تأهباً لمواجهة المصور ، ووضعت على رأسى قبعة جديدة . ولبست سترة من القטיפه ، وبعد ذلك بقليل عثرت على أمى — بعد أن ظلت تبحث عنى فى كل مكان — واقفاً منهمر العبرات فوق التل المرتفع الملاصق لتانسفيل ، أودع الوداع الأخير نبات الزعرور البرى ، وأضم فروعه الحادة إلى صدرى ، وبلا مراعاة للجهود المضنية التى بذلت فى عقص شعرى وتجميعه على جبهتى ، كنت أظأ بقدى أوراق العقص التى انتزعها من شعرى ، والقبعة الجديدة أيضاً ! ولم تتأثر أمى على الإطلاق بدموعى الغزيرة ، ولكنها لم تستطع أن تكتم صرخة



Looloo

وبعد ذلك بقليل عثرت على أمى — بعد أن ظلت تبحث عنى فى كل مكان — واقفاً منهمر العبرات فوق التل المرتفع .

فرع عندما رأته حطام قبعتي الجديدة ، وتمزق سترتي المخملية ! ولكني لم أسمع صرختها واحتجاجها ، بل واصلت مناجاتي الباكية :
- يا زعروري البري الغالي ! أنت لا تريد شقائي ، ولا تحملي على فراقك ! أنت لم تسبب لي أدنى أذى ! لذا سأحبك على الدوام ! وجففت دموعي ، ورحمت أقطع على نفسي العهد للزعرور البري ، لأنني عندما أكبر ، لن أحزنو حزناً سائر الناس الحتمي ، بل لأنني - حتى وأنا في باريس - في أيام الربيع الجميلة ، بدلا من الزيارات والإصغاء للثرثرة العقيمة ، سوف أقوم برحلات خلوية إلى الريف لأرى بواكير أشجار الزعرور البري المزهرة !

ومتي وصلنا إلى الحقول ، لم تكن تغادر أشجار الزعرور البري على امتداد مسيرتنا في طريق ميزجلين ، بل كنا نمر بها دائما ، أو يحمل إلينا الهواء دائما عبيرها . وهذه الرياح كانت في وجداني سر عبقريه كبراي : ففي كل سنة ، يوم وصولنا إلى هناك ، لكي أشعر أنني فعلا في كبراي ، كنت أذهب حتماً لأتساقى التل ، كي أشعر بهذه الرياح تخرق ثيابي ، وتدفع بي للجري في اتجاهها : فالمرء يجد دائما في صحبته تلك الرياح عندما يمشي في طريق ميزجلين ، في ذلك السهل المترامي الذي يمتد كيلومترات لأعوذ لها ، بغير عائق : وقد علمت أن الآتية سوان كان من عادتها أن تكثر من الذهاب لقضاء بضعة أيام في لاون Laon ، على بعد كيلومترات كثيرة جداً ، ولكن كان يعزيني عن هذا أن لا عائق أمام انفساح المنظر والطريق :

وفي ساعات ما بعد الظهر الحارة عندما أشعر بنفحة هواء تهب من أقصى الأفق ، فتنبأيل أمامها رعوس سنابل القمح في الحقول البعيدة ، وتنساب كالفيضانات فوق هذه المساحة الشاسعة ، لتستقر في النهاية دافئة موسوسة بين الأعشاب تحت قدمي ، كنت أحس أن هذا السهل المترامي المشترك بيننا ، يجمعنا مثلاً يفرق بيننا ، وكأنه يربط كلا منا بالآخر : وأنخيل أن هذه النسمة نفسها قد مرت بها أيضاً ، وأن همس هذه الرياح يحمل لي رسالة منها ، وإن عجزت عن فهمها ، فأحاول أن أقبض على النسيم الذي يهب من ناحيتها ، وأنثمه وهو يمر بي .

وكانت عن يساري قرية تسمى شيمبيه Champieu ، وعن يميني كنت أستطيع أن أتيين عبر حقول القمح منارقي كنيسة سانت أندريه ديه شان St. André des Champs ، وهما مستدقتان ، صفراوان ، خشناتان ، كأنهما سنبلتا قمح :

وعلى مسافات منتظمة ، من بين زينة أوارقها التي لا شبيه لها ، والتي لا يمكن الخلط بينها وبين أي أشجار أخرى للفاكهة ، كانت أشجار التفاح تعرض على الأنظار بتلاتها البيضاء الناعمة كالساتان ، أو تهب في عنقايد ومجموعات حيية براعمها المتوردة التي لم تتفتح بعد وفي غصون سيري في طريق ميزجلين لاحظت لأول مرة الظل الدائري الذي تلقىه أشجار التفاح على الأرض المشمسة ، ولاحظت أيضاً تلك الخيوط من الحرير الذهبي التي تنسجها أشعة الشمس

الغاربة تحت أوراقيها ، وقد أرى أبني يضرب بعصاه فيما بينها من غير أن تحيد عن مسارها المستقيم .

وأحياناً يتسلل قر أبيض متسلقاً سماء ما بعد الظهر كأنه سحابة صغيرة ، متخفية ، أو كأنه ممثلة لم يحن دورها بعد للظهور على المسرح ، ولذا تذهب في ثيابها العادية إلى الصالة لتشاهد مع الجمهور تمثيل بقية أعضاء الفرقة ، برهة ، ولكنها تجلس في مؤخرة الصفوف لأنها لا تريد أن تلفت إليها الأنظار !

وكنت فيما مضى أسعد برؤية صورة القمر في الكتب والرسوم ، وإن كانت هذه الأعمال الفنية مختلفة جداً - على الأقل في أعوامي الباكورة قبل أن يرهف « بلوخ » عيني وذهنى للهارمونييات الدقيقة - عما يبدو لي القمر اليوم ، ولعل تلك الكتب كانت رواية بقلم سانتين Saintine ، أو منظرأ بريشة جلير Glegre ، يبدو فيه القمر وكأنه منجل فضي فوق صفحة السماء . وهى أعمال غير ممكنة في تلك الأيام تضاهى في فجاعتها انطباعاتي ، وكانت شقيقتنا جسدتي تغضبان جداً لإعجابي بها . فقد كان من رأيهما أنه ينبغي ألا يوضع أمام أنظار الأطفال ليستحوذ على إعجابهم وذوقهم الفطري إلا تلك الكتب والصور التي يجدر بهم أن يعجبوا بها عندما تنمو عقولهم وتنضج أذواقهم . ولا شك في أنهما كانتا تعدان القيم الجالية أشبه بالموضوعات والأشياء المادية التي لا يفوت الرؤية الصافية الخالية

من الغيوم والأكدار أن تميزها ، بدون حاجة إلى أن تبدأ القلوب باختزان بذورها ثم تستنبتها وتنضجها مع مرور الزمن ببطء :

* * *

وعلى امتداد طريق ميز جلير ، في مونجوفان Montjouvain ، بيت مشيد على حافة بركة كبيرة ، ويشرف عليها تل وعمر المرتقى تكسوه الشجيرات ، يعيش فيه فاتي Vintueil ولذا كنا كثيراً ما نصادف ابنته تقود دوكارها بأقصى سرعة على ذلك الطريق . وبعد سنة معينة لم نعد نراها أبداً وحدها ، بل في صحبتها دائماً صديقة ، هى فتاة أكبر منها سناً ، لها سمعة سيئة في المنطقة . وأخيراً استقرت نهائياً ذات يوم بصفة دائمة في مونجوفان . وقال الناس :

— لا بد أن المسيو فاتي المسكين قد أعماه الحب فلم يعد يرى ما يتحدث عنه كل الناس ، وترك ابنته — وهو الرجل الذى يرتاع إذا استخدمت أى لفظ بمعنى سيئ — تأتى بفتاة مثل هذه لتعيش تحت سقفه . وهو يقول : لأنها امرأة ممتازة جداً ، ولها قلب من ذهب ، ولأنها كانت خليقة لو وجدت المران والتدريب أن تكون لها موهبة موسيقية نادرة . ولكن من المؤكد أن ما تعلمه هذه الفتاة لابنته ليس الموسيقى !

ولكن المسيو فاتي أكد لهم أنها تعلمها الموسيقى ، ومن الغريب حقاً أن الناس يثيرون دائماً الإعجاب بصفاتهم العادية جداً لدى أقارب كل من لهم اتصال جسدى به . فالسوى الجسدى — الذى شهر

به بين الناس - يرغم ضحاياها على إبراز كل ما يمكنهم إظهاره من الأثرة والكرم والنجدة ، وبذلك يتألقون في عيون الناظرين إليهم . وكان الدكتور برسيبي ، مؤهلاً بصوته العالى وحاجبيه الكثرين للقيام كما يهوى بدور المشهر المرائى ، من غير أن يهدر سمعته وشهرته بطيبة القلب وسرعة الغضب ، ولذا كان يجعل الخورى وسائر الناس يضحكون إلى أن تدمع عيونهم ، بأن يقول بصوته الأجش : - ما قولكم الآن فى هذا ؟ يبدو فعلاً أنها تعزف الموسيقى مع صديقها الآسة فانتى . أيدشكم هذا ؟ أنا شخصياً لا أعرف شيئاً على الإطلاق ، سوى ما قاله لى بابا فانتى بالأمس . ثم إنه من حق هذه الفتاة تماماً أن تشغف بالموسيقى . وأنا شخصياً لن أفكر فى إحباط الموهبة الفنية لأى فتاة . ويبدو أيضاً أن هذا رأى فانتى . ولذا يعزف هو الموسيقى كذلك مع صديقة ابنته . بحق السماء ! لا بد أن ذلك البيت صار جوقة موسيقية حقيقية ! ما الذى يضحككم بحق السماء ؟ لم أقل شيئاً سوى لأنهم يعزفون الموسيقى أكثر مما يجب ، هؤلاء الثلاثة ! وقد قابلت بابا فانتى منذ أيام قرب الجبابة : وكان لا تكاد تحمله قدماء !

وكل من شاهد كما شاهدنا نحن المسيو فانتى ، فى ذلك الحين ، وهو يتحاشى من يعرفهم من الناس ، ويشيح بوجهه كلما لمحهم من بعيد ، يجده قد تغير فى أشهر قلائل وصار شيخاً ، غارقاً فى هوة من الأحزان ، عاجزاً عن بذل أى مجهود ليس من شأنه أن يفضى

مباشرة إلى سعادة ابنته . وصار يقضى أياماً بأسرها إلى جانب قبر زوجته : حتى أن كل من رآه أدرك أن الرجل يموت موتاً بطيئاً وهو كسير القلب ، ولا يكاد أحد يصدق أنه لا يلقى بالآ إلى كل الإشاعات التى تلاك من حوله . ولعله كان يعرف ، بل وكان يصدق ما يقوله جيرانه . وربما لا يوجد أحد من الناس - مهما كان صارم الفضائل مترماً فيها - ليس معرضاً لأن يجد نفسه - بحكم الظروف المعقدة - يعيش عن كذب من نفس الرذيلة التى كان أعلى الناس صوتاً بالتنديد بها ، من غير أن يعرفها فى البداية تحت ذلك القناع الذى تتخذه عندما تمثل بين يديه ، لكى تكون أشد تمكناً من إيلامه : وقد يكون مصدر هذا العذاب أحب الناس إليه وآثرهم لديه : ولكن رجلاً له مثل حساسية المسيو فانتى لا بد أن يكون ألمه أضعاف ألم رجل عادى عجمت الحياة عوده وعلمته الصلابة ، وهو يرى نفسه مضطراً للإذعان لتلك المواقف النابية التى يزعم الناس - وعن خطأ ما يزعمون ! - أنها لا تحدث إلا فى الأوساط البوهيمية دون سواها : فالواقع أن هذه الرذائل التى توصف بالشذوذ تزدهر وتؤتى ثمارها من بذور غرسها الطبيعة نفسها فى نفس الطفل ، حين مزجت بين صفات أمه وأبيه ، على نحو ما مزجت بين لوفى عينيها .

وبالغة ما بلغت معرفة المسيو فانتى بسلوك ابنته ، إلا أنه لم يترتب على هذا أى نقصان فى توطئه بها إلى حد العبادة : فحقائق الحياة لا تنوغل إلى المحال الذى تستقر فيه معتقداتنا . ولأن حقائق الحياة

ليست هي التي أنجبت هذه المعتقادات ، لذا فهي عاجزة عن تدميرها والقضاء عليها . أجل إنها تستطيع أن توجه إليها الضربات ، وتكيل لها التفتيد والتسخيف ، ولكنها هيئات أن تنال منها أو توهنها . وطوفان الشقاء والأمراض الذي ينصب على أسرة ما بلا انقطاع ، لا يمكن أن يحملها على فقدان إيمانها برحمة الله أو مقدرة الطبيب . ولكن عندما نظر مسيو فانتى إلى ابنته وإلى نفسه من وجهة نظر الناس ، ومن وجهة نظر سمعتهما ، وعندما حاول أن يقف إلى جانباها في نفس المستوى الذي يشغلانه معاً في تقدير جيرانهما ، عندئذ تحتم عليه أن يصدر حكمه بالإدانة ، فيدين نفسه ويدينها اجتماعياً بأحط النعوت والألفاظ التي استخدمها ألد أعدائه في كبراي . وإذا به يرى نفسه ويراه في الدرك الأسفل . ولذا اصطبغت بخته بتلك المهانة . وهاله الفارق بينه وبين من يراهم جديرين بالاحترام من حوله (مع أنهم من قبل كانوا أقل منه بكل المقاييس) وتقطعت نفسه حشرات وهو يبحث عبثاً عن وسيلة ترفعه إلى مستواهم .

و ذات يوم ، فيما نحن سائرون مع سوان في أحد شوارع كبراي ، وجد المسيو فانتى نفسه فجأة - وهو خارج من شارع آخر - وجهاً لوجه أمامنا جميعاً ، بحيث لم يجد فرصة للروغان . وعندئذ وجد المسيو سوان من واجبه بمقتضى تلك الرحمة المتعالية التي يتمتع بها رجل المجتمع الذي حنكته الدنيا - وأيضاً بحكم انحلال أهوائه الخلقية - أن ما استولى على فانتى من الخزي والعار مبرر

كاف لمعاملته بمودة من شأنها أن ترفع من شأن سوان في عين نفسه ، لما فيها من قيمة كبيرة نادرة يفتقر إليها الرجل ، فتحدث طويلاً مع المسيو فانتى ، مع أن علاقته السابقة به كانت سطحية ، ودعاه - قبل أن ينصرف عنا - أن يبعث بابنته ذات يوم لتلعب في حدائق تانسفيل : وهي دعوة لو أنها وجهت من عامين لكانت خليقة أن تغضب المسيو فانتى أشد الغضب - بسبب تمسكه بالفضيلة وإدائته لزواج سوان - إلا أنها ملأته الآن حوراً ففاض بحياه بالعرفان . وشعر بأن هذه الدعوة تدعم عظيم لموقف ابنته . إلا أنه لحياته الشديد لم يجد من اللائق استغلال هذا الكرم وقبول الدعوة ، وآثر أن يحتفظ بها رصيلاً أفلاطونياً يكفيه منه الشعور بالرضا .

وبعد أن انصرف سوان ، قال لنا بنفس الحماسة والإجلال اللذين يجعلان حسناوات الطبقة الوسطى يقعن فريسة السحر الثقافي والجسدى لإحدى الدوقات ، مهما كانت قبيحة حمقاء :
- ياله من رجل ساحر ! ما أطفه ! ومن المؤسف حقاً أن يكون قد تردى في هذا الزواج المنكود !

وعندئذ بدا مبلغ ما في نفوس الناس - حتى أشدهم إخلاصاً - من رياء ، فإذا بهم حين يتحدثون مع أى شخص يحسبون عنه رأيهم الحقيقي فيه ، ثم يصرحون به متى ابتعد عنهم . ولذا رأيت أسرقى تنضم إلى المسيو فانتى في التنديد بزواج المسيو سوان ، مستندين إلى مبادئ وأعراف وتقاليد ، وكأن هذه المبادئ والأعراف - وهم

يتحدثون إلى المسيو فانتى - ليست منتهكة في مونجوفان ، لأن الكلام معه كان بصيغة حديث بين مجموعة متجانسة النوع من الناس .

ولم يرسل المسيو فانتى ابنته لزيارة المسيو سوان ، فكان المسيو سوان أول من أسف لذلك ، لأنه تذكر بعد لقاء المسيو فانتى أنه كان ينوى منذ مدة طويلة أن يسأله عن شخص يحمل نفس الاسم ، يظنه سوان من أقربائه . وكان ينوى أن يسأل المسيو فانتى عن هذا الموضوع عندما يحضر مع ابنته إلى تانسفيل .

ولما كان طريق ميز جليز أقصر الطريقين اللذين كنا نستخدمهما في مسيرتنا حول كمبراى ، ولذا كنا نخصصه للأيام ذات الطقس غير المستقر . وكثر في هذا الموسم سقوط الأمطار ، لذا لم تغب عن أنظارنا حافة غابة تانسفيل ، كى يتسنى لنا فى أى لحظة أن نجبرى لنحتفى تحت سقف أوراقها الكثيفة .

وفى كثير من الأحيان كانت الشمس تخفى خلف سحابة ، تخفى قرصها ، ولكن أشعة الشمس تصبغ حوافها بألوان ذهبية ، ويختفى للضوء الساطع من المنظر المحيط بنا ، وكأن كل مظاهر الحياة فيه قد توقفت ، فى حين ترسم قرية روسنفيل على صفحة السماء بكل تفصيلاتها الدقيقة بصورة مذهلة . وجرفت الرياح غراباً من فوق مجثمه ، فطار مبتعداً واستقر على مبعدة ، فى حين تكتسب الغابة على حافة الأفق لوناً أزرق أعمق من سائر صفحة السماء الشاحبة ،

كأنما نقشت صورتها نقشاً بارزاً مثل تلك النقوش التى ما زلنا نراها فى البيوت القديمة .

ولكن فى أيام أخرى يبدأ المطر فى المطول ، بعد أن نكون توقعنا ذلك وتلقينا تحذيراً عنه من جانب البارومتر الذى يعلقه صانع النظارات فى مدخل محله . وتتساقط قطرات المطر فى مجموعات كأنها الطيور المهاجرة فى لحظة معينة ، وتهطل من السماء فى انتظام كانتظام الطواير الزاحفة . ولا تلمح بين صفوفها المترصة أى اختلال ، بل تتواكب القطرات وتسود صفحة السماء مثلاً يسود لونها بأسراب طيور السنونو المهاجرة إلى الجنوب . ونحتفى تحت الأشجار ، وعندما يخيل إلينا أن الانهمار قد انقطع ، نجد قطرات متباعدة تهطل ، بمعدل أبطأ ، وفى تباعد ، إلا أننا لا نبالى بها ونبرز من تحت ملاذنا الأخضر ، ونلعب مع بقايا المطر لعبة الاستخفاف : نرفع وجوهنا ، وإذا بالقطرات التى تجمع فى تجويف ورقة كبيرة تفاجئنا لتهد فوق وجوها من ارتفاع الشجرة الشاهق .

وفى كثير من الأحيان أيضاً نجبرى لنحتفى بمدخل كنيسة « سانت أندريه ديه شان » ونحن نعتز ونتخطب بين تماثيل قديسها : ويالها من كنيسة فرنسية الطابع حقاً ! ففوق بابها صور القديسين ، وملوك القروسية وفى أيديهم الذنابق ، وصور حفلات الزواج والجنائز منحوتة هناك على نفس الهيئة التى تتجلى فى ذهن فرنسواز العامى . وقد سجل النحات هناك أيضاً بضعة أحداث مقبسة من أوسلو

ومن فرجيل ، تماماً على نحو ما تنطلق فرنسواز في مطبخها لتتحدث عن القديس لوى Louis وكأنها كانت تعرفه شخصياً ، لا شيء سوى استخدام هذا الحديث لبيان الفرق بينه وبين جدى وجدلى اللذين كانت تعدهما أقل قداسة وبراً وصلاحاً .

وفى وسع المرء أن يتبين هنا أن الأفكار التي كانت لدى فنان العصر الوسيط ولدى فلاح القرون الوسطى (وفلاحة من هذا النوع ها هي حية ترزق تطهو لنا الطعام فى القرن التاسع عشر) عن التاريخ الكلاسيكى وتاريخ المسيحية الباكر ، أفكار تستحق الصفح والتسامح لما تنسم به من بساطة أمينة إلى حد السذاجة ، وهى فى الحقيقة ليست أفكاراً مستقاة من الكتب ، بل من تقاليد قديمة ومباشرة وشفوية وناطقة بالحياة .

وهناك شخصية أخرى من شخصيات كبرى كنت أميزها أيضاً بقوتها وغطيتها فى المنحوتات القوطية لكنيسة « سانت أندريه ديه شان » ، وهى شخصية الفتى تيودور Théodore ، مساعد البقال كامى Camus . والواقع أن فرنسواز كانت تحس فى أعماقها أن تيودور هذا معاصر من مواطنيها ، لأن عمى عندما كانت العلة تشتد عليها ، بحيث يستعصى على فرنسواز أن تحملها وحدها لتقلها من فراشها إلى كرسيها ، لا تسمح لخادمة المطبخ بالصعود لمساعدتها ، بل ترسل فى طلب تيودور . والعجيب أن هذا الفتى الذى كان معروفاً فى القرية - وبحق - بأنه « ابن سوء » .

كان يفيض بذلك الروح الذى سجله النحات على مدخل كنيسة سانت أندريه ديه شان ، ولا سيما فى أمارات الاحترام الواجب - فى نظر فرنسواز - بإزاء « المرضى المساكين » ، وعلى الخصوص نحو « سيدتها المسكينة » ، ولذا كان يبدى وهو ينحنى لرفع رأس عمى من فوق وسادتها نفس البساطة والحاسة التى يبدىها الملائكة الصغار فى تلك اللوحة الكنسية ، وما أكثرهم فيها حاملين فى أيديهم الشموع الريفية وهم يحفون بجثمان سيدتنا العذراء . وكأنهم بأجسامهم العارية الهامدة كأشجار الشتاء ماتوا أيضاً ، فى انتظار يوم تدب فيه الحياة ويورقون ، على هيئة وجوه سوقية كلها بساطة مزوجة بالخيث ، مثل وجه تيودور ، ولها نظرة التفاح الناضج !

وهناك أيضاً ، تمثال ليس مثبتاً فى الجدار مثل أولئك الملائكة الصغار ، بل هو منفصل عن المدخل ، وبحجم أكبر من الحجم البشرى الطبيعى ، لامرأة منتصبة القامة فوق قاعدة ، مثلاً تقف نساء البشر فوق مواطئ الأقدام ، لتحتفى من الاتصال بالأرض الرطبة : وهذه القديسة وجنتان مليتان وتديان ناهدان قويان بارزان من تحت ثيابها كعنقودين من العنب الناضج داخل كيسين ، وجبهتها ضيقة ، وأنفها قصير يدل على العناد ، وعيناها غائرتان ، ومنظرها يدل على القوة وصلابة البشرة والبسالة والإقدام مثل الريفيات فى هذا الإقليم . وكان هذا التشابه الذى أضفى على التمثال نفسه رقة وحياة لم أكن أتوقعهما فيه ، كان يتأكد كثيراً بوصول إحدى الفتيات من

الحقول المجاورة ، وقد جاءت كما جئنا لتحتوى تحت مدخل الكنيسة لتحتوى من المطر ، فيتيح لنا وقوفها بجوار تمثال القديسة أن ندرك مدى صدق ذلك العمل الفني ، على نحو ما يتسلق النبات الطبيعى واجهة منحوتة فوقها أوراق نبات ، فإذا بك تحس من هذا التجاور مدى صدق الفنان وإخلاصه للطبيعة الحية :

وأما أعيننا - ونحن هناك - نرى عن بعد الأرض الموعودة أو الملعونة ، ترى روسنفيل التى لم يتح لى أن أنفذ وراء أسوارها : وعندما يكف المطر عن المطول فوقنا تظل روسانفيل قريسة العاصفة كأنها بلدة ملعونة من تلك البلدان التى ذكرتها التوراة وقالت إن الرب صب عليها سهام غضبه . وأحياناً نرى هذا العقاب يرتفع عنها بعد حين ، ويشملها غفو الرحمن ، وتشرق شمس مرة أخرى على مساكنها بأشعة غير متساوقة .

وفى بعض الأحيان قد يسود الطقس بحيث تضطر للاحتباء داخل بيتنا ، وعندئذ يبدو مشهد البيوت تحت المطر والغيم أشبه بالمنظر البحرية ، ومن فوق البيوت تدنو السحب المطيرة ، وترعد السماء وتبرق : وتلوح الأنوار من النوافذ ، وكأنها أنوار قوارب ألقت مراسيها طول الليل فى عرض البحر :

ولكن ما أهمية المطر أو العاصفة ؟ إن الطقس السيئ فى الصيف ليس إلا نوبة عارضة من غضب سطحي عابر بالقياس إلى اعتدال الجو السائد فى معظم الأيام : وهذا تقيض جو الشتاء على طول الخط :

وفى مثل تلك الأيام أجلس فى الرواق الصغير أطلع كتاباً ، انتظراً لوقت العشاء ، وأرنو من خلال النافذة ، وأصغى لتساقط الماء من أشجار كستنائنا ، مدركاً أن هذا المطر من شأنه أن يجلو خضرة أوراق حديقتنا ، وأشعر بالاطمئنان إلى أن المطر مهما اتهم طول الليل ، فى الغد سيكون الجو صحوً ، وسأجد سياج تانسفيل وقد ازدادت أوراق نباتاته اخضراراً ونضارة ، تلك الأوراق التى يحاكي شكلها شكل القلب . وبدون قلق أرقب أشجار الحور فى شارع بيرشان Perchamps وهى تنضرع إلى الله متوسلة وطالبة منه الرحمة ، وتنحني فى خوف أمام العاصفة . وبدون قلق أيضاً أسمع من الطرف الأقصى للحديقة آخر دمدومات الرعد وهى تتردد بين أشجار اليلك :

وإذا ظل الطقس سيئاً طول فترة الصباح ، تتخلى أسرتى عن التزهة ، وأبقى فى البيت . ولكنى بعد فترة تعودت أن أخرج بمفردى فى مثل تلك الأيام وأسير صوب ميزجلز لافينيز ، أثناء ذلك الخريف الذى تحم علينا فيه أن نحضر إلى كبراي لنسوى قسمة ضيعة عمتى ليونى ، لأنها ماتت أخيراً تاركة فريق جيرانها شاعرين بالانتصار لوفاتها : فريق من كانوا يصرون على أن أسلوب حياتها من شأنه أن يضعفها ولا بد أن ينتهى بقتلها ، وفريق من كانوا يقولون إنها تعانى من مرض غير وهمى ، بل عضوى ، وقد أيدت وفاتها فراستهم : وهكذا لم يسبب موتها حزناً حقيقياً لأحد من عاشوا

بعدها ، اللهم إلا لشخص واحد ، ولكن حزن هذا الشخص الواحد كان ضارياً في عنقه . ففي الأسبوعين الأخيرين من مرض عمي الأخير لم تبارح فرنسواز حجرة عمي لحظة واحدة . ولم تخلع ثيابها قط ، ولم تسمح لأى أحد سواها أن يصنع لعمي شيئاً ، ولم تفارق جنباتها إلا بعد أن أودع القبر فعلاً .

وعندئذ فهمنا أخيراً أن ذلك الرعب الذى عاشت فيه فرنسواز خوفاً من كلمات عمي الغليظة القاسية ، ومن شكوكها وغضبها ، قد أوجد لديها شعوراً عميقاً أخطأنا حين حسبناه الكراهية ، في حين أنه كان الإجلال والحب . وها هى سيدتها الحقيقية التى كان من المستحيل عليها أن تتجاهل أوامرها ، ومن المستحيل عليها أيضاً أن تتكهن بها سلفاً ، ومن العسير عليها أن تتخلص من مناوراتها ، وإن كان من السهل عليها أيضاً استغلال طيبة قلبها . ها هى طاغيتها المستبدة ، وملكتها المطلقة قد قضت نحبها . أما نحن فلم يكن لنا وزن يذكر بالقياس إلى مثل هذه السيدة الفذة . فقد مضى زمن طويل على ذلك العهد الذى كنا نحن فيه - عند قدومنا لأول مرة إلى كمبراى لقضاء العطلة - نعد في نظر فرنسواز على قدم المساواة من حيث المكانة والأهمية مع عمي ليوني .

وفي ذلك الخريف ، كان والداى مشغولين في جميع الأيام طول الوقت بالإجراءات القانونية التى كان لا بد من الانتهاء منها ،

وبالمناقشات مع المحامين والفلاحين ، فلم يكن لديهما متسع من الوقت للزهرات سيراً على الأقدام التى جعلها تقلب الجوى القاسى مخوفة بالمتاعب ، فشرعا يسمحان لى بالخروج بدونهما ، إلى طريق ميزجلز ، ملفوفاً في دثار صوفى سميك كان يحمىني من المطر . وكان يشجعني على لفه حول كفتي ما كان يبدو على فرنسواز من غيظ بسبب ألوانه الأسكتلندية الزاهية ، ولرفضها التصديق بأن لون ملابس الإنسان لا علاقة له مطلقاً بالحزن والحداد . ولا سيما أنها كانت تجد حزننا لوفاة عمي ليوني غير كاف في نظرها ، لا لشيء إلا لأننا لم ندع الجيران بعد تشييع جنازتها إلى مأدبة حافلة تليق بمقام الفقيده الرفيع . كما أننا لم نكن نستخدم نيرة خاصة كلها خشوع وإجلال عند ذكر اسمها الكريم . أما أنا فما كان أعظم ذنبى في نظر فرنسواز لأنى كنت أحياناً أجرؤ على الدندنة ببعض الألحان الموسيقية التى أعشقها ، كما هى عادتي . وكانت تعتقد أن مراسم الحداد ومظاهره كما تصفها الكتب القديمة - وأنا في هذا متفق معها تماماً - على غرار ما ورد في « أغنية رولان » Roland وما ييسدو في لوحات مدخل كنيسة « سانت أندريه ديه شان » ، أليق وأكثر جاذبية وسحراً . ولكن - لسبب ما لا أدريه - ما إن كنت أرى فرنسواز تدنو من مكاني ، حتى تتملكني رغبة جارفة في استئارة غضبها ، وأنتهز أول ذريعة للتحدث عن عمي الراحلة ، قائلاً لها : كم أنا أسف لوفاتها ، رغم ما كان فيها من سخافة وغرابة أطوار .

وأن سبب حزني ليس أنها كانت عمتي ، فقد كان من الممكن جداً أن تكون عمتي ومع ذلك أبغضها كل البغض بحيث لا يسبب موتها لي أي حزن أو أسف . وهي عبارات لو وردت في كتاب لأدهشتني بسخاقتها وعمقتها !

فإذا ما هبط الوحي والإلهام على فرنسواز كأنها شاعرة ، واندفعت تنفوه بعبارات وخواطر محمومة غاضبة عن واجبات الإحساس بالحزن وبروابط الدم في الأسرة الواحدة ، وما تحفل به حياة الأسرة من ذكريات رقيقة عزيزة ، ثم أرتج عليها فقالت في النهاية يائسة :

— أنا لا أعرف كيف « أهر » عن نفسي !

وهي تعني بكلمة « أهر » كلمة « أعبر » فهي تخطئ مثل كثير من الأميين في نطق الألفاظ الفصيحة التي تسمعها وتصر مع ذلك على استخدامها . وعندئذ أهرأ منها بغلظة جديرة بالكتور برسييه ، فترد على قائلة :

— إن قرابتك لها على كل حال قرابة « جيولوجية » ! ومن

واجبك أن تحترم « جيولوجيتك » !

فأهر عندئذ كنتي وأقول لها :

— لأنها بلا شك طيبة بالغة مني أن أناقش الأمر مع عجوز أمية

مثلك لا تستطيع أن تتكلم لغتها .

مقلداً حذقة الرقعاء الذين يسخرون من بساطة الجهلاء ...

وكانت نزهاً في ذلك الخريف أحفل بالمتعة ، لأنني كنت أمضي فيها بعد تخمئة ساعات طويلة أطلع كتاباً ما : وعندما أشعر بالتعب أو الملل من القراءة ، طيلة الصباح في البيت ، ألقى بذلك الدثار الأسكتلندي المخطط فوق كنتي وأغادر البيت ، وقد ادخر بدني من ساعات الجلوس والسكون الطويلة رصيلاً كبيراً من الطاقة الحيوية ، وناق إلى إفراغها في الحركة والوثب والنشاط في جميع الاتجاهات . ويقضي على جذران البيوت وسياج تانسفيل وأشجار غابة رونسفيل ، وللشجيرات التي يوليها مونجوفان ظهره ، أن تتحمل ضربات عصاي أو مظلي ، وتردد أصداً صيحاني التي تعبر عن حبوري : وما كانت تلك الضربات والصيحات التلقائية إلا تعبيرات عن الأفكار والخواطر المضطربة التي تموج بالهجة في أعماق نفسي ، ولا تريد أن تستقر إلى أن تنضج وتجد التعبير المنظم عنها ، فتأبى إلا أن تنفجر على هذه للصورة ، وعلى هذا النحو يكون ما يخرج منا اعتباراً إنما هو طريقة لتخليصنا من عبء هذه الإحساسات الزاخرة الطامية التي تنوء بحملها ، ولا نعرف كيف نترجمها إلى تعبيرات فنية :

وعندما حاولت أن أسترجع وأحصى كل ما أنا مدين به لطريق ميزجلز ، وكل اكتشافاتي المتواضعة التي عثرت عليها بالصدفة أو ألهمني إياها هذا الطريق ، تذكرت أنني كنت ، في غضون ذلك الخريف ، في إحدى نزهاً هذه بالقرب من الهوة الملتفة الأشجار التي تحمي مونجوفان من الخلف ، وإذا بي أدهش لأول مرة بحسب

التناسق بين انطباعاتنا والصور العادية للتعبير عنها . فبعد ساعة من المطر وعصف الرياح ، اللذين كافحتهما كفاحاً شديداً ، وصلت إلى حافة بركة مونجوفان ، وإذا بكوخ صغير له سقف من القرميد ، يحتفظ فيه بستاني المسيو فانتى بأدواته . وفجأة أشرفت الشمس مرة أخرى ، وسطعت أشعتها الذهبية التي غسلها المطر في قبة السماء ، وعلى الأشجار ، وعلى جدار الكوخ ، وعلى قرميد السقف الذي لم يزل مبتلاً ، وقد جثمت على حافته دجاجة . وكانت الريح تجذب الأعشاب البرية النابتة في الجدار ، وتجذب ريش الدجاجة بعنف ، وحملت الريح نتفاً من العشب ومن ذلك الريش بخفة وبأقصى سرعة تندفع بها مثل هذه الأشياء الخفيفة التي لا حياة فيها . وانعكست صورة السقف القرميدي على سطح البركة الذي بدا صافياً في ضوء الشمس ، فكأنما أرى مربعا من الرخام الوردى اللامع لم أر له مثيلاً من قبل . واقترب وجه الماء عن ابتسامة شاحبه تحاكي ابتسامة السماء في تلك اللحظة ، فصاحت بأعلى صوتي من فرط حماسي ، وأنا ألوح بالمظلة :

— مرحى ! مرحى ! مرحى !

وحاولت أن أتعمق بواعث حيوري . وفي هذه اللحظة مر بي فلاح ، اصطدمت مظلتي بوجهه ، فكشّر عن أنيابه متجهماً وأنا أقول له :

— يا له من يوم جميل ! ما أبهى أن يخرج فيه المرء للنزهة .

وكان رده الجاف درساً لي تعلمت منه أن المشاعر البشرية لا تجيش على نحو واحد في جميع قلوب البشر طبقاً لنظام مسبق . واكتشفت فيما بعد أنني كلما قرأت ساعات طويلة حتى الملل وصرت تواقاً للحديث ، وجدت الصديق الذي أتحرق شوقاً لحديثه معي قد فرغ لثوه في هذه اللحظة من ساعة طويلة من الحديث ، ولم يعد يتمنى شيئاً سوى أن يتركه الناس يخلد للقراءة في صمت وسكينة . وأما إذا كنت أفكر بكل إعزاز في والدي ، وأدبر في نفسي أنسب الخطط لإدخال السرور عليهما ، يكونان هما في هذا الوقت بالذات قد اكتشفا سوء تصرف بلدي ونسيته تماماً ، فيشرعان في تقريري بكل عنف في اللحظة التي ألقى بنفسي فيها عليهما لأقبلهما بحرارة وشوق !

وأحياناً ينضاف إلى الجور الذي أستمدّه من نزهي وحدي شعور آخر ، وتستبدني الحيرة بين هذين الشعورين فلا أدري أيهما أرجح ، وهذا الشعور الآخر هو الرغبة في أن أرى فنانة فلاحه تنصب واقفة أمامي ويتاح لي أن أضمه بين ذراعي . ولأن هذا الخاطر داهمني فجأة ، ولم يتح لي أن أتعب مصدري بين أفكارى الأخرى المتنوعة ، لذا كانت اللذة التي تصاحب هذه الرغبة تبدو لي من نوع أرقى من التذادي بأفكارى الأخرى .

لقد وجدت في ضوء هذه الرغبة مزية إضافية لكل ما كان يحول بذهني في ذلك الوقت : في الانعكاس الوردى لقرميد السقف ،

وفي العشب البرى النابت فى الجدار ، وفى قرية روسنفيل التى طالما
 تمنيت أن أدخلها ، وفى أشجار غابتها ومنازة كنيستها : ودخلنى
 اعتقاد بأن هذه الصور الجميلة هى التى ولدت فى نفسى تلك الرغبة
 فى معانقة الفتاة المرجوة : ولكن تلك الرغبة فى ظهور تلك المرأة
 زودنى بما هو أكثر من المتعة بجبال الطبيعة والابتهاج به ، لأن هذا
 الجمال الطبيعى جعل ما يمكن أن أجده من اللذة فى أحضان تلك المرأة
 أكثر رحابة وأعمق أثراً . لقد خيل لى أن جمال الأشجار التى أراها
 إنما هو جمال تلك المرأة أيضاً ، فقبلتها وهى التى يمكن أن تجعلنى للسيد
 المهيمن على جمال ما فى هذا الأفق من رحابة ، وما فى قرية روسنفيل
 من خيال ، بل وعلى الكتب التى قرأتها فى تلك السنة : واستمدت خيالى
 مزيداً من القوة من اشتهاى لها ، فاتسع هذا الاشتها حتى شمل كل
 ممالك خيالى وعوالمه ، فلم يعد لهذه الشهوة حدود .

وفضلاً عن هذا ، كما أن لحظات الاستغراق فى تأمل للطبيعة
 توقف نشاط العقل العادى ، ونعتقد أعمق الاعتقاد بأصالة وحقيقة
 وجود المكان الذى قد نجد فيه أنفسنا - كذلك لم تكن المرأة التى
 اشتيتها فى تلك اللحظة أى نمط كيفما كان لجنس المرأة ، بل نتاجاً
 ضرورياً وطبيعياً لربة الأرض التى أمشى فوقها : فى ذلك الحين
 كان كل ما عدا ذاتى ، أهم وأكثر واقعية مما يبدو للرجال الناصحين •
 ولم أكن أميز بين التربة ومخلوقاتنا . لذلك اشتيت فتاة فلاحسة من

ميزجليز أو روسنفيل ، أو فتاة صائدة سمك من بليك ، تماماً كما
 كنت أشتى بليك وميزجليز .

ولو أن اللذة التى تتيحها لى هاتيك الفتيات كانت زائفة ،
 لفقدت كل لإيمانى بها ، إن كان فى وسعى أن أغير من أحوالها ،
 فإن قابلت فى باريس فتاة صائدة أسماك من بليك أو فلاحسة من
 ميزجليز لكان ذلك أشبه بتلقى محارة لم أرها من قبل على الشاطئ ،
 أو نبات فطرى لم أراه من قبل غابات ميزجليز : وذلك خليك أن يجرّد
 الهدية من كل متعة حقيقية ، ويجرد الفتاة من كل المفاتيح التى أغدقها
 عليها خيالى الخصب : أما أن أتجول فى غابة روسنفيل من دون فتاة
 فلاحسة أعانقها فذلك يجعلنى أجهل سر هذه الغابة الخفى ، وجملها
 المكنون : فالفتاة المشتهاة التى لم أرها قط إلا مرقشة بظلال أوراق
 شجر الغابة ، كانت فى حد ذاتها نباتاً محلياً ، وكل ما هناك أنها نبات
 أطول من سائر النباتات التى أراها حولى ، ولها بنية تتيح لى أن ألس
 فيها للنكهة الحميصة للأرض التى انبثقت من ثراها .

وكنْتُ أصدق هذا وأعتقد طواعية (وأعتقد كذلك أن
 المداعبات والملاطفات التى توصل بها هذه النكهة الخاصة إلى حواسى
 كانت فى حد ذاتها من نوع خاص ، وتفضى إلى لذات لا يمكن أن
 أحصل عليها إلا منها هى) لأنى كنت ما أزال - وسأظل لفترة
 طويلة - فى تلك الفترة من العمر التى لم يفصل فيها المرء بين حقيقة
 لذته الحسية وبين النساء المختلفات اللواتى فى صحتن تذوق هذه

الذات ، ولم يحولها المرء بعد إلى فكرة عامة بحيث إنه بعد ذلك يعد أولئك النسوة مجرد أدوات متباعدة للذة واحدة في جميع الأحوال .
والواقع أن اللذة لا توجد منعزلة ومتشكلة في الشعور باعتبارها الموضوع الأقصى الذى ينشد المرء من ورائه صحبة امرأة ، أو باعتبارها سبب القلق الذى يشعر به وهو يتحرق شوقاً إلى هذه الصحبة ، بل لا يكاد المرء يفكر عندئذ في نفسه ، بل كل تفكيره في كيفية الحرب من نفسه ، بل إن هذه اللذة تظل غامضة وكامنة ، وتشتد حتى تصل إلى قمة النشوة أو نوبة البرحاء في اللحظة التى تقترب منها وتوقظها الذات أخرى نجدها في النظرة الرقيقة الحنون ، أو في قبلة تلك التى يجانبنها ، ولكن اللذة القصوى تبدو لنا عندئذ وكأنها شعلة عرفان لرقعة قلب رفيقتنا وولعنا بنا ، ذلك الولع الذى نقيسه بالسعادة التى تغمرنا بها ...

ولكن وا أسفاه ! عبثاً توسلت إلى حارس جب روسنفيل أن يخرج لى من أغوار هذا الجب المظلم لإحدى بنات تلك القرية ، التى تمثلت فيها كل سحر هذه القرية التى لا أعرف عنها إلا ما لمحت من الحجر العلوية الصغيرة ، وهو برجها العالى ، وقد اندفعت مع أوهام خيالى حتى ارتجفت أوصالى ، ثم شاعت فيها لذة غامضة ، وكنت أهرب إلى هذه الحجر العلوية المنعزلة كى أحظى بها خلصة ، ثم يستولى على همود كهمود الموت .
والمح درباً منعزلاً أحسبه يفضى لى إلى ما أشتى ، وأمضى فيه

حتى مدخل كنيسة سانت أندريه ، ولكن عبثاً أصبو إلى أن أجده هناك الفتاة الفلاحة التى كنت - ويا لسخرية الأقدار - أجده مثلها دائماً هناك حينما أكون فى صحبة جدى . ولكن صحبته كانت تمنعنى من التحدث إليها . وأثبت نظرى على جذع شجرة بعيدة ، على أمل أن تبرز لى من خلفها وتظفر نحوى . ولكن تحديقى العميق يظل بلا جدوى ، ويظل الأفق خالياً تماماً . ويبدأ الليل فى إسدال أستاره . فأثبت نظرى فى قنوط على أديم الأرض الجرداء ، ثم أنصرفت وأنا أصب على أشجار روسنفيل لا ضربات الجبور ، بل ضربات الغيظ ، لأنه ما من مخلوق بشرى تراه لى بيننا . وأوطن النفس على العودة إلى البيت من غير أن أضم بين ذراعى المرأة التى أشتيتها بكل عنف . وأعود أدراجى إلى كمبراى ، ومع كل خطوة أخطوها يتضاءل أملى فى الالتقاء بها ..

ولكن ، أترانى - لو ظهرت - كنت أجسر على الحديث معها ؟ أحسب لى لو حاولت ذلك لظننتى مجنوناً ، لأنى لم أكن أعتقد أن شهورى التى تسبدي فى نزهاى هذه من الممكن أن يشعر بمثلها أحد سواى . فهى لم تكن فى حسابى إلا مخلوقة صنعها خيالى واختلقها حرارة دماغى ... ولم تعد - وأنا فى طريق العودة - تبدو لى مرتبطة أدنى ارتباط بالطبيعة ، وعالم الأشياء الحقيقية ، التى فقدت منذ الآن كل سحرها وكل معناها ، ولم تعد تعنى عندى إلا هيكلاً تقليدياً ،

أشبه بأحداث رواية تجري في عربة قطار ، حيث يطالعها مسافر ليزجى بها الوقت :

ولعل انطباعاً آخر تلقينته في مونجوفان ، بعد ذلك ببضع سنوات — وهو انطباع لم يكن له في ذلك الحين معنى — هو الذى ولد عندي فيما بعد فكرتي عن هذا الجانب القاسى من الانفعال البشرى الذى يسمى « السادية » : وسوف نرى ، في الأوان المناسب ، أن ذكرى هذا الانطباع ستقوم لسبب آخر بدور هام في حياتي .

ففي أثناء موجة من الحر الشديد ، قال لى والداى اللذان كانا قد اضطررا للتغيب طيلة يوم كامل إن في وسعى البقاء في الخارج إلى ساعة متأخرة كما أشاء : وذهبت حتى بركة مونجوفان ، حيث استمتعت مرة أخرى بمنظر انعكاس قرميد سقف الكوخ ، ووقدت بعد ذلك في الظل ورحت في النوم بين الشجيرات على المنحدر الوعر الذى يرتفع خلف البيت : في نفس المكان الذى كنت في مرة سابقة قد انتظرت والدى منذ سنوات عندما دخلا لزيارة المسيو فانتى : وكان الظلام قد أوشك على الإطباق عندما استيقظت ، وأردت أن أنهض وأنصرف ، ولكنى رأيت الآنسة فانتى (أو ظننت على الأقل أنني عرفتها ، لأنى لم أكن رأيتها كثيراً في كمبراي ، وفي المرات التي رأيتها فيها كانت ما تزال طفلة ، ولكنها الآن أوشكت أن تكون شابة) ولعلها كانت قد عادت إلى البيت لتوها ، ووقفت

أمامي ، على بعد أمتار قليلة مني . في نفس تلك الحجرة التي استقبل فيها والدها والدي ، وقد حولتها الآن إلى حجرة جلوس صغيرة لها : وكانت النافذة نصف مفتوحة ، والمصباح مضاء : فأمكنني أن أرقب كل حركة من حركاتها من غير أن تتمكن من رؤيتي . ولكنى إن انصرفت فلا بد أن أحدث خشخشة بين الأشجار ، فتسمعني ، وقد يخطر لها أنني كنت مختبئاً هناك لكي أتجسس عليها :

كانت مرتدية ملابس الحداد الكامل ، لأن والدها كان قد توفي منذ مدة وجيزة . ولم تكن ذهينا لزيارتها وتعزيتها ، لأن والدي لم تر ذلك ، بسبب خروج الفتاة على حدود وأصول الحياء . وإن كانت قد رثت لحالها من كل قلبها : فأنى لم تنس النهاية المخزنة لحياة المسيو فانتى ، وتفانيه الشديد . لأنه في البداية قام بدور الأم والمرية والخادمة لابنته ، ثم تعذب بما سببته له من سوء السمعة ، ولم تفارقها صورة وجه الرجل المعذب في سنواته الأخيرة ، وكانت تعلم أنه تخلى نهائياً عن تبييض أعماله الأخيرة ، التي كنا نحسبها قطعاً صغيرة هزيلة لمعلم موسيقى مسن وعازف أرغن القرية المتقاعد ، وظنناها ليست ذات أهمية تذكر في حد ذاتها ، وإن كنا لا نزرديها بقيمتها الكبرى لديه ، لأنها كانت الدافع الأكبر له على الحياة ، وإذا به يضحى بها في سبيل ابنته ، ولم تكن هذه القطع مدونة ، بل مسجلة في ذهنه فحسب في الغالب ، والقليل منها مدون على أوراق متناثرة وتكاد تعذر قراءتها ، ولا بد لها الآن أن تظل مجهولة إلى الأبد :

وفكرت والدتي أيضاً في تلك التضحية الأخرى التي اضطرت إليها المسيو فانتى وهى أشد قسوة عليه ، ألا وهى تنازله عن أمه في أن يرى ابنته مستقرة سعيدة ذات مستقبل شريف محترم . ولما استرجعت أمى في ذهنها كل تلك الحزن الماحقة التي انتهالت على رأس معلم عتي للموسيقى ، استولى عليها حزن شديد ، وارتجفت وهى تفكر فيما لا بد أن تحسه الآنسة فانتى الآن من حزن مزوج ولا شك بالندم لأنها تسببت في موت أبيها . وتقول أمى :

— يا للمسيو فانتى المسكين ! لقد عاش لابنته ، وها هو الآن مات بسببها ، من غير أن يجد جزاءه . فعسى أن يجده الآن : ولكن في أى صورة ؟ إن هذا الجزاء لا يمكن أن يكون مصدره أحد سواها .

وفي الطرف الأقصى من حجرة جلوس الآنسة فانتى ، فوق رف المدفئة ، صورة شمسية صغيرة لوالدها ، ذهبت بسرعة كى تحضرها ، في نفس اللحظة التي سمع فيها من الطريق في الخارج صوت عجلات عربية ، ثم رأيت الآنسة فانتى تلتقي بنفسها فوق أريكة وقربت إلى جوارها منضدة صغيرة وضعت فوقها الصورة الشمسية ، تماماً كما حدث منذ وقت طويل أن وضع المسيو فانتى بجواره القطعة الموسيقية التي كان يود لو عزفها لوالدى . وعندئذ دخلت صديقتهما ، ورجبت بها الآنسة فانتى من غير أن تنهض ، وقد شبيت يديها وراء رأسها ، وانتحلت بجسمها جانباً من الأريكة ،



وكانت النافذة نصف مفتوحة ، والمصباح مضاء . فأمكننى أن أراقب كل حركة من حركاتها من غير أن تتمكن من رؤيتى ..

كمن توسع لها مكاناً . ولكنها ما كادت تصنع ذلك حتى بدا أنها شعرت أنها ربما تكون قد أوحث لصديقتها بوضع خاص ، ووجدت في ذلك شبهة الإلحاف عليها . وفكرت أن صديقتها ربما فضلت أن تجلس على مسافة منها فوق كرسي . وأحست أنها كانت متطفلة ، ففزع قلبها الحساس من هذه الفكرة ، وعادت تمد جسدها فوق الأريكة بأمرها ، وأغلقت عينيها وبدأت تتأهب ، دلالة على أنها تريد النوم ، وأن هذه الرغبة وحدها هي التي حدث بها إلى الرقاد على الأريكة .

وبرغم الألفة الفظة المتغترسة التي كانت تعامل بها صديقتها ، أمكنني أن ألاحظ أنها تنطوى على تودد متحفظ ومتدلل ، وعلى احتجاز متوتر كان من سمات أبنائها . وسرعان ما نهضت وذهبت إلى النافذة ، حيث تظاهرت بأنها تريد إغلاق المصراعين الخشبيين ولكنها لم تفلح . وعندئذ قالت لها صديقتها :

— أبقيهما مفتوحين . فأنا أشعر بالحر .

فأجابتها الآنسة فاتني :

— ولكن هذا فظيع جداً . سيرانا الناس !

ثم حدثت أن صديقتها ربما ظنت أنها قالت تلك الكلمات لكي تستحجها على الرد بكلمات أخرى ، تريد في الواقع أن تسمعها منها ، ولكنها على سبيل الحذر كانت تريد من صديقتها أن تكون البائدة بالكلام . ولذا أردفت بسمعة :

— عندما أقول « يرانا الناس » أعني بالطبع أنهم سيروننا ونحن نقرأ . ومن بواعث الضيق أن يعتقد الإنسان أن كل شيء تافه يقوم به يمكن أن يراه أحد الناس :

وبالكرم الغريزي في طبيعتها ، وبتهذيب غير خاضع لسلطانها ، امتنعت عن التفوه بالكلمات المدروسة التي شعرت أنها لا غنى عنها لتحقيق رغبتها بالكامل .

وقالت صديقتها بسخرية مرة :

— أوه . طبعاً ! من المرجح جداً أن الناس ينظرون إلينا في هذا الوقت من الليل ، في مثل هذه البقعة الكثيفة السكان !

ثم استطردت لكي تؤكد هذه الغمزة ، بالطريقة التي تعلم أنها ترضى الآنسة فاتني :

— وماذا لو رأونا ؟ أفضل لنا ألف مرة أن يرونا !

فارتجفت الآنسة فاتني ، ونهضت واقفة على قدميها ، فقد كان قلبها الحساس يجهل الكلمات التي ينبغي أن تتدفق تلقائياً من شفيتها ، لكي تنتج ذلك المشهد الذي كانت حواسها المتلهفة تصرخ مطالبة به . وحاولت أن تذهب إلى أقصى ما تستطيع من حدود طبعها الحقيقي لكي تجد اللغة المناسبة لشابة تمارس الرذيلة ، ولكن الألفاظ التي كانت مثل هذه الشابة خليقة أن تتفوه بها بإخلاص وصدق بدت في فمها غير واقعية . والقليل الذي سمحت لنفسها أن تقول له قبل بنبهة

متوترة ، بحيث شل تيبها ميلها إلى حرية الكلام وجرائه . وظلت طول الوقت تقطع كلامها هذا لتقول :
 - أوافقك أنت أنك لا تشعرين بالبرد ؟ هل الحر شديد جداً ؟
 ألا تريدن الجلوس وحدك لكي تقرئي ؟
 وختمت كلامها بعبارة لا شك أنها سمعت صديقتها تقولها لها في مرة سابقة :

- إن أفكار سيادتك تبدو لي حارة جداً هذا المساء !
 وعلى الفور أحست الآتسة فانتى بلذعة قبلة صاحبها المفاجئة على أصل عنقها ، من فرجة صدر ثوبها ، وأطلقت صيحة صغيرة وجرت هاربة . وبعد ذلك بدأت كل منهما تطارد الأخرى في أرجاء الحجرة ، متدافعتين على الأثاث ، وأكمامهما الطويلة ترفرف كالأجنحة ، وهما تفرقان وتنفقان مثل طيرين في حالة هياج جنسى :
 وأخيراً سقطت الآتسة فانتى في إعياء على الأريكة ، حيث حجب جسدها عن جسده صديقتها التي مالت فوقها . ولكن ظهر الصديقة كان الآن إلى جهة المنضدة التي فوقها صورة معلم الموسيقى الشيخ : وأدركت الآتسة فانتى أن صديقتها لن تراها إلا إذا لفتت نظرها إليها ، فصاحت وكأنها لم تراها إلا في هذه اللحظة :
 - أوه ! ها هي صورة أبي تنظر إلينا ! لا أدري من الذي وضعها ها هنا ! أنا متأكدة أنني نبت عليهم عشرين مرة بأن هذا ليس مكانها المناسب !

وتذكرت على الفور كلمات المسيو فانتى التي استخدمها عندما اعتذر لوالدي عن وجود النوتة الموسيقية فوق البيانو : وصار واضحاً أن هذه الصورة الفوتوغرافية كانت تقوم عادة - بطبيعة الحال - بدور في شعائرها الغرامية ، وأنها كانت تتعرض يومياً للتدنيس والإهانة كجزء من تلك الشعائر ، لأن الصديقة أجابها بنبرة من الواضح أنها كانت جزءاً من تلك الشعائر أيضاً :

- دعيه هنا ! فلم يعد في استطاعته أن يثير المصاعب في وجهنا .
 أنظنيته يمكن أن يبدأ الآن في التذمر والبكاء والأنين ؟ أنظنيته يستطيع الآن - هذا القرد المسن القبيح الصورة - أن يطردك من البيت إذا رآك الآن في هذا الوضع والنافذة مفتوحة ؟
 وأجابتها الآتسة فانتى :

- أوه : من فضلك !

وهو تأنيب لطيف رفيق يشهد لها بالطيبة الصادقة ، لا لأنها قالته مدفوعة بالسخط لسببها هذه النعوت لوالدها الراحل (فهي بلا شك قد روضت نفسها على كثبان هذا الشعور في مثل هذه اللحظات الشهوية ، مستخدمة سلسلة من المغالطات مع نفسها) بل لأن هذا التأنيب الرقيق كان العنان الذي تتحكم به في إبطاء عمليات ومشاعر الإرضاء الحسي الذي شرعت صديقتها في إمدادها به :
 ومن الجائز أيضاً أن هذا التعبير المتسامح الباسم الذي واجهته به وردت على تلك الإهانات المندسة للقاسية آتسها ، وأن هذا

التأنيب الرقيق المرائي بدا لطبيعتها الصريحة السخية صيغة مخزية ومغرية بصورة خارقة من صيغ السلوك الإجرائي التي كانت تحاول أن تتخذه . ولكنها لم تستطع أن تقاوم جاذبية أن تعاملها بإعزاز هذه المرأة التي أبدت تلك القسوة التي لا ترحم نحو هذا الرجل الميت الذي لا يستطيع الدفاع عن نفسه ، ولذا وثبت إلى ركبتى صديقتهما فجسلت فوقها وقدمت لما جبينها كى تقبلها ، تماماً كما تفعل البنات مع أمهاتهن ، وكأنهن أحسست بملء الجوارح أنهما على هذه الصورة يمكن أن تصلا معاً إلى منتهى القسوة بسرقة المسيو فانتى واختلاس حقوقه الأبوية المقدسة ، كأنهما قد نبشتا قبره فعلا .

وتناولت صديقة الفتاة رأسها بين يديها وطبعت على جبينها قبلة بكل الوداعة التي تتبعث من حبها للآنسة فانتى ، ولرغبتها في إدخال العزاء والتسرية على الحياة المحملة الكثيرة التي تحياها اليتيمة . ثم قالت وهى تتناول الصورة :

— أتدريين ماذا أحب أن أصنع بهذا الشيخ المفزع ؟

وهمست فى أذن الآنسة فانتى بشئ لم أتبينه . فصاحت الفتاة :

— أوه ! إنك لن تجسرى على هذا ؟

فصاحت الصديقة بضراوة متمعدة :

— لا أجسر أن أبصق عليها ؟ على هذا القبح ؟

ولم أسمع شيئاً أكثر من هذا ، لأن الآنسة فانتى التي بدت الآن مجاهدة ، ومرتبكة ، ومشغولة الذهن ، وبادية الحزن عادت إلى

النافذة وأغلقت المصراعين الخشبيين : ولكنى عرفت الآن ما هو الجزاء الذى تلقاه المسيو فانتى من ابنته بعد موته ، لقاء كل ما بذله من تضحيات وتحمله من عذاب طويلة حياته بسبب هذه الابنة !

ومع هذا فكرت بعد ذلك أنه لو قيض للمسيو فانتى أن يكون حاضراً هذا المشهد ، لظل رغم كل شئ يؤمن بسلامة فؤاد ابنته ، وأنه ليس مخطئاً فى هذا الإيمان على طول الخط ، صحيح أن مظهر الشر كان قوياً جديداً فى كل أعمال الآنسة فانتى ، وبمشاركة عظيمة عليه ، بحيث لا يمكن العثور على هذه المظاهر إلا لدى شخص « سادى » بتعبير هذه الأيام ، فالمرء لا يتوقع إلا وراء أضواء خشية مسرح باريسى — لا فى ضوء مصباح فى بيت ريفى عادى — أن يرى فتاة تستدرج صديقها إلى البصق على صورة أبيها الذى عاش ومات لأجلها دون سواها . وعندما نجد فى الحياة الواقعية رغبة فى التأثير الميلودرامى ، فالغريزة السادية هى المسئولة عموماً عن هذه الرغبة . ومن الجائز أنه بدون الحد الأدنى من الميل نحو السادية يمكن أن نجد فتاة تظهر هذه القسوة الشائنة الفاضحة — كما فعلت الآنسة فانتى — بتدنيس ذكرى أبيها المتوفى وتحدى رغباته ، ولكنها ما كانت لتعبر عن هذا عمداً بمثل هذا العمل الفج فى رمزيتها : وفى هذه الحال كان للعنصر الإجرائى فى سلوكها خليقاً أن يبدو أقل وضوحاً لغيرها من الناس ، بل ولنفسها أيضاً ، لأنها ما كانت لتعترف بينها وبين نفسها أنها ترتكب خطأ ، ولكننا إذا تركنا المظاهر جانباً ، وجدنا عنصر

الشر في نفس الآنسة فانتى - في المراحل الأولى على الأقل - لم يكن خالصاً غير مشوب . والشخص السادى من نوعها فنان في الشر ، وذلك ما لا يستطيعه شخص كلى الشر ، لأن الشر في هذه الحالة ما كان ليبدو خارجياً ، بل لبدوا لها طبيعياً في حد ذاتها بالنسبة لها ، ولما تميز عن ذاتها : وفي هذه الحالة ما كانت لتجد لذة خاصة في تدنيس احترام الموتى وعصيان الطاعة البنوية :

إن الساديين من طراز الآنسة فانتى أشخاص عاطفيون جداً ، وفضلاء بطبيعتهم ، حتى أن اللذة الحسية نفسها تبدو لهم سيئة ، وامتيازاً خاصاً بالأشرار ، وعندما يسمحون لأنفسهم في لحظة ما بالتمتع بها يحاولون أن يجسّدوا كل المظهر الخارجى للأشرار ، لأنفسهم ولشركائهم في الإثم ، لكنى يحصلوا على وهم مؤقت بأنهم أفلتوا من رقابة طبائعهم الرقيقة المتزمتة وهربوا فعلاً إلى عالم اللذة اللالإنسانى :

وأمكننى أن أفهم كيف كانت تصبو إلى هذا الحرب عندما تحققت أنه كان من المستحيل عليها اصطناعه . ففي اللحظة التى أرادت فيها أن يظن بها أنها نقيض أبيها ، كان ما أوحى به إلى هو الأساليب السلوكية الخاصة ، فى التفكير والكلام ، لذلك الشيخ معلم الموسيقى المسكين : والحق أن صورته لم تكن شيئاً فى نظرها ، فالذى دنسته للمعاونة على لذاتها ، ولكنه بقى حائلاً بين هذه اللذات وبينها وحال دون أى استمتاع مباشر بها ، كان الشبه بين وجهه ووجهها ، وزرقه

عيني أمه التى أورثها ابنته ، كأنها حلية طريفة تحتفظ بها الأسرة جيلاً بعد جيل ، وتلك الحركات الودية الصغيرة ، فكأنها لغة مميزة تحول بين الشر الكامن فى الآنسة فانتى وبين طبيعتها ، وتعدها بعقلية غير مهيأة للشر ، مما جعلها تنظر إلى هذا الشر وكأنه لا يختلف عن الواجبات الاجتماعية التى لا تخصى التى يجب أن تؤديها كل يوم :

ليس الشر هو الذى كان يمدّها بفكرة اللذة التى تبدو لها ذات جاذبية طاغية ، بل اللذة هى التى كانت تبدو لها شراً . ولما كانت كل مرة تنغمس فيها فى اللذة تحس هذه اللذة مقترنة بأفكار شريرة لا توجد فى ذهنها الفاضل فى الأحوال العادية ، لذا انتهى بها الأمر إلى أن ترى فى اللذة نفسها شيئاً شيطانياً ، فوحدت بين اللذة والشر .

ولعل الآنسة فانتى كانت تشعر فى أعماقها بأن صديقتها ليست سيئة تماماً ، وأنها ليست مخلصة وهى تنفوه بعبارات الفظيعة النابية : وهى على كل حال كانت تحظى بلذة تلتقى تلك القبلات على جبينها ، وتلقى تلك الابتسامات والنظرات : ولعلها كلها مصطنعة ، ولكنها قريبة الشبه فى طريقة التعبير عنها بحيث لا يمكن التمييز بينها وبين ما يرسم على وجه مخلوقة لم تجبل على الرقة والمعاناة ، بل على التهلك والقسوة . ففتاح لها أن تخدع نفسها لحظة وتصدق أنها تستمتع على النحو الذى تستمتع به فتاة لديها فعلاً هذا النفور من ذكرى أبيها ، وهى مع هذه الشريكة الشاذة :

ولعلها ما كانت لتفكر فى الشر على أنه حالة نادرة بهذه الصورة ،

وشاذة جداً ودخيلة على الطابع ، وينعشها أن تجربها ، لو كان تسنى لها أن تميز في نفسها ، وفي سائر الرجال والنساء ، تلك اللامبالاة بالآلام التي يسببونها : وأن هذه اللامبالاة - أيًا كان الاسم الذي يطلقونه عليها - هي النوع الوحيد من التسوية الصادقة الرهيبة الباقية :

ولئن كان « طريق ميزجلين » غاية في السهولة ، فالأمر مختلف جداً عندما كنا نسير في « طريق جيرمنت » ، لأن هذا يقتضي مسيرة طويلة ، ويجب أن نستوثق أولاً من حالة الطقس . فعندما كان يبدو أننا دخلنا في فترة طويلة من الجو اللطيف ، وعندما أسمع فرنسواز مغناطة من عدم نزول قطرة واحدة من المطر فوق « الحاصلات المسكينة » الضامئة ، فتتطلع إلى السماء ولا ترى فيها إلا سحابة صغيرة بيضاء تطفو هنا وهناك فوق سطح السماء اللازودى الهادئ ، فتأوه بصوت مرتفع وتصيح :

- ما أشبهها بسرب من كلاب البحر تسبح هنا وهناك ! ولا تفكر في إسقاط بعض المطر لأجل خاطر الفلاحين المساكين ، حتى إذا فضج القمح تماماً ، بدأ المطر يهطل بلا رحمة ، غير مهال بالمحصول ، وكأنه ينهمر فوق البحر !

وبعد أن يسأل أبي البستاني مراراً ويتلقى منه إجابات متكررة مشجعة ، عندئذ يقول أحذنا على مائدة العشاء :

- غداً ، إذا ظل الطقس على اعتداله ، ذهبنا في اتجاه جيرمنت !

وفي هذا الطريق نخشى فعلاً بعد الغداء مباشرة ، ونخرج من بوابة الحديقة الصغيرة التي تقضي بنا إلى شارع بيرشان Perchamps الضيق ، الذي يتحرف بعد ذلك في زاوية حادة . وقد اندثر هذا الشارع الضيق بعد ذلك ولم أعد أعر له على أثر عندما عدت في الرجولة إلى كبراي . فقد كانت بيوته وكنيسته تحمل طابع القرن الثاني عشر .

ونمر بعد ذلك في شارع العصفور أمام المنزل العتيق الذي كان له فناء كبير جداً ، كانت في الزمن الخالي تقف به عربات ودقة موننسييه Monpensier ودقة جيرمنت ودقة مونمورنسي Montmorency ، عندما كن يأتين إلى كبراي لبعض المنازعات القضائية مع مزارعين ، أو لتلقى الاحترامات منهم ، ونصل أخيراً إلى أجمة يترأى من بين أطرافها العالية برج كنيسة سانت إيلير . وكنت أتمنى أن أجلس هناك لأقضي بحابة النهار كله هناك في القراءة والإصغاء لصوت الأجراس ، لأن المكان هناك بديع جداً وشديد الهدوء ، بحيث إنك حين تسمع رنين الساعة فجأة لا تحسب أنه عكر صفو السكون ، بل تحس أنه خلص النهار من سطحيته الممتدة .

وأهم عناصر سحر طريق جيرمنت أننا كنا طول الوقت تقريباً نمر إلى جوار مجرى نهر فيفون Vivonne . وكنا نبدأ بعبوره ، بعد عشر دقائق من مغادرتنا البيت ، على معبر للمشاة يسمونه بون

فيه Pont Vieux أى الجسر القديم : وفي كل عام ، عندما نصل إلى كمبراي ، أنطلق بعد القداس في صباح يوم عيد الفصح - إذا كان الجو صحواً - وأركض إلى هناك وسط القوضى التي تسود صباح يوم العيد ، لأرى النهر وهو يتدفق أمامي في مثل زرقة السماء بين ضفتين ما زالتا سوداوين جرداوين من أثر الشتاء الطويل ، ولا تثبت فيهما إلا أجمة من الترجمس البري الأصفر الكبير ظهرت قبل أوانها ، وبضعة من أزهار الربيع المبكرة ، وهنا وهناك تنبثق وسطها شعلات زرقاء من أزهار البنفسج ، وقد تمايلت تحت ثقل عبيرها الفواح :

ونفضي الجسر العتيق إلى درب مزدوج يظله في الصيف أوراق شجر البندق الضاربة إلى الزرقة ، وتحته يجلس صياد سمك لا بأساً قبعة من القش ، وكأنه ضرب بجذوره في ذلك المكان . وأنا أعرف كل من في كمبراي ، وكنت أستطيع دائماً أن أثبتن الحداد أو صبي البقال وهما منتكران في زى الشماس أو مدرعة المنشد في القداس ، ولكني لم أستطع قط التعرف على الشخصية الأصلية لهذا الصياد . ولكن لا بد أنه كان يعرف أسرقي ، لأنه كان من عادته أن يرفع قبعته عندما نمر به ، وعندئذ كنت أهم بالسؤال عن اسمه ، عندما يشير أحدهم لي أن ألزم الصمت حتى لا أزعج وأنفر السمك . ونمضي في الدرب المزدوج الذي يحاذي قمة ضفة سريعة الانحدار ، ترتفع فوق مجرى الماء عدة أقدام . أما على الجانب الآخر

فالأرض منخفضة وتنبسط لتتحول إلى مروج عريضة تصل إلى القرية ، بل وإلى محطة سكة الحديد البعيدة . وفي هذه المروج تتناثر بقايا وأطلال قلعة كونتات كمبراي الأقدمين ، نصف متواربة بين الأعشاب الطويلة . وفي العصور الوسطى كان مجرى نهر فيفون حاجزاً طبيعياً يحمي هذه القلعة من هجمات دوقات جيرمنت ورؤساء ديور مرتينفيل Martinville ، ولكن لم يبق من هذه القلعة الآن إلا بقايا أبراجها ، متناثرة فوق مسطح الحقول المترامي ، لا تكاد تراها العين ، مع أنه من فوقها كان الرماة يلقون القذائف على الأعداء ، وكان المراقبون يرصدون الحركات عن بعد حتى كليرفونتين Clairefontaine ، ومارتنفيل ، وبايو Bailleau ، وكلها أرباص وقرى خاضعة لسلطان جيرمنت ، وتتكون منها حلقة تحيط بكمبراي . ولكن ها هي القلعة تهاوت الآن وسط العشب ، وسويت بالأرض ، يسلمها ويلهو فيها غلمان مدرسة الأخوة المسيحيين الذين يأتون إليها في أوقات لوهوم أو حاملين كتبهم لاستظهار دروسهم . فها هي إلا معالم ماضٍ انقضى واندرت تحت التراب ، وصار للسائر على ضفة النهر معبراً للمريض الذي يستنشق الهواء . ولكن هذا الأثر المتدثر كان مع هذا يمدني بغذاء فكري ، يجعل اسم كمبراي ليس مجرد علم على البلدة الصغيرة التي أعرفها اليوم ، بل علماً على مدينة تاريخية مختلفة تماماً ، تسيطر على مخيلتي بتلك المعالم البعيدة المطموسة تحت قناع من العشب ترصعه الأزهار البرية الصفراء الحريفة الرائحة .

ذلك أن هذا العشب المزهر المعروف باسم « الحوذان » كان شديد الغزارة في هذا الموضع ، بزهره الذى يشبه لونه مع البيض ، ويجعل المرج كله يبدو في وهج الشمس ذهبي اللون ، يكاد يبهز أنفاسي بجأله . وكنت منذ طفولتي كلما سرت على الضفة الأخرى أمد ذراعي إلى هذه المروج وأتمنى لو احتضنتها... قبل أن يستطيع لساني نطق اسمها الذى يصلح اسماً لأمير فرنسي في قصة من قصص الجنيات ، أو لمرتاد جاء من مجاهل آسيا البعيدة منذ قرون ، ولكنه استقر هاهنا في هذه القرية ، قانعاً بأفقها المتواضع ، وبذلك اللمحة التي تترأى له من محطة سكة الحديد . إلا أنه لم يزل محتفظاً بتألقه الشاعرى من ذلك الشرق الأقصى .

وأستمتع أيضاً بمنظر القدور الزجاجية التي كان الأولاد يدلونها في نهر فيفون ، ليصطادوا بها السمك الصغير ، فتتمتلي* هذه القدور الزجاجية بالماء وتحتويه ، في الوقت الذى يحتويها فيه الماء ، فأشعر لمنظرها بانتعاش لا أجده لهذه القدور وهى ملأنة بالماء على مائدة الطعام . وقررت أن أتى يوماً ما ومعى شخص (سنارة) لكي أصيد السمك . ورجوت والدى وأنا على المائدة وحصلت على كسرة خبز أخذتها معى وألقيت بفتاتها في نهر فيفون ، خيل لى أن لها تأثيراً كياوياً ، لأن الماء سرعان ما صار من حولها صلباً بعناقيد بيضاوية من أفراخ الضفادع ، التي كانت قبل ذلك متوارية في الماء

الجارى ، ولكنها كانت شديدة اليقظة فانتهزت هذه الفرصة لتدخل في مرحلة التبلور المنظور بالعين .

وسرعان ما يغص مجرى نهر فيفون بالنباتات المائية . وهى تبدو في البداية فرادى ، زنيقة من زنايق الماء مثلاً ، لا يمكن أن يتركها الماء - الذى نبتت لسوء حظها في مجراه - تنعم بالراحة أو الهدوء لحظة واحدة ، حتى لكان هذه الزنيقة معدية ميكانيكية تنطلق من إحدى الضفتين لتصل إلى الضفة الأخرى ، لكي تعود على الفور من حيث أتت ، مكررة على الدوام رحلتها المزدوجة : وإذا ما ارتطمت بالشاطئ طال عودها الأخضر حتى ليكاد ينكسر ، إلى أن يستولى عليه التيار من جديد ، فيعود بالنبات التعس المنكود إلى ما يمكن أن نسميه موضع انطلاقه ، ولكنه مكتوب عليه ألا يستقر هناك لحظة ، قبل أن يتحرك منطلقاً من جديد . وهناك أجده في كل نزهة في إثر الأخرى ، في نفس حالته المنكودة ، التي تشبه حالة بعض ضحايا النورستانيا ، الذين كان جدى يعد من بينهم عمى ليونى ، فهؤلاء الضحايا يكررون يومياً ، وعاماً في إثر عام ، عاداتهم نفسها بلا تغيير ، وهى عادات غريبة لا يمكن تفسيرها . ولكنهم يحفظون بها حتى النهاية ، مع أنهم يقولون دائماً إنهم ينوون تغييرها ، ويتخيّلون ذلك فعلاً . إلا أن هذه التخيّلات لا تجدى إلا في دفع حركتهم الدورية كزنبك الساعة إلى الدوران المستمر : هكذا أيضاً كانت حال زنايق الماء هذه ، وهى أيضاً شبيهة بحالة تلك المخلوقات

المعلبة إلى الأبد بحركاتها المتكررة ، والتي استوقفت نظر دانتي Dante وهم يسؤالهم عنها ، لولا أن فيرجيل مرشده في رحلته بالبحيم استعجله ، مثلاً يستعجلني والدئى فأسرع بالمضى خلفهما برغمي .

ولكن بعد قليل يبطئ التيار ، حيث يمر النهر وسط ضيعة فتح مالکها أبوابها للجمهور ، وفي هذه الضيعة كان يمارس هواية الحدائق المائية ، بحيث يتحول النهر الضمحل البطيء هناك إلى بحيرات صغيرة تنبت فيها زنايق الماء . أما ضفاف النهر نفسه فتكثر حولها الأشجار الكثيفة ، التي تنعكس أوراقها على وجه الماء فتكسبه لوناً أخضر قائماً في الغالب . وإن كنت في بعض الأيام التي نعود فيها بعد هبوب عاصفة كثيراً ما ألمح في ثنايا هذا الماء بقعاً تضرب إلى الزرقة ، وتكاد تكون بنفسجية اللون أحياناً ، كأنما قد رصع هذا الماء بالمينا على الطريقة اليابانية : وهنا وهناك ، فوق السطح تطفو زنبقة مضرجة القلب بالحمرة كأنها الشليك ، وسط البتلات البيضاء . وفيما وراء هذه المنطقة كانت الأزهار أكثر ، إلا أنها أشد شحوباً ، وأقل لمعاناً ، وأكثر التفافاً ، وموزعة بالصدفة على شكل فستونات بديعة تخيل أنها تطفو على وجه الماء ، كما رأيت الورد الطلحي في أكاليل متفرقة . وفي ركن منها رأيت أنواعاً عادية من الزنايق ، ذات اللون الوردى الأنيق أو الأبيض ، مثل أزهار الجرجير ، وقد غسلت فغدت كالخزف . وفي موضع أبعد من هذا

أيضاً أزهار أخرى أشد كثافة كأنها حوض أزهار عائم ، أو كأنما أزهار البانسيه قد طارت من حديقة كما يطير الفراش وراحت تخلق بأجنحة زرقاء لامعة فوق هذه النجوم المائية الشفافة ، وفوق نخوم السماء أيضاً ، وتضفي على ماتحت الأزهار أرضية من لون أرق وأكثر حركة من أرضيتها . وفي فترة ما بعد الظهر والمساء ترتفع المساحات المائية البعيدة وتملأ السماء على حافة الأفق بأحلام الشمس الغاربة الوردية ، الدائمة التغير ، ولكن في تناسق وانسجام دائمين ، وتوحى باللانهاية . فبعد الظهر أو المساء تبدو هذه الحديقة المائية البعيدة وكأنها مزدهرة في قلب السماء :

وبعد أن يغادر نهر فيفون هذا البستان الرائع يمضي في تدفقه بمزيد من السرعة . وما أكثر ما راقبت ، وتقت إلى محاكاة راكب زورق ذى مجدافين - عندما أغدو حراً في الحياة كما أشاء - رأيت أنه وقد ترك مجدافيه واستلقى في قاع زورقه على ظهره ، ورأسه إلى أسفل ، وترك الزورق يطفو مع التيار ، بحيث لا يرى شيئاً إلا السماء التي كانت تمر من فوقه في هدوء ، وتضفي على وجهه أمارات السعادة والسلام .

وقد تجلس بين السوسن على حافة الماء ، وكأنما السماء بتراريخها في يوم عطلة ، فتمتد بحابة كسول إلى أقصى امتدادها ، وبين حين وآخر يثقل هذا الكسل السائد على سمكة شبيوط فتظل من الماء وتشق شققة متلهفة على النشاط . ونحن وقت تناولنا الطعام ،

فنجلس قبل أن نستدير للعودة ونقضى فترة طويلة هناك ، نأكل الفاكهة والخبز والشيكولاتة ، فوق العشب ، حيث تصل إلينا أصوات نواقيس سانت إيلير في موجات أقيّة ضعيفة ، ولكنها لم تزل صلبة معدنية ، لم تذب تمام الدوبان في الجو الذي تعودت على اختراقه ، بل تقطعت أوصالها مع الدقات الرنانة المتعاقبة ، فإذا بها تنبض وهي تمر تباعاً فوق الأزهار التي عند أقدامنا .

وكنّا أحياناً نصل إلى منطقة تحف فيها الأشجار بصفّة الماء ، فإذا بين الأشجار بيت خلوى من بيوت المتعة ، منعزل عن الدنيا لا يرى منها شيئاً اللهم إلا النهر الذي يغسل أساس جدرانها باستمرار . وقد نرى امرأة يذل وجهها وزيبها على أنها ليست من أهل هذا الإقليم ، وتدل موضحة زيتنها على أنها ليست من أصل محلي ، ولا شك أنها جاءت إلى هنا لكي « تدفن نفسها » - كما يقولون - ولتتذوق في هذه الوحدة الشعور بأن اسمها صار منسياً ، وأن اسم من فقدت قلبه غير معروف لأحد هنا أيضاً . وهي تطل من نافذتها فلا ترى شيئاً سوى الزورق المربوط إلى أسفل البيت بجوار بابها . وترفع السيدة عينها في شروود حين تسمع من بين الأشجار التي تصطف على الشاطئ أصوات مارة هي على يقين من أنهم لم يعرفوها ولم تعرفهم من قبل ، ولم يعرفوا ذلك الحبيب الغادر ، وأن لا شيء في ماضى حياتهم يحمل طابعه ، فقد هجرت كل مكان يمكن أن تكون قدماه قد وطئناه ، أو يكون به أحد له به صلة . وكنت أنظر إليها أحياناً وهي

عائدة من سيرها في طريق هي على يقين من أنه لن يبرز لها من ثناياه ، وأراها تخلع قفازاً طويلاً من أصابعها المستسلمة ، حيث لا فائدة ولا لزوم لهذه الزينة الفاخرة الأنيقة .

ولم يحدث قط أننا في نزاهاتنا على الأقدام في « طريق جيرمنت » توغلنا إلى حيث منبع نهر فيفون ، الذي كانت صورته في ذهني ذات وجود مثالي ، لذا دهشت كثيراً عندما قال بعض الناس إنه موجود في نفس المحافظة ، وعلى مسافة كيلومترات معينة من كبراي . وهي دهشة تماثل دهشتي عندما قيل لي إن هناك نقطة معينة من سطح الأرض هي التي يقول الأقدمون إن فكّي الجحيم فاغران عندها ! ولم يحدث قط أيضاً أننا وصلنا إلى ذلك الهدف الآخر الذي كنت أصبو كثيراً إلى بلوغه ، وهو « جيرمنت » نفسها . وكنت أعلم أنها مقر مالكيها ، الدوق والدوقة دي جيرمنت . وكنت أعلم أنهما شخصيتان حقيقيتان لها وجود حقيقي ، ولكنني كلما فكرت فيهما صورتها لنفسى إما كشخصيتين فوق لوحة مطرزة ، مثل لوحة « تنويج إستر » المعلقة في كنيسةنا ، أو متغيرتي الألوان كقوس قزح ، مثل صورة جيلبير الشرير في نافذته ، حيث كان لونه يتغير من خضرة الكرب عندما انغمس أصابعي في حوض الماء المقدس ، إلى زرق البرقوق عندما أصل إلى صف مقاعدنا ، أو غير محسوس اللون ، مثل صورة جنيفيف دي برايان ، جدة أسرة جيرمنت ، التي رينا إياها فانوسى السحري متعلقة فوق ستائر حجرى أو على

سقفها . أى أنى كنت أتصور الدوق والدوقة دائماً في هيئة العهد الميروفنيجي ، في ضوء يرتقلى وكالمغمورين بأضواء أشعة الغروب . ولئن كانا برغم ذلك بالنسبة لى شخصين حقيقيين ، إلا أن صفتيهما ومقامهما يجعلهما صنفاً خاصاً من البشر ، صنفاً غير مادي ، فيستوعب كليتهما كل ما نمر به في طريق جيرمنت وقصرهما الذى لم أره قط ، ومجرى نهر فيفون بزنايقه المائية وأشجاره الوارفة ، وقرات ما بعد الظهر الحارة المتوالية في رتابة . وكنت أعلم أنهما لا يحملان لقب دوقة ودوق جيرمنت فحسب ، بل إنهما منذ القرن الرابع عشر ، منذ فشلت المحاولات المتكررة لمزيجة سادة كبرى في ساحة القتال ، اتحدت أسرتهما بالزواج ، وبذلك صاراً أيضاً كونت وكونتس كبرى ، وبالتالي المواطنان الأولان لتلك المنطقة المعروفة اليوم باسم كبرى ، ومع هذا فهما المواطنان الوحيدان اللذان لا يسكنانهما ، فهما يملكان كبرى ، ويسلكانهما في سلسلة ألقابهما ، ويستوعبانهما في شخصيتهما ، ويصوران بلا شك تقواها الحزينة الخاصة بها . وهما يملكان هذه البلدة من غير أن يملكا أى بيت فيها ، وبالتالي كأنهما يقطنان في العراء ، في موضع ما بين الأرض والسماء ، مثل جيلبير دى جيرمنت الذى لم أكن أرى منه في زجاج الطنط الناقى من سانت إيلير إلا الجانب الآخر الأسود ، إذا ما رفعت عيني لأتطلع إليه وأنا ذاهب إلى محل كاي لشراء كيس من الملح . وكذلك كان يتفق لى وأنا على طريق جيرمنت أن أمر أحياناً

بصف من الحقائق الصغيرة الجيدة الرى ، على أسيجتها عناقيد من الأزهار الداكنة ، فأقف أمامها على أمل أن أجنى بعض الإضافة الثمينة إلى خبرتى ، لأنه يخيل لى أنى أرى جانباً من ذلك الريف على شواطئ الأنهار الذى طالما تمنيت أن أراه وأعرفه منذ قرأت وصفاً له في كتابات بعض المؤلفين الأثيرين عندي . وأمام هذه الأرض التى كأنها كتاب قصصى ، والتي تشققها مئات الجداول ، كنت أقف وأنخيل « جيرمنت » وقد تجسست أمام عيني بعد أن سمعت الدكتور بيرسبييه يتحدث عن الأزهار والجداول والينابيع الساحرة التى يراها زائر بستان قصر الدوق والدوقة المتراى : وكنت أحلم عندئذ أن الدوقة جيرمنت أغرمت في فجأة ، فدعنتى إلى هناك ، وأنها قضت النهار بطوله بجوارى تصيد السلمون المرقط ، ولما جاء المساء ، تناولت يدى في يدها ، ونحن نسير معاً بين حدائق أتباعها الصغيرة ، وتشير لى إلى الأزهار التى تملئ بعناقيدها الزهرية الحمراء والقرمزية فوق الأسوار الواطئة ، وتعلمنى أسماءها كلها . وكانت أيضاً تحملنى على أن أحدثها عن كل القصائد التى أنوى نظمها .

وذكرتني هذه الأحلام بأننى ما دمت قد رغبت في أن أغدو في يوم من الأيام كاتباً ، فينبغى أن أحدد منذ الآن أى نوع من الكتب سوف أكتب . ولكنى ما أكاد أوجه لنفسى هذا السؤال ، وأحاول اكتشاف بعض الموضوعات التى يمكن أن أضفى عليها مغزى فلسفياً ذا قيمة لا نهائية ، حتى أجد ذهنى قد توقف كما تتوقف

الساعة عن العمل ، وأرى أممي فراغاً ، أرى لا شيء ، واكتشف
أنى إما خال من الموهبة تماماً ، أو أن مرضاً من أمراض المخ قد عاق
تقدمه ونموه .

وكنت أحياناً أعتمد على قيام أبى بتدبير كل شيء لى . فهو قوى
جداً ، وله مكانة كبيرة عند « ذوى الشأن » من الناس ، بحيث كان
يتيح لنا تجاوز حدود القانون التى كانت فرنسواز تقول لى إنها
كقوانين الحياة والموت التى لا يمكن تحطيتها ، ومن ذلك أننا بفضل
نفوذه استطعنا أن نؤجل - دون سائر سكان الشارع - لمدة عام
كامل طلاء واجهة بيتنا فى باريس : أو كما استطاع أن يحصل من
الوزير لابن مدام ساذيرا - الذى كان الأطباء قد أمروا بوجود
نقله إلى إحدى منتجعات المياه - أن يحصل على درجته العلمية قبل
الموعّد بشهرين كاملين ، فأدى الامتحان مع الطلبة الذين يبدأ اسمهم
بحرف « ا » لا مع زملائه ممن يبدأ اسمهم بحرف « س » . فلو مرضت ،
أو خطفتنى القراصنة ، لكانت رسائله إلى العلى القدير - فى اعتقادى -
كفيلة بإنقاذى من الموت ، ولكان نفوذه مع القوى الخفية كفيلاً
بتخليصى من القراصنة . ولذا كلما تهددنى خطر شعرت أنه خطر
وهمى ، وأن أبى خليق قطعاً أن يخلصنى منه :

ولعل هذا الافتقار إلى الموهبة ، وتلك الفجوة السوداء التى
كنت أجدّها فى ذهنى عندما أنبشه بحثاً عن موضوع كتاباتى المقبلة ،
لم يكونا أيضاً إلا وهماً يقضى عليه تدخل من جانب أبى ، الذى سيدبر



وكنت أحلم عندئذ أن الدوقة جيرمنت أغرمت بى فجأة ،
فدعتنى الى هناك ، وأنها قضت النهار بطوله بجوارى ..

مع الحكومة ومع العناية الإلهية ، ما يكفل لي أن أكون الكاتب الأول في زماني . ولكن في أوقات أخرى عندما كان أبواي ينفذ صبرهما لرؤيتي أتلکأ خلفهما بدلا من أن أتبعهما تبدو لي حياتي وكأنها جزء من واقع أكبر لم يخلق لمصلحتي ، ولا استئناف لأحكامه ، وأنا في قلب هذا الواقع المعادي مقيد لا حيلة لي ولا حليف ، ولا صديق ، ولا مجال للإمكان فيما وراءه . وفي هذه اللحظات لا أشعر بأن حياتي الواقعية من صنع أبي الذي يملك تغييرها وتعديلها كما يشاء ، وهو الشعور الذي كان يغلب على تفكيري معظم الوقت . وعندئذ يتبين لي أنني موجود على نحو ما وجد سائر البشر ، وأنتي لا بد حتماً أن أشيخ مثلهم ، وأموت يوماً ما مثلهم أيضاً ، ولن يعرفوا غنى سوى أنني من أولئك النفر الذين لا مقدرة لهم على الكتابة . وهكذا قررت قانظاً أن أنخلي عن الأدب إلى الأبد ، برغم تشجيع «بلوخ» لي ، هذا الإحساس الحميم التلقائي ... هذا الإحساس بتفاهة ذهني طمس كل الأحاديث التي تطرئني ، على نحو ما يحس الإنسان الشرير بوخر الضمير الخفي عندما يسمع كل من حوله يطرون أعماله الصالحة ! وذات يوم قالت لي أمي :

- أنت دائم الحديث عن مدام دي جيرمنت . والدكتور بيرسبييه صنع الكثير لها منذ أربع سنوات عندما كانت مريضة ، ولذا سوف تخضر إلى كمبراي لتشهد زواج ابنته : وهكذا سيتاح لك أن تراها في الكنيسة .

وكان الدكتور بيرسبييه مصدر معظم ما سمعته عن مدام دي جيرمنت ، وكان هو الذي أطلعنا على نسخة من صحيفة مصورة كانت بها صورتها في الزى الذي كانت قد ارتدته في حفل راقص تنكري أقامته الأميرة دي ليون P. De Léon :

وفجأة ، أثناء قداس الزواج تحرك الشماس من موضعه فأتاح لي أن أرى سيدة جالسة في مصلى خاص ، ذات شعر أشقر وأنف كبير ، وعينين زرقاوين ثاقبتين ، ولفساع من الحرير البنفسجي المتناوج اللامع ، وعلى ركن أنفها شامة صغيرة . ولأنني استطعت أن أرى على صفحة وجهها الأحمر - كأنما هي تشعر بحر شديد - تفصيلات تشبه الصورة التي سبقت لي مشاهدتها ، ولأنني عرفت فيها تلك الأوصاف التي وصف بها الدكتور بيرسبييه الدوقة دي جيرمنت ، لذا عرفت أنها هي . وكان المصلي الذي تشهد منه صلاة القران هو مصلى جيلبير الشرير ، وتحته أحجار الضريح المصفرة البارزة مثل خلايا العسل في أقراص الشهد ، الذي تتوى فيه عظام كونات برايان القدسي . وتذكرت أنني كنت قد سمعت أن هذا المصلى خاص ومحجوز لآل جيرمنت ، يشغله من يحضر منهم حفلا كنسياً في كمبراي . وليست هناك سوى امرأة واحدة هي الجالسة في ذلك المصلي تشبه الدوقة جيرمنت المنتظر وصولها اليوم . فلا بد إذن أنها هي ! وكانت خيبة أمني عظيمة ، وكان مصدرها أنني كنت قد تخيلت الدوقة على هيئة لوحة مطرزة بألوانها الخاصة ، أو على هيئة لوحة

في نافذة ملونة ، وعلى أنها تعيش في قرن آخر ، ومن مادة أخرى غير طينة النوع البشري : ولم يدخل قط في حسابي أن يكون لها وجه أحر ، ولفاع بنفسجي مثل مدام ساذيرا : وكانت استدارة خدها تذكرني جداً بوجوه أناس رأيتهم في بيتنا ، فداخلي الشك بأن مادة جسمها ليست فريدة ، بل تنتمي إلى فصيلة من الإناث تنتمي إليها أيضاً زوجات الأطباء والتجار . ورحت أقول لنفسي بإصرار :

— إنها هي ! لا بد أنها هي مدام دى جيرمنت !

وأنا أنظر إليها بتركيز شديد ودهشة بالغة ، لفرط مباينة شكلها للصورة التي كنت أتخيلها لها في ذهني ، وتراودني في أحلامي ، حتى اللحظة التي انبرت فيها هذه السيدة أمام عيني منذ لحظة داخل الكنيسة ، وإذا بها في كل شيء ، حتى تلك الشامة المتقدة على ركن أنفها ، تؤكد لي أنها واقع خاضع لكل قوانين الحياة ، على نحو ما تؤكد ارتعاشه خنصر بظلة المسرحية أنها ممثلة آدمية حية ، وتنتي من أذهاننا ما توهمناه من أنها مجرد انعكاس فانوس سحري :

وهكذا صارت لهذه السيدة الواقعية التي طالما حلمت بها قوة سحرية إضافية على تخيلتي التي كانت قد شلت لحظة عندما صدمت بالمباينة بين توقعات أحلامي وبين الواقع ، وأخذت تؤثر في هذه المعرفة الجديدة ، وأقول لنفسي :

— قبل أيام شرلمان كان آل جيرمنت أعماء لهم حق الحياة والموت على أتباعهم : وهذه الدوقة دى جيرمنت سليله جنييف

دى برابان . وهي لا تعرف — ولا تقبل أن تعرف — أى أحد من الموجودين هنا اليوم !

وعندئذ ، بينا مدام دى جيرمنت جالسة في المصلى الخاص فوق لحد أجدادها الراحين ، راحت عيناها تنجولان هنا وهناك ، ورفعهما إلى تيجان الأعمدة ، بل واستقرتا لحظة على شخصي ، كأنهما شعاع هابط من صحن الكنيسة ، إلا أنه شعاع أحسست أنه يعي ما يستقر عليه ، حينما استقرت على عيناها !

وظلت الدوقة جالسة في مكانها لا تتحرك ، وكأنها أم تتعمد ألا تظهر أنها ترى سلوك أطفالها الذين يتحدثون أثناء طوهم إلى أشخاص لا تعرفهم ، ولذا لم أستطع أن أجزم هل الدوقة تفر أو تشجب في أعماق قلبها ما تراه عيناها في تجوالها غير المكثرت .

وشعرت بأنه يهمني جداً ألا تغادر الكنيسة قبل أن يتباح لي للنظر مدة كافية إليها ، مذكراً نفسي بأنني ظلت سنوات أتلهف على ذلك : ولذا ثبت نظري عليها ، كأني بذلك التثيت أتمكن من اختزان تلك التفاصيل التي بدت لي ثمينة جداً ، وأصيلة ، ولا نظير لها فيما يتعلق بوجهها . والآن كلما فكرت في هذا الوجه لا أجد فيه إلا ما هو جميل ، وأضع هذا الوجه فوق مستوى وجوه البشر العاديين الذين جعلتني النظرة الأولى إليها أخلط بينهم وبينها . وانتابني استنكار شديد عندما سمعت الناس يقولون ، في الجمع المحيط بي :

— إنها أجهل من مدام ساذيرا ... أو الآتية فاني :

كما لو كانت يمكن أن تقارن بهما من أى وجه من الوجوه :
ورحت أمعن النظر إلى شعرها الأشقر ، وعينيها الزرقاوين ، وخطى
وجنتيها ، وأغض النظر عن كل السمات التي يمكن أن تذكرني
بوجوه نساء أخريات ، ثم هفت بيني وبين نفسي ، وأنا أتأمل هذه
الصورة غير التامة عمداً :

— ألا ما أحلاها ! أى نبل حقيقي ! إنها فعلا جيرمنت مجيدة ،
وسليلة جينيفيف دى بربان ، تلك التي أراها الآن أمامي !
وأفلق تركيز انتباهي على وجهها في عزل هذا الوجه تمام العزل ،
حتى أنني اليوم ، عندما أستعيد في ذهني حفل ذلك الزواج ، أجد
من المستحيل أن يترامى لي أى شخص من الحاضرين سواها ، وذلك
الشماس الذي أكد لي عندما سألتها أن هذه السيدة هي فعلا الدوقة
دى جيرمنت . أما هي فأراها إلى اليوم بكل وضوح ، ولا سيما في
اللحظة التي اتجه فيها المركب إلى حجرة ملابس الكهنة ، في ذلك اليوم
الحار المشمس المطير في تقطع ، حيث وجدت الدوقة نفسها وسط
كل أهالي كبراي الذين تجمل أعماءهم ، ولكن دونيتهم زادت من
رفعة مقامها بصورة أشعرتها بالعطف عليهم عطفاً كله رثاء وإشفاق ،
ولا بد أن بساطتها وسحرها الطبيعي كان وقعهما عليهم بالغ الأثر :
وأستطيع أن أرى اليوم بعين عقلي تلك الدهشة اللطيفة التي بدت من
عينيها ، من فوق لفاعها البنفسجي الحريري الرفاف ، التي أضافت
إليها — من غير أن تجسر على توجيهها إلى أى أحد بالذات ، بل هي

موجهة إلى كل من يأخذ منها بنصيب ، الابتسامة الحبيبة للملكة تعتذر
عن ظهورها بين رعاياها الذين تحبهم . واستقرت هذه الابتسامة على
شخصي ، أنا الذي لم أكف قط عن تعقبها بعيني . وإذا أتذكر تلك
النظرة التي حظيت بها أثناء القداس ، وكأني في زرقعة شعاع الشمس
الذي اخترق زجاج نافذة جيلبير الشرير ، أقول لنفسي :

— إنها تفكر فيّ بالطبع !

فقد توهمت أني وجدت نعمة في عينيها ، وأنها ستظل تفكر فيّ
بعد مغادرة الكنيسة ، وأنها قد تعاود هذا التفكير ذلك المساء في
جيرمنت : وعلى الفور وقعت في غرامها . وكما يكنى أحياناً لكي
نحب امرأة أنها تنظر إلينا بازدراء — على نحو ما ظننت أن الآنسة
سوان نظرت إلى — ونوهم أننا لا يمكن أبداً أن نالها ، كذلك يكنى
أحياناً أن تنظر المرأة إلينا برقة وحنان — كنظرة مدام دى جيرمنت
حينئذ — كي نوهم أنها صارت تقريباً في متناول يدينا . فعيناها
الزرقاوان كالزهر الأزرق اللامع بعيدتان عن متناول يدي ، ولكنها
أهدتهما إلى . وانجابت صحابة عابرة فانبتق النور القوي على الميدان
وعلى الكنيسة ، فأضني وهجاً على البساط الأحمر المفروش خصيصاً
بمناسبة القران ، وخطت مدام دى جرمنت فوقه باسمه ، وجرت
فوقه أذبالاً من المخمل الوردي ، زادت من جمال وأبهة هذا الحفل ، في
عذوبة تجعلنا نفهم لم وصف بودلير صوت البوق بأنه كان «لذيذاً» .

وكثيراً ما ألح عليّ إحساسي بعد ذلك اليوم، في غضون نزواني بطريق جيرمنت، شعور قوي بنقص استعدادي للعمل الأدبي، وأنتي ينبغي أن أتخلّى عن كل أمل في أن أغدو مؤلفاً مشهوراً. وكان أسأى عليّ ذلك عميقاً، وأنا أتمسك وحدي كي أسترسل مع أحلامي لذا صرت - لكي أتجنب هذا الشعور المؤلم، أتجنب بحيلة دفاعية من جانب عقلي كل تفكير في قرص الشعر أو كتابة القصة بسبب قصور مواهبني عن ذلك. وعندئذ، بعيداً عن كل هذه الاهتمامات الأدبية، وبدون ارتباط أو تعلق بأي شيء، يطل عليّ فجأة وميض من أشعة الشمس من وراء أحد السقوف منعكساً على الصخور، وتدفعني رائحة الطريق المزهر إلى الوقوف في مكاني، لأنهم بالذلة الخاصة التي يمنحني إليها كل ما حولي، وأيضاً لأنه خيل إليّ أن هذه الأشياء تخفي وراءها ما لا تستطيع عيناى أن تصلا إليه، وما تدعوني للاقتراب منه والاستحواز عليه، ولكنني مهما بذلت من جهد لا أستطيع أبداً أن أكتشف ما هو بالضبط. وكان وقوفي يطول وأنا جامد في مكاني، أحلق وأنفسي وأحاول بعقلي أن أنفذ إلى ما وراء المنظور والمشوم. وإذا اضطرتت للسير وراء جلدي، بعد ذلك حاولت أن أستعيد الإحساس بهذه الأشياء بإغلاق عيني، وأركز ذهني على تذكر شكل السقف بالضبط، ولون الصخر، فقد كانا - لا أدري لماذا - فيما يخيل إليّ يعجان بالأسرار، وعلى استعداد للانفتاح أمامي كي أصل إلى كثرهما المكنون، الذي ليسا هما إلا غلافه

الخارجي. وليس شيء من قبيل هذا الانطباع كفيلاً أن يعيد إلى الأمل الذي فقدته في أن أصبح يوماً ما مؤلفاً وشاعراً. لأن كل انطباع منها كان مرتبطاً بموضوع مادي ليست له قيمة فكرية، ولا يوحى بأي حقيقة مجردة. ولكنها على كل حال كانت تمنحني لذة غير معقولة، وتوهمني بلون من خصوبة الذهن، وبذلك كانت تنقذني من الملل، ومن إحساسي بعجزى الذي كنت أستشعره كلما فكرت في موضوع فلسفي لعمل أدبي كبير.

وكان سلطان هذه الانطباعات المتعلقة بالشكل أو الرائحة كبيراً بحيث يدفعني للبحث عما يكمن وراءها، ولكنني كنت أجد عناء بلا طائل في هذا البحث فأنتدع بأول مبرر للكف عنه، ويسعفني الحظ، فيناديني والديّ لألحق بهما، وأقول لنفسي إنه من الخير أن أوجل ذلك إلى حين عودتي للمنزل، ولا أضني نفسي الآن بهذه المحاولة التي لا جدوى منها. وهكذا أكف عن الانشغال بالسر الكامن وراء شكل أو عبير، وأمضى مستريح البال إلى أني أحمل هذه الأسرار معي إلى البيت محفوظة داخل أغلفتها الملموسة، حيث أجدّها ما تزال حية نابضة، مثل السمكة التي أصطادها في الأيام التي يسمح لي فيها بالصيد، وأحملها تحت العشب في سلكي إلى المنزل، فنصل حية طازجة رطبة.

ولكنني متى عدت إلى البيت بدأت أفكر في أمور أخرى، وبذلك يتبعثر ذهني - كعبثة الأشياء المتباينة التي جمعها في نزواني

أول أعطاني الناس إياها - بين انعكاس الضوء على حفرة ، وصوت ناقوس ، ورائحة الأوراق المتساقطة ، ويضل بينها السر المزعوم الذي أحسست بوادره ، ولكن عقلي لم يستطع قط استخراجها من مكانه .

وحدث ذات مرة أننا ذهبن في سيرنا إلى مدى أبعد مما تعودنا ، حتى أطبق المساء ، ولذا سرنا أن نرى الدكتور بيرسبييه يمر بنا في عربته بأقصى سرعة عائداً إلى كمبراي ، وعرفنا فتوقف ودعانا للوثوب والجلوس بجانبه . وجلست أنا على الصندوق بجوار الخوذي ، ومضت العربة تسابق الريح ، لأن الطبيب كان ينبغي أن يمر قبل العودة على مرتفيل لوساك Martinville lesac ، ليعود مريضاً في بيته . وأمام الباب طلب منا أن ننتظره . وعند ثنية في الطريق شعرت فجأة بتلك اللذة الخاصة التي لا تشبه أي لذة أخرى ، عندما نحت برجي كنيسة مرتفيل ، اللذين كانت تتلاعب فوقهما أشعة الغروب ، في حين كانت سرعة العربة تحيل إلى دائماً أنهما يغيران وضعهما باستمرار . ثم نحت برجاً ثالثاً هو برج كنيسة فييفيك Vieuxvicq ، وكأنه قائم بجوارهما ، مع أنه يفصل بينه وبينهما تل وواد ، ويقوم على مستوى من الأرض أكثر ارتفاعاً من مستواهما . وبدأت الأبراج بعيدة جداً ، ولذلك أدهشني أن أراها بعد بضع دقائق تقف بجوار كنيسة مرتفيل . ولم أعرف سبباً للذة التي شعرت بها عند رؤية البرجين على الأفق ، وكل ما هناك أني تخليت أن أحفظ

في ذاكرتي بهذه الخطوط المتقاربة التي تتحرك في ضوء الشمس ، ولم أرد أن أفكر فيهما في الوقت الحاضر . ونزلت من فوق الصندوق لأتحدث إلى والدي ونحن في انتظار أوبة الطبيب ، ثم حان وقت التحرك ، فصعدت إلى مكاني ، وأدبرت رأسي كي أنظر إلى الورا إلى البرجين ، وبعد قليل أقيت عليهما لحظة وداع عند منعطف الطريق .

ولم أجد لدى الخوذي استعداداً للحديث ، فأتجهت إلى نفسي وحاولت استعادة منظر الأبراج الثلاثة ، وإذا بالسر المكنون المستعصى يتجلى لإحساسي على غير توقع ، ويملاً جوانب نفسي بحيث لم أفكر في أي شيء غيره . وكنا في هذه اللحظة قد ابتعدنا كثيراً عن مرتفيل ، فأدبرت رأسي ولحت شبحتها وقد تحول إلى اللون الأسود لأن الشمس كانت قد اختفت تماماً . وجعلت كل ثنية في الطريق ، كل بضع دقائق ، تواربها عني ، إلى أن اختفت نهائياً . ولما كانت اللذة العميقة التي اجتاحتني على صورة كلمات ، اقترضت من الدكتور ورقة وقلماً ، وكتبت - برغم اهتزاز العربة المستمر - ما نفست به عن حاستي - وهو القطعة النثرية التالية ، التي اكتشفتها فيما بعد بين أوراقها ، وبشيء يسير من التعديل هنا وهناك .

* * *

« وحدهما ، صاعدين من مستوى السهل ، وكأنهما ضائعان في

هذا الريف المكشوف المترامى ، انبثق إلى السماء برجا مرتفيل التوأمان : وسرعان ما رأينا ثلاثة أبراج ، فقد اندفع إلى وضعه هذا في مواجهتهما بقوة وجسارة برج ثالث ، هو برج « فيفيك » ، الذى انضم إليهما : ومرت الدقائق ونحن نتحرك بسرعة ، وظلت الأبراج الثلاثة قبالتنا لمسافة طويلة ، مثل ثلاثة طيور جائئة فوق السهل ، واضحة للعيان لا تتحرك في ضوء الشمس : ثم انسحب برج فيفيك ، إلى مسافته الصحيحة ، وظل برجا مرتفيل وحدهما ، وقد ذهبتا أشعة الشمس الغاربة ، التى كنت أراها من هذا البعد تتلاعب وتبتسم فوق جوانبهما المنحدرة . وأنفقنا وقتاً طويلاً في الاقتراب منهما حتى بدأت أفكر في الوقت الذى يجب أن يتقضى قبل وصولنا إليهما ، وإذا بالعربة فجأة ، وقد دارت حول منعطف ، تبلغ بنا إلى سفحهما مباشرة ، وكأتهما اندفعا فجأة ليقترحا طريقنا ، حتى لم يكدر يتسع لنا الوقت للتوقف قبل الارتطام بمدخل الكنيسة : « واستأنفنا طريقنا ، وكنا قد غادرنا مرتفيل منذ قليل ، وغادرنا القرية التى صحبتنا في مسيرتنا بضع ثوان ، ثم اختفت ، وإذا ببرجى مرتفيل ، وبرج فيفيك يبرز ثلاثتها فوق الأفق لترقب فرارنا ، وتلوح لنا تلويحة الوداع بقممها المغمورة بالشمس : وفي وقت ما ينسحب البرج الثالث ليبقى الاثنان يرقبانا برهة ، ولما غير الطريق اتجاهه يروغ الثلاثة من نظرى كتلاته محاور ذهبية : وبعد قليل ، عندما اقتر بنا من كبر اى ، وكانت الشمس في هذه الأثناء قد غربت ،

رأيت الأبراج الثلاثة للمرة الأخيرة ، ممعة في البعد ، ولاحت كتلاتها أزاهير مرسومة على صفحة السماء فوق خط الحقول. وجعلتنى أفكر أيضاً في ثلاث عذارى ورد ذكرهن في أسطورة ، متروكات في مكان منعزل ، بدأ الليل يطبق عليه ... وإذا في أراهن ونحن نبتعد عنهن بسرعة ركض الخيول ، وقد رحن يتلمسن طريقهن ، وبعد حركات متعثرة من قلدودهن النبيلة ، تدانين ، حتى صارت كل منهن متوارية خلف الآخرين ، حتى لم يعد يبدو منهن الآن على صفحة السماء التى لم تزل وردية لإلا قوام واحد قائم فاتن مستكين ، يوشك أن يبتلع الليل .

* * *

ولم أفكر بعد ذلك أبداً في هذه الصفحة . ولكنى في ذلك الحين ، وأنا جالس على الصندوق الذى كان من عادة حوذى الدكتور أن يودعه سلة كبيرة بها الدواجن التى كان قد اشترها من سوق مرتفيل ، أحسست عندما فرغت من كتابتها بسعادة غامرة لأننى خلصت ذهنى تماماً من وسواس تلك الأبراج ومن السر الذى يكن فيها ، وكأننى شخصياً دجاجة وضعت أخيراً بيضتها ، فشرعت أغنى بأعلى صوتى :

* * *

وكنت أثناء نزهاتى تلك أظلم طول اليوم أفكر في اللذة التى سأحصل عليها من صداقة الدوقة جبرمنت . ومن صيد السلмон

المرقط ، ومن الطفو وحدى فى زورق فوق صفحة نهر فيفون .
 وكنت لشدة نهى إلى السعادة لا أطلب شيئاً من الحياة - فى تلك
 الأوقات - أكثر من أن تكون سلسلة من « العصارى » المرحية .
 ولكن عندما المبح فى طريقنا إلى البيت مزرعة على يسار الطريق ،
 تبعد قليلاً عن مزرعتين متجاورتين ، لا يفصلهما عن كبرى إلا أن
 ننعطف فى ممر تظله أشجار البلوط ، تحف بأحد جانبيه بساتين
 مسورة لأشجار التفاح التى تلقى على الأرض ظلالها فى ضوء
 الغروب ، وعندئذ يدق قلبى بشدة ، وأعلم أننا بعد نصف ساعة
 سنكون فى البيت ، وأنا كالعادة كلما سرنا فى طريق جيرمنت نتناول
 العشاء متأخرين ، وبعده مباشرة أومر بالصعود إلى حجرى ، وبقى
 أمى على المائدة كأنما هناك ضيوف ، ولا تصعد ليقول لى فى فراشى
 طابت ليلتك . وعلى الفور تبدأ منطقة اكتئابي التى تختلف تمام
 الاختلاف عن منطقة المرح والسعادة التى كنت أرفل فيها منذ لحظة ،
 تماماً كما تنفصل أحياناً على صفحة السماء مساحة وردية عن مساحة
 أخرى خضراء أو سوداء ، كأنما بينهما خط غير منظور . فيينا
 أنت ترى طائراً يحلق فى الضوء الوردى ، إذا به يعبر ذلك الحد
 الفاصل ويمرّق منه ليحلق فى المساحة السوداء التى تخفيه عن ناظريك .
 وإذا بالفتيات التى كنت غارقاً فيها بأن أذهب إلى جيرمنت وأسافر
 وأعيش حياة السعادة وقد صارت بعيدة عني ، حتى أن تحقّقها
 لا يسبب لى أدنى لذة . فقد كنت مستعداً أن أضحي بهذا كله فى

سبيل أن أبكى الليل بطوله بين ذراعى ماما ! وأرتجف من شدة
 الانفعال ، وأعجز عن تحويل عيني الفزعتين عن وجه أمى التى لن
 تأتى إلى حجرى هذا المساء وأنا راقد فى فراشى ، وليتها تكون
 ضجة الموت !

وتلازمنى هذه الحالة حتى الصباح ، ومتى نشرت أنواره
 أشعتها ، قفزت من فراشى وهبطت على الفور إلى الحديقة ، ولا يخطر
 ببالي عندئذ أن المساء سيعود ، وتحل معه الساعة التى يتعين على فيها
 أن أفارق أمى . وهكذا تعلمت من طريق جيرمنت أن أميز بين هاتين
 الحاليتين اللتين كانتا تسيطران على عقلى بطريقة تبادلية ، بحيث
 تقسمان يومى فيما بينهما ، وتحل كل منهما محل الأخرى بانتظام
 دورات الحمى والبرداء فى الملايا . تتجاوران ولكن كلا منهما
 غريبة عن الأخرى ، وليس بينهما اتصال ، بحيث لا أستطيع وأنا
 فى إحدى الحاليتين أن أفهم ، أو حتى أصور لنفسى ما تقت إليه
 أو فعلته وأنا تحت سيطرة الحالة الأخرى .

* * *

وهكذا يظل طريق ميزجلير وطريق جيرمنت مرتبطين عندى
 بالأحداث الصغيرة للحياة الغنية بالتفاصيل والوقائع ، الحافلة بالتنوع .
 وأعنى بتلك الحياة حياة الذهن . فما يحدث فى عقولنا من تطورات ،
 ومن نمو وتقدم سبقته دائماً تمهيدات صغيرة غير ملحوظة ، لأنها
 تمهيدات لا شعورية ، يضمننا البحث عن جذورها واء تكوننا

الراهن عندما نكبر . ولخفاء هذه الجذور والتهديدات عنا نحسب حالتنا الراهنة وليدة اليوم ، بل اللحظة التي لاحت لنا فيها ، مع أن كل ما مر بنا في حداثتنا من مناظر وروائح ومشاعر جزئية قد اندمج فيها وحملناه معنا بأدق تفصيلاته . وهو الذي صنع تكويننا النفسى والعقلى من حيث لا نختسب . وهكذا حملت في دخليتي روائح الزعرور البرى ، ومناظر المروج ، والنهر ، والبساتين ، والسماء ، والأبراج ، وألصقتها في انفعالاتي الحارة بها في حينها ، وعبرت معي كل تلك السنين ، في حين ماتت كل العناصر والمريثات التي لم أنفعل بها . وأحياناً تطفو في الحاضر قطعة من منظر قديم منفصلة عن كل ما كان متصلاً بها ، بحيث أعجز عن تحديد المكان والزمان الذي تراءت لي فيه في البداية . بل لعلها جزء من أحلامي القديمة ، ولكني أعجز أيضاً عن تحديد ملابسات هذا الحلم . إلا أن هذه المكونات اللاشعورية هي أرض نفسيتي الصلبة ، في أعماق طبقاتها ، التي فوقها أستطيع أن أبني تصوراتي الجديدة . وهذه الأرضية هي بلا شك - في نظري - طريقاً ميزجليز وجيرمنت . وما زالت الأشياء والأشخاص الذين عرقهم وأنا أطوف هذه الأصقاع هي مصدر سرورى العميق . ولا أدري الآن الإيمان الخلاق قد توقف في نفسى ، أم لأن الواقع احتل تصوراتى ، صرت لا أحس أن الأزهار التي يربى الناس إياها الآن لأول مرة أزهار حقيقية . وما زال طريق ميزجليز بلبلكه وزعروره البرى وقطر يونه العنبرى

وخشخاشه وأشجار تفاحه ، وما زال طريق جيرمنت بنهر الغاص بأفراخ الضفادع ، وزنايقه المائية ، يكونان لدى على مدى الأيام صورة الأرض التي أتمنى أن أقضى فيها حياتى ، وكل ما أقتضيه منها أن أخرج للصيد في النهر ، والطفو بتراخ في زورق ، وأشهد أنقاض القلعة القوطية بين الأعشاب ، وأعثر وسط حقول القمح على كنيسة قديمة متوارية - كما تتوارى كنيسة سانت أندريه ديه شان - بينائها الرينى ، وقد اصفر كأنه حجر الطاحون ، وأعثر على القطريون العنبرى والزعرور البرى وأشجار التفاح التي قد أصادفها وأنا خارج للترهة بين الحقول .

ولكن لأن للأماكن فردتها ، لن يشيع اشتياقي إلى طريق جيرمنت أن أرى ضفتى نهر ما فيه زنايق الماء ولو كانت في جبال زنايق نهر فيفون أو أجمل منها وأبهى . تماماً كما لن يشيع اشتياقي للحب والحنان أن أجده عند عودتى للبيت أما غريبة تدخل حجرة نومي لتقول لي طابت ليلتك ، حتى ولو كانت أجمل من أى بكثير وأذكى منها . وكما أنه كان لا بد لتلك المرأة أن تكون أى كى تمنحني السعادة وأنام قرير العين (وذلك ما لم أستطع أن أحسه من قبيلات من حظيت بهن بعد ذلك من عشيقات ، كنت أشك في صدق عواطفهن في نفس اللحظة التي أصدقهن فيها ، فالمرء لا يملك حقاً قلوبهن كما كنت أتلقي مع قبلة أى قلبها كله بغير تردد أو ضنّ أو تحفظ) وكما كان لا بد أن تكون أى هي التي تأتي إلى ، وتميل فوق

بوجهها ذلك الذى كانت توجد فيه تحت إحدى العينين شائبة كنت أحبها جداً كما أحب كل ما فيها ، كذلك ما كان لا بد لى منه كى يشبع أشواقى هو طريق جبرمنت كما عرفته ، وفيه تلك المزرعة البعيدة قليلا عن المزرعتين المتجاورتين المتلاصقتين ، عند مدخل ممر البلوط ، وفيه تلك المروج التى ترسم فوقها أوراق أشجار التفاح عندما تضيئ الشمس على صفحتها تألقاً تبدو فيه كالبجيرة . وبه كل تلك المناظر التى تسيطر فرديتها أحياناً على أحلامى فى الليل ولكنى عندما أصحو لا أجد لها أثراً .

ولاشك فى أن طريقى ميز جليز وجبرمنت قد عرضانى فى تلا ذلك من مراحل عمرى لكثير من خيبة الأمل ، بل لكثير من الأخطاء بما أوقعاه فى نفسى من ارتباطات بين مجموعات متباينة من الانطباعات ، لا لسبب سوى أنها أشعرتنى بأشياء متفرقة فى آن واحد. ولذا فكثيراً ما تمنيت بعد ذلك لقاء شخص معين ثم اكتشف أن السبب فى ذلك أنه ذكرنى بسياج من الزعرور البرى المزهر . وهكذا أجد هذين الطريقين الأساس الغامر لانطباعاتى الحاضرة ، الأساس الذى يكسبها عمقاً وأبعاداً ، تفتقر إليها انطباعاتى الأخرى غير المرتبطة بهما . كما أنه يكسبها مغزى يخلصنى وحدى . فعندما تزجر السماء المكفهرة فى إحدى أمسيات الصيف ويتدمر كل امرئ من العاصفة ، تذهب بنى مخيلتى إلى طريق ميز جليز فى نشوة لأستنشق وسط صوت

المطر المنهمر عبر تلك المروج وما فيها من أشجار اللبلك التى لا يراها سوى ، وتلاحقنى صورها وشذاها .

وكذلك كثيراً ما أرقد حتى الصباح أحلم بالأيام الخوالى فى كهبرى ، وأمسيانى الحزينة الأرقه هناك ، وبأيام أخرى ردها إلى طعم فنجان من الشاي ، وبتداعى الذكريات أستعيد قصة رويت لى بعد فراق ذلك المكان بسنوات عن غرام انغمس فيه سوان قبل أن أولد . أستعيدنها بكل التفاصيل وبكل الدقة التى تواتبنا ونحن ندرس حياة من غبروا منذ قرون بأسهل مما تواتبنا تفاصيل حياة أقرب أصدقائنا إلينا . تفاصيل كان يبدو من المستحيل أن ندرکها مثلاً كان يبدو لنا الكلام من بلدة لأخرى مستحيلاً قبل اختراع التلفون . وتراكب كل هذه الذكريات فى كيان واحد ولكن بغیر التحام ، فهناك ثلاث طبقات منها : طبقة الذكريات الموعلة فى القدم وكأنها غريزية ، وطبقة الذكريات التى استعادها طعم معين أو رائحة خاصة ، وطبقة الذكريات التى اكتسبتها عن طريق رواية شخص آخر: أجل لى عندما يدنو الصباح أكون قد تخلصت من سيطرة الحلم ، وأدرك فى أى حجرة أنام فعلاً ، مستعيناً بالذاكرة فى عتمة السحر ، أو يومض ضوء منبعث من الخارج ، فأعرف أن مصدره نافذة لها ستائر ، وأحدد مكان كل قطعة من أثاثها . ولكن ما يكاد الصحيح الحقيقى يبرز حتى أتبين أن بصيص النور كان منعماً من تحت الباب ،

لا من النافذة ، وأرى الأثاث كله في وضعه الصحيح ، لا كما توهمته بالخيلة في العتمة .

لكي تقبل في « الخلية الصغيرة » أو « المجموعة الصغيرة » في بيت آل فرديران Verdurin ، يكفي أن تكون مستوفياً لشرط واحد ، ولكن هذا الشرط الواحد لا غنى عنه . فلا بد أن تؤمن بالعقيدة التي من بين بنودها أن عازف البيانو الشاب الذي شملته مدام فرديران برعايتها هذا العام وقالت عنه :

— لا ينبغي أن يسمح لأحد أن يعزف البيانو أفضل من هذا . وأن الدكتور كوتار Cottard نطاسي أبرع في وصف العلة من بوتان Potain . وكل مستجد يفشل آل فرديران في إقناعه بأن الأمسيات التي تقضى في غير دارها مملّة كياه الصرف الصحي ، يجد نفسه متنبوذاً مقصياً على الفور . ولما كانت النساء في هذا الشأن أشدّ تمرداً من الرجال ، وأقلّ منهم استعداداً لبذ كل فضول دنيوى ، ويفضّلن أن يكتشفن بأنفسهن هل قاعات الاستقبال الأخرى لها مثل مباحج قاعة استقبال آل فرديران في بعض الأحيان أم لا ؟ ولما كان آل فرديران يشعر أن هذه الروح النقدية وهذا الترق يمكن أن ينتقلا بالعدوى فيقضيان على أصالة واستقامة عقيدة كنيستهما الصغيرة ، لذا اضطرا إلى إقصاء الجنس اللطيف واحدة بعد واحدة .

فبخلاف زوجة الطبيب الشابة ، اضطرا في ذلك الموسم (مع

أن مدام فرديران نفسها كانت امرأة « طيبة » جداً ، وتنحدر من أسرة محترمة من أسر الطبقة الوسطى ، وبالغة الثراء ، وليس فيها عنصر من عناصر الرقي والامتياز ، وقد قطعت كل صلة لها بأسرتها هذه تدريجاً ومن تلقاء نفسها) للاكتفاء بامرأة شابة تكاد تنتمى لطبقة معينة (من أنصاف الحرائر) هي مدام دى كريسى Crécý ، كانت مدام فرديران تنادياها باسمها الأول وهو « أوديت » Odette ، وبعمة عازف البيانو التي كان يبدو عليها أنها كانت تعمل فيما مضى خادمة : وهما سيدتان تجهلان المجتمع الراقي تماماً ، ولذا كان من السهل عليهما لسذاجتهما أن تعتقدا أن أميرة ساجان De Sagan ودوقة جيرمنت De Guermentes كانتا مضطرتين لدفع مبالغ كبيرة من المال للمسكينات اللواتي يقبلن الدعوة إلى قصرهما ، وهى دعوة كانت المرأة غير المصنوع والحادمة السابقة تأيين قبولها بازدياد شديد :

ولم يكن آل فرديران يدعوانك إلى المائدة ، بل مكانك محجوز لك دائماً . ولم يكن هناك قط أى برنامج للترفيه في الأمسيات . وقد يعزف عازف البيانو إن وجد ميلاً لذلك ، لأنه لم تكن هناك واجبات مفروضة على أحد ، بل كما قال المسيو فرديران :

— كلنا هنا أصدقاء والحرية هي الشعار .

وإذا اقترح عازف البيانو عزف « ركوب الفالكيري » أو « مقدمة تريستان » احتجت مدام فرديران ، لا لأن الموسيقى لا تروقها ، بل

بالعكس لأن انطباعها عنيف جداً « أتريد أن يصبنى الصداق ؟
فأنت تعرف جيداً أنني أصاب به في كل مرة يعزف فيها هذا ..
ويتعذر على النهوض غداً من فراشي ». فلأن لم يكن عازماً على العزف ،
دارت الأحاديث ، وعادة يشرع الرسام - الذي كانت له الخطوة
تلك السنة - في « حيك » نادرة تجعلهم جميعاً تكاد تنشق جنوبهم من
الضحك - على حد قول مسيو فرديران ، وتكون مدام فرديران
أشد الجميع ضحكاً ، حتى أن الدكتور كوتار - الذي كان يومئذ
حديث عهد بالممارسة العامة - يضطر في الصباح لزيارتها كي يصلح
فكها الذي اعوج من شدة الضحك !

وكانت ملابس السهرة متنوعة ، لأن الجميع « رفاق وأصحاب »
ولا يريدون أن يبدووا مثل المملين من السمجين المتكفين الذين يجب
تحاشيهم كأنهم الطاعون ، فلا يدعون إلا في السهرات الكبرى التي
لا تقام إلا نادراً جداً ، وبشرط أن تفيدي في إذاعة شهرة الرسام
أو الموسيقى . أما سائر الليالي فأنت سعيد بالتسليية بين الصحاب
أو أداء تمثيلات تنكرية ثم تناول العشاء ، بدون حاجة إلى إقحام
عناصر غريبة في « العشرة » الصغيرة .

ولكن بعد أن صار « الرفاق الطيبون » يحتلون مكاناً بارزاً في
حياة مدام فرديران ، كذلك صار « المملون » يشملون كل من وكل
ما يبعد أصدقاءها عنها ، بحيث يتذرعون أحياناً « بارتباطات سابقة » ،
مثل والدة هذا ، أو واجبات مهنة ذلك ، أو « المقر الريني » لثالث .

فإذا اضطّر الدكتور كوتار أن يقول طابت ليلتكم بمجرد النهوض
من المائدة ، لكي يعود مريضاً حالته سيئة ، قالت مدام فرديران :
- أعتقد أن حالته ستكون أفضل إن لم تقلقه مرة أخرى الليلة ،
فيحظى ليلة طيبة بدونك ، ويمكنك غداً صباحاً أن تبكر بالذهاب
إليه فتجده شقي تماماً !

ومنذ بداية ديسمبر ينتابها المرض من التفكير في أن بعض
« المخلصين » قد يخذلونها في عيد الميلاد ورأس السنة . فعمة الموسيقى
ألحت أن يصحبها في رأس السنة لتناول العشاء عند والدتها . فصاحت
مدام فرديران :

- أنظنين أن والدتك ستموت إن لم تتعشى معها ليلة رأس
السنة مثل أهل الريف ؟
وينفذ ضيقها في الأسبوع المقدس . فقد قالت للدكتور كوتار
في أول سنة انضم فيها إلى « العشرة » ، بصوت حازم كأنها لا ترتاب
في رده :

- أنت يا دكتور رجل عاقل واسع الأفق ، وستأتي بالطبع
يوم الجمعة الحزينة كأى يوم آخر ؟
ولكنها كانت ترتجف وهي تنتظر هذا الرد ، لأنه إن لم يأت
قضى عليها بتناول العشاء وحدها :
- سأتى يوم الجمعة الحزينة لأودعك ، لأننا ذاهبان لقضاء
العطلة في أوفرني Ouvergne .

— في أوفرني ؟ لكي تأكلكما الحشرات والحوام ؟ ما أسوأه من اختيار ! (وبعد لحظة صمت) ولو كنت أخبرتني من قبل لحاولت تكوين جماعة لنذهب كلنا معاً إلى هناك بطريقة مريحة .

وكذلك إذا كان لأحد « المخلصين » صديق ، أو كان لإحدى السيدتين صديق من الممكن أن يدفع « المخلص أو المخلصة » إلى التخلف عن أمسية ، رتباً ضمه إلى العشيرة ، لأن آل فرديران لا بغضبهما أن يكون لأى سيدة عشيق ، ورجبا به بكل سرور . ثم يجرى اختياره للتأكد من أنه لن يكتم سرّاً عن مدام فرديران ، فيتم ضمه نهائياً . أما إن رسب في الاختبار انتحيا « بالمخلص » الذى قدمه إليهما جانباً ، وحرصاه على الشجار مع العشيقة أو العشيق غير المرغوب فيه . أما إن اجتاز الاختبار ، خلعا عليه لقب « مخلص » أو « مخلصه » ، ولذا عندما قالت الغائبة للمسيو فرديران إنها تعرفت بسيد ساحر هو مسيو سوان Swann وأحت أنه يتمنى أن يسمحا له بالقدوم ، رفع مسيو فرديران الالتباس فوراً إلى زوجته ، فما كان ليكون رأياً فى أى موضوع ، بل يترك ذلك لها . وينحصر واجبه فى تنفيذ رغباتها ورغبات « المخلصين » عموماً ، بكل دقة وبراعة ، وهذا يقول لزوجته :

— يا عزيزتى إن مدام دى كريسى (أوديت) لديها شئ تقول له لك : إنها تود أن تأتى إلى هنا بأحد أصدقائها : من يدعى مسيو سوان . فما رأيك ؟

— كأنما يسع أى إنسان أن يرفض أى شئ لهذه التحفة ؟ اسكتى أنت . لم يطلب أحد رأيك . أنا قلت : إنك تحفة ! فأجابتها أوديت ، بلهجة متكلفة :

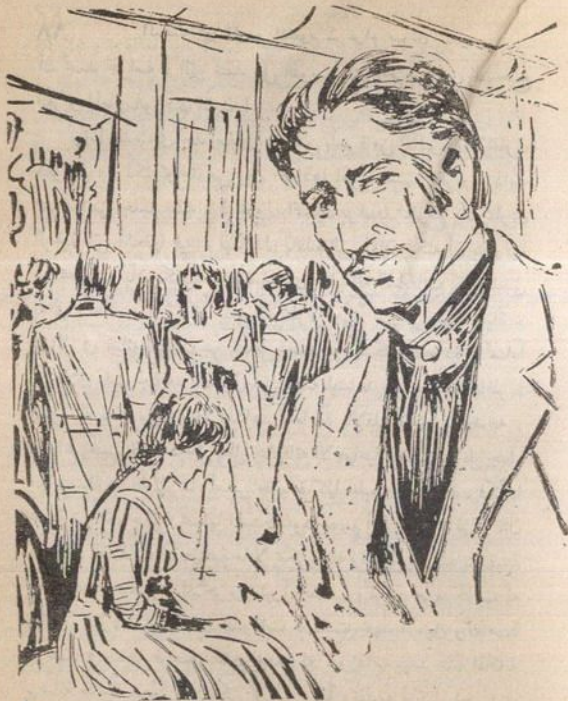
— كما تشائين . وأنت تعلمين أنى لا أتصيد الإطراء . — هذا حسن . ليكن . أحضرى صاحبك ، إن كان لطيفاً . ولم يكن هناك أى ارتباط إطلاقاً بين هذه « الخلية الصغيرة »

وبين المجتمع الذى يخاطبه سوان ، وأى رجل يجتمع راق ما كان ليجدهذه المجموعة تستحق عنايتهوهو يحتل مركزاً مرموقاً فى الحياة ، ولا يعنى نفسه للسعى إلى دخول بيت آل فرديران . ولكن سوان كان عاشقاً مدنفاً ، بحيث أنه بعد أن عرف جميع نساء الأرستقراطية تقريباً ، وعلمنه كل ما يمكن تعلمه ، لم يعد يرى فى حبك الاعتماد الذى أضفاه عليه حى سان جيرمان Faubourg Saint Germain

علاقة نبالة ، بل مجرد سند قابل للمقايضة وليست له قيمة ذاتية ، بل كل ما هناك أنه يتيح له مكانة فى ركن قصى من الريف ، أو فى حى مغفور من باريس حيث خلبت له ابنة حسناء لحام أو أحد صغار الأعيان . فى هذه الأوقات توقد الشهوة أو الحب ذاته فى نفسه شعوراً بالزهو هو الآن خال منه فى حياته اليومية ، مع أنه بلا ريب نفس الشعور الذى كان قد دفعه فى البداية نحو هذا الاتجاه كرجل يجتمع أنيق يسخر مواهبه الذهنية والثقافية للمسرات الفارغة ، ويستخدم أبحاثه وتبحره فى أمور الفن ليجرد نصيح سيدات المجتمع

الراقى بأى الصور يشترئها وكيف يزخرق بيوتين : وهذه الأباطيل هى التى جعلته متلهفاً على التأتلى فى نظر أى مجهولة حسناء فتتته فى حينها ، تألقاً ربما لم يكن اسم سوان فى حد ذاته مشعاً به فى نظرها . وإن شغفه ليزداد لطفة إذا كانت المبلحة المجهولة أو المغمورة ذات ظروف متواضعة . وسوان الذى كان يتصرف بكل بساطة وعلى بختيته تماماً مع الدوقات يرتجف خوفاً من ازدراء يوجه إليه ، ويشرع فى التكلف على الفور إذا كان سيقابل خادمة صاحبة الفخامة !

وسوان يختلف عن أناس كثيرين تنقصهم الحيوية أو يستسلمون للإحساس بالواجب الذى يفرضه عليهم مركزهم الاجتماعى الرفيع ، فيظلون كالزورق المشدود أمام البيت الساحلى ملازمين لنقطة معينة من شط مجرى الحياة ، ممتنعين عن المسرات واللذائذ المتاحة لهم فيما يجاوز هذه النقطة حتى نهاية عمرهم ، متحلمين السأم والملل بما تيسر لهم من تسلية تافهة . أما سوان فليس هكذا ، فهو يحاول ألا يجسد السحر والجمال فى النساء اللواتى يتحتم عليه أن يقضى معهن الوقت ، ويحاول أن يقضى وقته بين نساء اكتشف بنفسه أنهن جميلات فانتات ، وهن غالباً نساء ينتمى جاهلن إلى النمط السوقي ، لأن المحاسن الجسدية التى تجتذبه غريزياً وبلا تعقل هى تقيض المحاسن التى يعجب بها فى صور وتماثيل النساء التى رسمها ونحتها أساتذة الفن الذين يعجب بهم . فعمق الشخصية أو الطبع ، أو المسحة الحزينة على وجه امرأة كفيفة



وسوان يختلف عن أناس كثيرين تنقصهم الحيوية أو يستسلمون للإحساس بالواجب الذى يفرضه عليهم مركزهم الاجتماعى الرفيع ..

أن تجمد حواسه ، التي تنقذ على الفور لم رأى الألم البشرى الصحيح
الغزير المعاني الوردي اللون !

وإذا حدث في أحد أسفاره أنه التقى بأسرة من الأليق به الأبحاول
معرقها ، ولكنه وجد من بين أفرادها امرأة لفتت نظره ، ذات
سحر خاص جديد عليه ، لم يحاول التمسك بوضعه المترفع بأن يمارى
الرغبة التي أشعلتها فيه ، فيستبدل باللذة التي كان يمكنه أن يتذوقها
في صحبتها ، بأن يكتب لدعوة إحدى عشيقاته السابقات كي تلحق
به في رحلته ، لأن ذلك يبدو له تنازلاً جباناً عن مواجهة الحياة ،
يمائل في غيابه التزول عن شكل جديد من أشكال السعادة ، تماماً
كما غلاق باب جناحه بالفندق على نفسه ليشاهد صور « المناظر »
الباريسية بدلا من زيارة المشاهد الخاصة بالإقليم الذي يوجد به .
ولذا لم يحبس نفسه داخل إطار علاقاته الاجتماعية الصلب ، بل جعل
منها وسيلة متاحة لإرساء أسس جديدة كلما خلبت له امرأة . فكأنها
خيمة من الخيام التي يحملها المستكشفون معهم أينما ذهبوا . فإذا كان
من هذه العلاقات الاجتماعية ما لا يمكن حمله والتنقل به عدة بلا قيمة
وطرحه ، مهما بدا للآخرين مثبراً للحسد . وكمن مرة كانت له
مكانة كبيرة لدى إحدى الدوقات ، بنيت بمجهود السنين وكدها
ورغبتها في انتهاز فرصة لتقديم خدمة له ، وإذا به يبدد هذه المكانة
برسالة طائشة يبعثها إليها لكي تزكيه برقياً وتقدمه لوكيل لإحدى
ضياعها في الريف لأن له ابنة لفتت نظره هناك . فكأنه الجامع الذي

ينزل عن جوهره نفيسة ليحصل على كسرة خبز جافة ! ولحق أنه
- بعد فوات الأوان - كان يضحك ساخراً من نفسه وما فعل ،
لأن في طبيعته عنصر التهريج وإن كانت قد صقلته تجارب الحياة .
ثم إنه ينتمى إلى ذلك الصنف من أذكى الرجال الذين عاشوا حياة
الدعة والكسل ، وينشدون العزاء ، وربما أيضاً العذر لكسلهم لأنه
يتيح لهم موضوعات اهتمام تضارع الموضوعات العلمية والفنية ، على
أساس أن « الحياة » بها مواقف أخرى بالطرافة وأخف بالرومانسية
من كل الروايات المكتوبة . وهكذا ، على الأقل ، يتسنى له أن
يؤكد ويقنع بلا عناء أشد أصدقائه فطنة في المجتمع الراقى - ولا سيما
البارون دى شارلى De Gharlus - الذي كان يحب أن يسليه
بحكاية المغامرات الغريبة التي تنفق له ، كما حدث عندما التقى بامرأة
في القطار ، وأخذها معه إلى البيت ، قبل أن يكتشف أنها كانت
شقيقة ملك متوج ، كانت متجمعة حينذاك في يديه كل خيوط
السياسة الأوروبية ، وبذلك ظل على علم بخفاياها على أمتع وجهه ،
أو عندما تكون الأهلية كلها - نتيجة لتعدد الظروف - فهل يصبح
أم لا عشيقاً لطباخة شخص ما ، وعلى ذلك قد تتوقف نتيجة انتخاب
الجمع المقدس للبابا !

ولم يكن الفيلق اللامع من العقائل الفضليات والجنرالات
والأكاديميين المرتبطين به ارتباطاً وثيقاً ، هو وحده الذي يحمله
سوان بكل استهانة على أن يقوم له بعمل القواد . بل كل أصدقائه

كانوا معتادين أن يتلقوا بين الحين والحين رسائل تطلب منهم كلمة تزكية أو تقديم ، بأسلوب غاية في الدبلوماسية ولكن بصورة متواترة في جميع « علاقاته الغرامية » ، مستعيناً على هذا بشتى المعاذير ، مما يقضض سمه ثابتة في طبعه هي البحث الدائب عن المتعة المتغيرة . وكثيراً ما ذكرت نفسى - عندما بدأت بعد سنوات طوال في الاهتمام بطبعه لما فيه مشابه من وجوه مختلفة تماماً مع طبعى الخاص - كيف كان من عادته أن يكتب إلى جدى (وكان ذلك قبل وقت مولدى ، ففي ذلك الحين بدأت علاقة سوان الغرامية الكبرى فقطعت مغامراته المعهودة) فكان جدى يعرف خط صديقه على المظروف ويصيح :

- ها هو سوان يطلب شيئاً ما . فلنكن على حذر !

وبناء على التزعة اللاشعورية التي تحثنا على تقديم شيء ما إلى من لا يحتاجون إليه ، كان جدى وجدى يقابلان أهون مطالب سوان بالرفض البات ، كما هو الحال حينما رجاهما أن يقدماه إلى فتاة كانت تتعشى معنا كل يوم أحد ، وصارا يتظاهرا أن كلما ذكرها لهما سوان أنهما انقطعا عن رؤيتها ، مع أنهما طول الأسبوع في حيرة بشأن من عساهما يدعوان للقائها ، وكانا يفشلان أحياناً في العثور على أحد ، ومع هذا لا تبدل منهما إشارة لدعوته وهو الذى كان خليقاً أن يلبيا بكل سرور .

وأحياناً كان زوجان من معارف جدى وجدى - ممن سبق لهم الشكوى لانقطاع سوان عنهما منذ مدة - يعلنان بفرح ، وربما

بشيء من الرغبة في إثارة حسد جدى وجدى لهما ، أن سوان عاد إلى مودته ، بل وزاد في مظاهرها معهما فجأة ، ولم يعد يغيب عن بيتهما . ولا يحاول جدى أن يحطم وهما الجميل ، وينظر إلى جدى وهو يدندن بموسيقى هذه الأغنية :

« ما هذا الغرائبي ؟ أنا عاجز عن فهمه . البصر عاجز مراوغ .. وفي مثل هذه الأمور ، يستحسن أن يغلق المرء عينيه ! » :

وبعد بضعة أشهر ، إن سأل جدى صديق سوان الجديد :

- ماذا عن سوان ؟ ألم يزل يكثر من زيارتكم كالمعتاد ؟

عندئذ يستطيل وجه الرجل ويقول :

- لا تذكره لى من فضلك بعد الآن !

- ولكني ظننتكما صديقين حميمين ..

وعلى هذا المنوال كان سوان صديقاً حميماً لعدة أشهر لبعض أبناء عمومة جدى ، بحيث كان يتعشى عندهم كل ليلة : وفجأة انقطع بغير سابق إنذار . فظنوه مريضاً ، وهمت ربة البيت أن ترسل للسؤال والاستفسار عن صحته ، عندما عثرت في مطبخها على خطاب بخط يده كانت الطباخة قد تركته سهواً في دفتر حسابات المنزل ! وفيه يعلن أنه سيغادر باريس ولن يأتى إلى هذا البيت بعد ذلك . فقد كانت الطباخة عشيقة : وفي لحظة رحيله كانت هي الشخص الوحيد من أهل البيت الذى فكر في إخباره بنيتة هذه .

أما إذا كانت عشيقة في فترة معينة امرأة من سيدات المجتمع ،

أو على الأقل ليست وضعية المولود جداً ، أو ليس وضعها شاذاً جداً بحيث لا يمكنه تقديمها للمجتمع الراقى ، عندئذ يدور في الفلك الضيق الذى به هذه المرأة أو الذى وضعها فيه هو ، ويقول الناس فى هذه الحالة :

— لا جدوى من الاعتماد على سوان الليلة : ألا تتذكرون أنها ليلة صاحبته الأمريكية بالأوبرا ؟

وتراه يحصل لها على الدعوات إلى أرقى الصالونات ، فى تلك البيوت التى يغشاها عادة ، للعشاء أسبوعياً ، أو للعب اليوكر : وفى كل أمسية تراه بعد أن يرجل شعره الأحمر المتهدل بما يلفظ من جسارة عينيه الخضراوين ، يختار زهرة لعروته سترته ويذهب للقاء عشيقته فى هذا البيت أو ذاك ، ويجد سحراً جديداً فى الصبغة التى كانت تضجره ويعاملهم بكل لطف بسبب وجود هذه المعشوقة الجديدة ...

ولكن فى حين كانت كل علاقة غرامية أو نزوة من هذا القبيل تحقيقاً متفاوت الاكتمال لحلم تولد عن رؤية وجه أو خد مليح وجده سوان فاتناً بصورة تلقائية ، من غير جهد من جانبه ، إلا أن الأمر كان مختلفاً تماماً عندما قدمه أحد أصدقائه فى المسرح ذات يوم إلى أوديت دى كريسى . وكان هذا الصديق قد حدثه قبل ذلك عنها على أنها مخلوقة ساحرة يمكنه أن يصل إلى تفاهم معها (أى أن عفتها

موضع مساومة) ولكنه تعمد أن يوجهه بأن اقتناص رضاها أصعب مما هو فى الواقع ، كى يوقع فى روعه أنه أسدى إليه جيلاً ذا قيمة بتقديمه إليها . وقد كان وقعها من نفس سوان بالقطع لا على أنها عاطلة من الجبال ، بل لأن جمالها ذو طابع خاص لا يبالى هو به ، ولا يثير شهوته ، بل إنه فى الواقع أثار فيه نفوراً جسدياً . فهى من ذلك النوع من النساء الذى يستطيع كل واحد أن يذكر واحدة مثلاً أو أكثر على نقيض ما تشبهه حواسنا . فالشكل الجانبي لوجهها حاد وبشرتها مفرطة الرقة ، وعظمتا خديها بارزتان أكثر مما يجب ، وتقاطيعها مشدودة بحيث لا يمكن أن تروقه : وكانت عينها بديعتين إلا أنهما واسعتان جداً حتى كأنهما تنحنيان إلى أسفل لفرط ثقلهما ، وتشدان كل ملامحها ، بحيث تبدو دائماً عليلة أو منحرفة المزاج . وبعد فترة من هذا التعارف فى المسرح كتبت إلى سوان تسأله أفى وسعها أن تشاهد مجموعاته الفنية ، التى تحس أنها ستثير اهتمامها جداً ، قائلة : « فانا امرأة جاهلة ولكن ذوقى يميل إلى الأشياء الجميلة » . وذكرته له أنها ستعرفه بصورة أفضل عندما تراه فى بيته حيث تتخيله « على سبيلية بين شايه وكتبه » وإن لم تخف عنه دهشتها لإقامته فى هذا الحى من المدينة ، فلا بد أنه حى كتيب « لا يلقى بأناقة رجل فى مثل وجهته المفرطة » : ولما سمع لها بالحضور قالت له عند انصرافها : كم هى أسفة لأنها مكثت هذه البرهة القصيرة فى بيت سرها جداً أن تدخله : وأشعرته أنه يعنى لديها أكثر مما يعنيه سائر من تعرفهم من

الناس ، وكأنما تريد ربط حياتيهما برباط رومانسى جعله يبتسم . ولكن سوان كان يقترب في ذلك الحين من مرحلة انقشاع الأحلام ، التي يكتفى فيها الرجل بأن يحب من غير أن يتوقع الكثير في مقابل هذا ، ولا يعود ارتباط القلوب - كما كان في مرحلة الشباب الباكر - الهدف الذي يرمى إليه الحب بالضرورة . بل لعل شدة توافق الأفكار قد يكون علة الحب إن حدث هذا التوافق الفكرى أولاً . فالرجل في عهد شبابه يحلم بامتلاك قلب المرأة التي يحبها ، ولكنه فيما بعد قد يكفيه الإحساس أنه يمتلك قلب امرأة ما كفى يقع في هواها . وهكذا في سن قد يبدو فيها - ما دام المرء ينشد في الحب قبل كل شيء آخر اللذة الذاتية - أن تذوقه للحبال الأنثوى لا بد أن يقوم بالدور الأكبر في تولد الحب ، قد نجد الحب الجسدى الجارف ينشأ بدون أى أساس من الاشتاء . وفي هذا الوقت يكون الرجل قد أدمته سهام الحب أكثر من مرة ، فلا يعود الحب ينشأ من تلقاء نفسه إطاعة لقوانينه القدرية المحتومة غير المفهومة في حين يظل قلبه المبهوت سلبياً . بل يخف الرجل لمعونة الحب ، فيزيفه بالتذكر والإيحاء ، ومتى تعرف على عرض من أعراضه تذكر ببقية الأعراض واستدعاها . وفي هذه الحالة ما دمنا نحفظ ترنيمة محفورة في قلوبنا بنصها الكامل ، فلا حاجة بأى امرأة للتفوه بمطلعها ، بل يكفى أن يلهمنا إياه إعجابنا بجألها كى نتذكر سائر الترنيمة . وحتى إن هى بدأتها من منتصفها

سهل علينا المضى معها فيها إلى نهايتها ، بدون تردد ، مع أول نبرة أو أول توقف في صوتها وهى تنشدها .

وجاءت أوديت دى كريسى مرات أخرى لزيارة سوان ، وتواترت زياراتها ، وما من شك أن كل زيارة جددت لديه شعوره بخيبة الأمل عند رؤية الوجه الذى كاد ينسى تفصيلاته فيما بين زيارة وأخرى ، ولا يذكر منها إلا شدة تعبيرها أو شدة ذبولها رغم صباها . وكان يأسف وهى تحدّثه لأن جألها العظم فعلا ليس من النوع الذى يعجب به تلقائياً . وينبغى أن نلاحظ أن وجه أوديت كان يبدو أنحف وأشدّ بروزاً من حقيقته ، لأن جبينها والقسم العلوى من خديها ، سطح واحد منبسط ، مغطى بالشعر على طريقة نساء تلك الحقبة ، والشعر مشدود إلى الأمام ، ومرفوع بعد ذلك في تموجات مجمدة تساقط في خصلات فوق أذنيها . أما قدها - وهو بديع التكوين - فن الصعب اكتشاف خطوطه بسبب المشد الذى تلبسه كعمادة معاصراتها ، وإن كانت من آنق النساء ملبساً في باريس . ويتسبب المشد في دفع ثيابها في تقوس كأنما لها معدة بارزة ، ومن تحت ذلك أذبالها المضاعفة . فزى النساء في ذلك العام يجعلن يدين كما لو كن مركبات من قطاعات سينة التناسق ؛ بالإضافة إلى تعقيدات في التفصيل والأنشوطات والأهداب ، في بهرجة وفي استقلال تام عن البنية الجسمية الحية التى تغدو إما مختنقة أو دفينه تحت هذه الملابس المعقدة .

ولكن بعد أن تغادره أوديت ، يفكر سوان باسماء في قولها له كيف تستطيل الوقت إلى أن يسمح لها بالعودة . ويتذكر الالهفة والحجل اللذين اقترنا ذات مرة بتوسلها إليه ألا تطول هذه الفترة : وكيف نظرت إليه عندئذ ، وقد ثبتت عليه نظرتها الخفية المتوسلة من تحت أزهار البنسيه الصناعية المثبتة في مقدمة قلنسوتها المستديرة المصنوعة من القش الأبيض ، والمربوطة بسيور من القطيفة السوداء . ثم أردفت هذه النظرة بقولها :

— أفلا تأتي أنت ذات مرة لتناول الشاي معي ؟

واعتذر متذرعاً بضغط العمل ، لإنجاز رسالة أو مقال — كان في الواقع قد تخلى عنه منذ سنوات — عن فرمير Vermeer . فأجابته قائلة :

— أنا أعرف أتى عديده للفائدة . وكالحويان الوحشى إلى جانبيه رجل عظيم عالم مثلك . فكأننى ضفدعة الأسطورة ! ولكنى أتمنى لو تعلمت منك أشياء كثيرة . فما أظرف أن أتحول إلى دودة كتب ، وأدفن أتنى في كومة من الأوراق القديمة . ولكنك ستضحك منى لأن هذا الرسام الذى يمتنع من زيارتى (تعنى فرمير) لم أسمع أنا به من قبل . ألم يزل على قيد الحياة ؟ أيمكننى أن أرى شيئاً من لوحاته في باريس ، كى يتسنى لى على الأقل أن أقول : « ها هو ما يفكر فيه » فما أعزه من حلم على نفسه أن أتمكن من مساعدتك في عملك . وقد نشد عنراً أو ذريعة لخوفه من إنشاء صداقة جديدة ، وقد

وصف هذا العنبر بأنه الخوف من عاطفة بلا أمل :: وقالت له بصورة طبيعية جداً وباقتناع تام تأثر بهما تأثراً حقيقياً :

— أنخسى الوقوع في الحب ؟ ما أدعى هذا للضحك ، في حين أننى لا هم لى إلا البحث عن الحب . ومستعدة أن أهب روى في سبيل العنبر على شيء من الحب في أى مكان ! ولا بد أن امرأة ما قد سببت لك العناء والعذاب ، فحسبت أن سائر النساء مثلها . لا بد أنها عجزت عن فهمك . ولا عجب ! فأنت شديد الاختلاف عن الرجال العاديين . وهذا ما أحبيته فيك عندما رأيتك أول مرة : فقد أحسست على الفور أنك لست مثل أى شخص آخر : وواصل هو كلامه قائلاً :

— ثم هناك ما يشغلك شخصياً . فأنا أعرف طبائع النساء ، ولا بد أن لديك كومة هائلة من المشاغل . لا تدع لك وقت فراغ : — أنا ؟ بل ليس عندى أى شيء يشغلنى : فوقى دائماً بلا شواغل ، وأنا دائماً غير مشغولة وسأكون دائماً رهن إشارتك لأن أردتني . وفي أى ساعة من الليل أو النهار يروقك ويلاصقك أن ترانى ، ابعث لى ، وسأكون سعيدة جداً بالقدوم إليك . أترك تصنع هذا ؟ أنعرف ماذا أتمنى أن أصنع أنا ؟ أن أقدمك إلى مدام فرديران ، حيث أذهب كل مساء . وتصور فرحى إذ أجدك هناك ، وأنتك إنما ذهبت لأجلى :

ولا شك في أنه إذ يتذكر أحاديثها على هذه الصورة ،

ولاذ يفكر فيها وهو وحده ، فهو إنما يستدعى صورتها في عداد من لا يحصى من النساء في أحلامه الرومانسية . ولكن إن حدث ظرف عرضي (أو حتى بدون ذلك ، فإن الظرف الذي يطرأ عندما تطفو حالة نفسية كامنة إلى السطح لا تأثير له إطلاقاً على تلك الحالة) فإن صورة أوديت دى كريسى تستوعب كل أحلامه . ولئن لم يتسن إبعاد ذكرها من هذه الأحلام ، فعيوبها الجسدية لن تكون لها أدنى أهمية . ولا ملاءمة جسدها أو عدم ملاءمته للنوقه ، لأنه غدا جسم من أحبا ، وبالتالي يتعين أن يكون الجسد الوحيد الكفيل باتقصاد سروره أو لهفته وكربه .

وقد اتفق أن جدى كان قد عرف أسرة آل فرديران ، ولكنه قد قطع تماماً كل صلة بمن كان يسميه « فرديران الشاب » لأنه رآه رغم احتفاظه بملايينه قد انزلق إلى حضيبض حثالة البوهيميين . وذات يوم تلقى رسالة من سوان يسأله هل له أن يعرفه بآل فرديران . وكان تعليق جدى عندما قرأها :

— الحذر ! الحذر ! لا يدهشنى البتة هذا الطلب ! فسوان كان من المتوقع أن يتزلق إلى هذا المستوى . يالهم من طغمة فاسدة ! لا يمكننى أن أجيب طلبه ، لأننى أولاً لم أعد أعرف هذا السيد فرديران . وثانياً لأنه لا بد أن تكون فى المسألة امرأة ، وأنا لا أندخل فى هذه الأمور . وسنرى العجب إذا بدأ سوان يجرى وراء آل فرديران الشباب .

ولما رفض جدى إجابة طلبه ، كانت أوديت نفسها هى التى أخذته إلى ذلك البيت . وكان على مائدة عشاء آل فرديران يوم ظهر هناك لأول مرة الدكتور كوتار وقرينته ، والموسيقى الشاب وعمته ، والرسام صاحب الخطوة ، ثم لحق بهؤلاء فى غضون الأمسية عدد آخر من « المخلصين » .

ولم يكن الدكتور كوتار متأكداً قط من اللهجة التى ينبغى أن يرد بها على أى ملاحظة ، ولا يفهم هل المتحدث يمزح أم هو جاد ، ولذا يزين سمعته دائماً بابتسامة غامضة تبرئه من تهمة الساذجة فى جميع الأحوال إذا اتضح أن العبارة التى وجهت إليه كانت على سبيل المزاح . ولكن لما كان من المحتمل أن يواجه أيضاً الأحاديث الجادة ، لذا لم يكن يسمح أبداً لابتنسامة أن يكون لها معنى محدد ، وكأنه يسألك دائماً « أتعنى ما تقول حقاً ؟ » . ولم يكن سلوكه فى الطريق العام يختلف عن سلوكه فى الصالونات ، لذا كان يشاهد فى الشوارع يحى المارة والغربان وكل ما يصادفه بابتسامة مأكرة .

ولكن حينما لاح له أن من الجائز توجيه سؤال عن موضوع يجهله ، كان لا يتردد فى تثقيف نفسه وإتمام تربيته عن هذا الطريق ، وهكذا كان — طوعاً لنصيحة أمه عندما جاء إلى باريس للمرة الأولى من الريف — لا يترك كناية أو اسم علم جديد على مسامعه ، إلا ويستقصى عنه غاية الاستقصاء .

وفى ما يتعلق بالكنايات والاستعارات كان طامعاً لا ينطق بالمعرفة ،

لأنه غالباً يتوهم أن لها معانٍ أشدّ تحديداً مما لها في الواقع ، فيسأل عن المقصود بالضبط من « حياة القط والفأر » أو « ملكة الموضة » أو « إطلاق الديدن » أو « الوقوع في مأزق » وما إلى ذلك ، وعن أى المناسبات بالضبط يجوز له استخدامهما في الحديث . وكذلك كان يكثر من ترصيع كلامه بالتلاعب بالألفاظ والتوريات التي تعلمها ، لاشيء إلا لكي يكررها لنفسه . وأما أسماء الأشخاص الجديدة عليه فيسأل عنها بغير إلحاح ، ليعرف شيئاً عنهم . وملكته النقدية المميزة لظلال المعاني والمقاصد خامدة ، لذا كان يأخذ كلام الناس على ظاهره الخرفي ولا يفهم مراميهِ البعيدة . ومع تعامى مدام فرديران عن عيوبه هذه ، إلا أنها كانت تضيق بها . وإن ظلت تظن به البراعة التامة . ومن أمثلة ضيقها به أنها دعت ذات مرة ليشاهد ويسمع ساره برنار Sarah Bernardt من لوج لصيق بخشبة المسرح وقالت له بتهديب ومجاملة (لأن هذا النوع هو أرقى الألواح) :

— إنه لكرم منك أن تأتي يا دكتور ، ولا سيما أنى متأكدة من أنك لا بد قد سمعت ساره برنار مراراً ، ثم إنى أخشى أن يكون اللوج شديد القرب من خشبة المسرح .
فإذا بالدكتور يقول بابتسامته الغامضة التي يقصد بها أن تكون حصة :

— طبعاً اللوج قريب أكثر مما ينبغي من المسرح ، ثم إن المرء سئم سماع ساره برنار . ولكنك أبديت الرغبة في حضوري ، ورغبتك

أمر : وإنه ليسرني أن أؤدي لك هذه الخدمة الهينة ، فأنت آية في الطيبة . (وبعد لحظة صمت) ساره برنار ؟ أليسوا يسمونها « صوت الله » ؟ وإنما أحياناً « تشعل النار في خشبة المسرح » : أليس هذا تعبيراً غريباً ؟ لماذا بالله « تقترف » هذا العمل ؟

قال ذلك بلهجة من يطلب تفسيراً لمعناه . ولكن مدام فرديران شغلها الغيظ عن الرد .

وبعد ذلك قالت مدام فرديران لزوجها :

— لا شك أننا نخطف حين نخط من قدر شيء جليل على سبيل المجاملة أمام كوتار : فهو عالم يعيش بعيداً عن حياتنا اليومية ، ويجهل القيمة الحقيقية لأى شيء ، ويصدق كل ما يسمعه حرفياً .

وأجابه مسيو فرديران :

— أنا لم أجسر قط على الإشارة إلى هذا . وإن كنت لاحظته عليه .

وفي يوم رأس السنة التالي ، بدلا من أن ترسل إلى الدكتور كوتار ياقوتة ثمنها ثلاثة آلاف فرنك مع الزعم بأنها « شيء تافه » ، اشترى المسيو فرديران جوهرة مزيفة بثلاثمائة فرنك وتركه يعتقد أنها شيء يعز وجود نظير له . ولما أعلنت مدام فرديران أنهم سيرون المسيو سوان تلك الليلة ، صاح كوتار باسم سوان في دهشة كدهشته لسماع أى اسم غريب . ولما وجد أنه لا أحد يعرفه بحقيقة هذا الاسم ، صاح بكل قلق :

- سوان ؟ من سوان هذا ؟

وسرعان ما ذهب قلقه عندما قالت له مدام فرديران :

- إنه صديق أوديت ، الذى حدثتنا عنه .

فقال الدكتور وقد هدأ روعه فى الحال : « هذا حسن إذن .

أما الرسام فقد استطار فرحه لتوقع ظهور سوان فى بيت آل فرديران ، لأنه استنتج أنه عاشق لأوديت .. وهو مستعد للمساعدة على لقاء العاشقين . وهمس فى أذن الدكتور كوتار أنه ما من شيء أحب إليه من الجمع بين رأسين ، وأنه بارع فى هذا مع النساء خاصة .

وعندما أخبرت أوديت آل فرديران أن سوان شديد الأناقة أفزعتهما لأنهما ظناه سمجاً مثل بقية المتأنقين . ولكن عندما جاء فعلاً كان وقفه ممتازاً ، وكان السبب غير المباشر فى هذا - وإن لم يدركاه - هو اختلاطه بأرقى المجتمعات . فالإشارات والإيماءات البسيطة التى تبدر من رجل المجتمع عندما يمد يده إلى الشاب المجهول الذى يقدمونه له ، وعندما ينحنى أمام السفير الذى يقدمونه إليه ، صارت طبيعة فيه من غير أن يشعر . بحيث إنه عندما يكون فى حجة طبقة اجتماعية أقل منه مثل آل فرديران وأصدقائهما يكون متفتح النفس متبسلاً بصورة لا يتصف بها أحد من أهل الغطرسة والأناقة السمجة . وإن كان قد تجمد لحظة واحدة لا أكثر عندما وقعت عينه على كوتار ، إذ رآه يغمض إحدى عينيه ويتسمم ابتسامته الغامضة قبل

أن يتبادلا الحديث . فقد خطر لسوان أن كوتار عرف من هو أو كان قد قابله من قبل فى مكان ما ، وربما أيضاً فى أحد البيوت « السيئة السمعة » ، وإن كان سوان لا يرتادها إلا فى القليل النادر ، لأنه لا يسع عادة ذلك « الحب التجارى » . ورأى فى ذلك التعريض الصامت فساد ذوق ولا سيما أمام أوديت ، التى قد يتغير رأيها فيه نحو الأسوأ ، ولذا تمص سوان معه عندئذ أشد ما يستطيعه من البرود . ولكنه بعد أن عرف أن السيدة التى يجوار الدكتور هى مدام كوتار أدرك أن مثل هذا الزوج الشاب لا يمكن أن يعتمد فى حضور زوجته وعلى مسمع منها أن يشير إلى تلك المباديل الرخيصة . أما الرسام فدعا سوان على الفور لزيارة مرسمه مع أوديت ، ووجده سوان لطيفاً جداً . وعندئذ قالت مدام فرديران لسوان :

- لعلك فى هذه الزيارة تخطئ برؤية صورة كوتار . (وكانت هى التى كلفت الرسام برسمها على نفقتها قائلة للرسام : « وخذ حنرك يا أستاذ بيش Biche . فأننا يهينى جداً أن تبرز ابتسامته الدكتور الفريدة . فإأطلبه أساساً هو صورة ابتسامته ! ») .

ولما كانت تعتقد أن عبارتها هذه جدية بالاهتمام فقد حرصت على تكرارها ، وجمعت بحيلة بارعة حولها حلقة الحاضرين قبل أن تكررهما . وطلب سوان أن يقدم إلى كل الحاضرين ، حتى ذلك الصديق القديم لآل فرديران المسمى « سانيت » Saniette ، الذى حرمه خجله وطيبته من كل تقدير يليق براعته فى دراسة النقوش

القديمة ، ويليق بثرائه العريض والأسرة الممتازة التي ينتمى إليها . وعندما كان يتكلم كانت الألفاظ تخرج من فمه مختلطة اختلاطاً لطيفاً لأنه يعبر عن مرحلة أقرب للطفولة التي لم تتجاوزها نفسه البرينة قط . فشفته عاجزان عن نطق كل الحروف الساكنة على وجهها الصحيح . وعندما طلب سوان أن يقدموه إلى سانيت إذا بالمسيو فرديران يعكس الأوضاع ويقول ضاغطاً على الحروف :

— يا مسيو سوان . اسمح لى أن أقدم لك صديقنا سانيت .

ومع هذا شعر سانيت لطلب سوان التعرف إليه بشيء كثير من الغبطة والعرفان ، وإن لم ينقل آل فرديران هذا الشعور إلى سوان ، لأن سانيت يضايقهما بوجوده ، ولم يكونا مبالين لإمداده بالأصدقاء الجدد . ومن جهة أخرى طلب سوان وألح في وجوب التعرف بعمّة عازف البيانو ... وكانت ترتدى ثوباً أسود ، كعادتها دائماً ، لأنها تعتقد أن المرأة تبدو دائماً على أحسن وجه في اللون الأسود ، وأنه لا لون أرقى وأتق من السواد . ولكن وجهها كان بالغ الحمرة ، كعادته أيضاً بعد تناول الطعام . وانحنت لسوان بكل إحلال ، إلا أنها لم تلبث أن شددت قائمتها بأفنة مبالغ فيها ! ولما كانت غير متعلمة على الإطلاق ، وتخشى أن ترتكب أخطاء في النحو والنطق ، لذا كانت تتعمد أن تتكلم دائماً بههمة مشوشة ، كى لا يتبين أحد عثرات لغتها ، وبذلك كان حديثها ههمة أشبه بالخرجة والتحنج ، التي قد تبرز من بينها المقاطع التي تظنها « مضمونة الصواب » . وظن

سوان أن بوسعه التندر بطريقة كلامها مع المسيو فرديران ، الذي لم يبد عليه السرور بذلك ، وقال لسوان :

— إنها امرأة ممتازة . وأنا أوافقك أنها ليست حادة الذكاء ، ولكنى أؤكد لك أنها تستطيع أن تتحدث حديثاً جذاباً جداً عندما تنفرد بها .

فأسرع سوان يصلح ما بدر منه قائلاً :

— أنا واثق بقدرتها هذه ، وكل ما عنيته أنها لم تترك في نفسي

الانطباع برقيها .

— على رسلك ! سيد هشك أن تعرف أنها بارعة في الكتابة . ثم ألم تسمع قط ابن أخيها وهو يعزف ؟ إن عزفه بديع ، أليس كذلك يا دكتور ؟ أتحب أن أطلب منه أن يعزف لنا شيئاً يا مسيو سوان ؟

وشرع سوان يقول بشيء من الطنطنة :

— سأعد نفسي في قمة السعادة وحسن الطالع !

وإذا بالدكتور يقاطعه ساخراً ، لأنه كان قد سمع ذات مرة ولم ينس قط بعد ذلك أن استخدام التراكيب والعبارة الرسمية في المحادثات العامة قد انتهى زمنه . فكان كلما سمع كلمة رنانة تستخدم بكل جد ، مثل كلمة « حسن الطالع » التي استخدمها سوان الآن ، اعتقد أن المتحدث يتعمد الحذقة ، أو ربما ظن الموضوع كله هزلاً ومزاحاً ، وشرع على الفور يكمل هذا التعبير بجملته من الجمل

المحفوظة على سبيل السخرية ، وهكذا قاطع سوان رافعاً ذراعيه إلى أعلى :

— من حسن الطالع لفرنسا !

فلم يتمالك مسيو فرديران نفسه من الضحك .

فصاحت مدام فرديران في تذكر الطفلة المدللة :

— ما الذى يضحك الأصدقاء الطيبين في هذا الركن هناك ؟

لا أحسبكم سعداء بأن أظل منعزلة في وجوم في مقعدى هذا الكاذبة !

وكانت مدام فرديران جالسة فوق مقعد سويدي عال من

خشب الصنوبر اللامع ، كان قد أهدها إليها عازف بيانو من أهل

تلك البلاد ، واحتفظت به في حجرة استقبالها ، مع أنه نشاز بشكله

المدرسى بين الأثاث العتيق الجيد الذى في الحجرة ، إلا أنها كانت

حريصة على إبراز هدايا « المخلصين » الذين كان من عادتهم أن

يقدموها إليها بين الحين والحين ، حتى يراها هؤلاء الواهبون إذا

ما أتوا إلى الدار . وكم حاولت إقناعهم بأن تكون هباتهم وهداياهم

على شكل أزهار وحلوى ، فهي أشياء تتمتع بمزية سرعة الفناء على

الأقل ! إلا أنها لم تنجح قط في هذا ، وهكذا امتلأ البيت بالتلويج

بمجموعة من دفايات الأقدام والوسائد وساعات الحائط والبارومترات

والزهريات . وهى كلها عديمة الجدوى وغير قابلة للفناء .

ومن هذا المكان العالى الذى يتجهم فوقه تشترك في أحاديث

« المخلصين » أو « الخلصاء » وتستمتع غاية المتعة بمزاحهم . ولكن

منذ حادثة التواء فكها ، كفت عن بذل مجهود الفقهية الشديدة

واكتفت بالحركات الوجهية الصامتة التى توحى بأنها « تضحك حتى

البكاء » . وعند أى سخرية لاذعة موجهة من أى عضو في المجموعة

إلى « المضجرين » أو ضد عضو سابق أحيل إلى قائمة المضجرين

والمتكلمين ... وعندئذ تطلق مدام فرديران صيحة ثاقبة وتغلق عينيها

الصغيرتين اللتين تشبهان عيني طائر ، واللتين بدأت تغشاهما آفة

(الكتاراكنا) المياه البيضاء ، ثم تدفن وجهها بين يديها كمن تتحاشى

النظر إلى شيء غير محتم أو تتجنب ضربة قاضية ، فلا تعود ترى

شيئاً على الإطلاق ، وتبدو كمن تمحو آثار ضحكة لو تركتها على

سجيتها لقصت عليها . وهكذا من يجتمعها العالى تستطيب مدام فرديران

— وكأنها عصفور مدلل في قفص — ما يتأثر من نكات الخلصاء ،

وتتجنب تلذذاً بشعور الصحة الطيبة وأنسها .

وفي هذه الأثناء كان مسيو فرديران — بعد أن استأذن مسيو

سوان في إشعال غليونيه (« فلا تكليف هنا ، وإنما نحن جميعاً رفاق

كما تعلم ! ») — قد ذهب ليرجو الموسيقى الشاب في الجلوس إلى

البيانو . فصاحت مدام فرديران :

— دعه وشأنه . لا ترجعه . فهو لم يأت لكى نعذبه . ولن

أسمع بتعذيه !

فرد عليها المسيو فرديران :

— ولكن لماذا يعذبه العزف ؟ أنا واثق بأن المسيو سوان لم يسمع قط السوناتا التي اكتشفها . وسيعزف لنا جزءاً منها بالبيانوفورت . فصاحت :

— لا . لا . لا . لا سوناتتي ! فأنا لا أريد أن أبكى إلى أن أصاب يبرد في الرأس ، وبالألم العصبي (النورالجييا) في كل وجهي ، كالمرلة الماضية . ألف شكر ، فلست أنوى أن أكرر ما حدث لي : وكلكم طيبون رقيقون ، ولكن ما من أحد منكم سيضطر للملازمة الفراش أسبوعاً .

وكان هذا « المشهد » الصغير ، الذي يتكرر تمثيله في كل مرة يجلس فيها الموسيقي الشاب للعزف ، يتمتع دائماً جمع الحاضرين ، كأنما كل واحد منه يراه لأول مرة ، ويرى فيه آية على أصالة ربة الدار وشدة حساسية « أذنها » الموسيقية . وبنه القريبون من مجتمهما البعيدين عنه والمنهمكين في التدخين أو لعب الورق في الطرف الآخر للقاعة ، بصياحهم وهتافهم ، كأنهم أعضاء برلمان سمعوا شيئاً يستحق الإعجاب ، وفي اليوم التالي يرثون لحال من فاتهم مشاهدة هذا « المشهد » ، مؤكدين لهم أن « المشهد الصغير » لم يؤد من قبل بمثل هذه البراعة والإمتاع .

ويقول مسيو فرديران :

— وهو كذلك إذن . في وسعه أن يعزف « الأندانت » فحسب ! فصاحت زوجته :

— الأندانت فحسب ! ما أعجب قولك ! كأنما هذه « الأندانت فحسب » ليست هي التي تحطم كل عظمة من عظامي : إن « الأستاذ » قد في عزفه ، أياً كان ما يعزفه . وما أشبه قولك يا عزيزي الأندانت فحسب ، بمن يقول عند ذكر السمفونية التاسعة : « لنأخذ نريد الخاتمة فحسب ! » أو « الافتتاحية فحسب ! » عند ذكر « مايستر سنجر » .

وتدخل الدكتور فرجا مدام فرديران أن تسمح بعزف البيانو ، لأنه يحسبها تمارض ، عند ذكر العواقب الوخيمة التي تحدثها الموسيقى لديها دائماً ، فالواقع أنه يعرف أنها مصابة بحالات هستيرية . بل لأنه جرباً على عادة الأطباء يرى تخفيف الخطر عن المريض في سبيل إنقاذ الاجتماع الساهر . وقال لها وهو يحاول السيطرة على أعصابها بنظراته المغناطيسية :

— لن تمرضى هذه المرة . تأكدي من هذا . وإن مرضت سنعنى بك ونشفيك !

فقالت مدام فرديران بنبهة من خصها الطب بحظوة خاصة فلم يسعها إلا الإذعان :

— أستشفي حقاً ؟

فقد اندمجت في أداء « المشهد الصغير » حتى أحست بصدق أنها عليلية ، والعليلات يجبن أن يعتقدن أحياناً أنهن يستطعن عمل كل شيء ممتع لمن ، حتى ولو تعرضن لتوابات العلة بعد ذلك ، بشرط

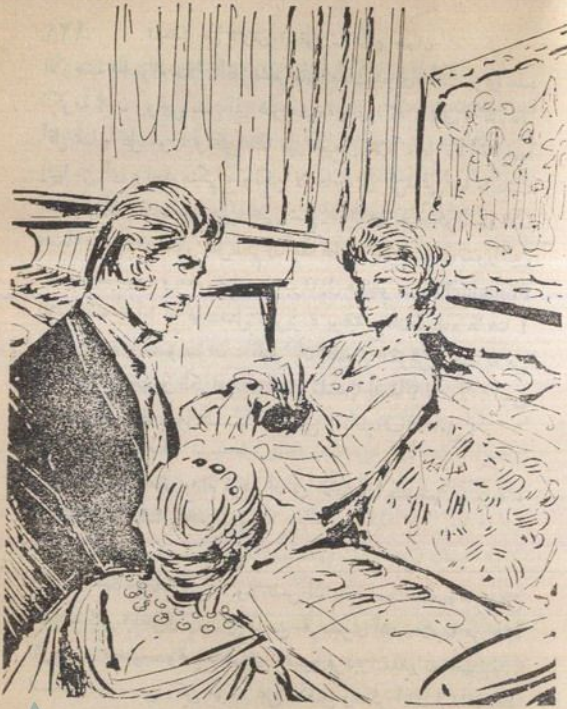
أن يضعن أنفسهن بين يدي « سلطة عليا » تستطيع وتريد بكلمة واحدة أو بابتلاع حبة دواء أن تقيمهن من فراش المرض . وكانت أوديت قد ذهبت فجلست على أريكة فوقها طنافس مطرزة قرب البيانو ، قائلة لمدام فرديران :
— ها أنا أحتل ركني الصغير الخاص . أليس كذلك ؟
وأبصرت مدام فرديران مسيو سوان يجلس بمفرده على كرسي ، فاستهضته قائلة :

— أنت لست مستريحاً تماماً هناك . اذهب واجلس بجوار أوديت . أفسح لي يا أوديت .
ووقف سوان يتأمل تطريز الأريكة قبل أن يجلس عليها ، مجاملة لربة الدار :

— ما أجد هذه « البوفيه » iBvcaus :

فأجابته مدام فرديران :

— يسعدني أن تقدر أريكتي . وأنترك بأنك إن حاولت رؤية مثيلة لها أن تتزع هذه المحاولة من رأسك . فاعادوا يصنعون مثلها الآن . وهذه الكراسي الصغيرة تحف نادرة هي الأخرى . ولونظرت إلى الرموز المتمثلة في النقوش النحاسية لوجدت كل رمز منها يشير إلى موضوع التطريز الذي يكسو المقعد . وهكذا يجمع المرء بين متعة الثقافة الفنية عند النظر إليها قبل الجلوس عليها . والنظر إلى تصميم الحواف وما عليها من رسوم ملونة : وإلى شجرة الكرم فوق هذه



الأرضية الحمراء مثلاً . أفلا تشعر بأن لعابك يجرى وأنت ترى هذه الكومة ؟ إن زوجي يظن أنى غير مغرمة بالفواكه ، لأنى أكل منها أقل مما يأكل هو ، ولكن هذا غير صحيح إطلاقاً ، بل أنا أشد نهماً إليها من أى واحد منكم ، ولكن لا حاجة فى الملء فى بها ما دمت أستطيع أن أكل منها بعينى حتى أشبع ! ما الذى يضحكون منه الآن جميعاً ؟ أسألوا الدكتور يقل لكم إن هذا العنب يقوم عندى بدور الملين الشديد الفاعلية . وبعض الناس يذهبون إلى فنتنبلو Fontainebleau للاستشفاء ، أما أنا فأستعمل تطريز « بوفيه » للاستشفاء ها هنا ! وعلى فكرة يا مسيو سوان ، ينبغى أن تتلمس النقوش المصبوبة من النحاس على ظهور الكراسى . أليس ملمسها بديعاً ؟ لا . لا . ليس براحة يدك كلها . بل تتلمسها كما ينبغى ! بأطراف الأناامل ! فقال الرسام :

— إن شرعت مدام فرديران فى الانشغال بنقوشها البرنزية ، فلن نحظى فى ليلتنا بأى موسيقى ! فاستطردت :

— صمماً أيها التعس ! ولا تنس أننا نحن النساء محرومات من ملذات كثيرة أخرى . ولكن ما من لحم بشرى أشد ملامسة من هذه اللوحات المعدنية . وعندما شرفنى المسيو فرديران بغيرته الجنونية .. اسكت يا زوجى وكن مؤدباً على الأقل وتذكر أنك لم تشعر قط بالغيرة !

— ولكنى يا عزيزتى لم أفصح فى . أنا أستشهد بك يا دكتور :

هل تفوهت بشئ ؟

وكان سوان — بدافع المجاملة المهذبة — قد بدأ يتلمس بأنامله ذلك البرنز ، فقالت له :

— هيا الآن . داعبه فيما بعد . أما الآن فسوف تداعب أذنيك الأنغام . وستحب هذا . وهاله السيد الشاب الذى سيقوم بهذه المهمة السامية .

وبعد أن قام الموسيقى الشاب بالعزف ، شعر سوان وأظهر مزيداً من الاهتمام به أكثر من اهتمامه بسائر الحاضرين ، للسبب التالى : فى السنة الماضية ، أثناء حفلة ساهرة ، كان قد سمع مقطوعة موسيقية معزوفة على البيانو والفيولينة . وفى البداية قدر مادة الأصوات الصادرة عن هاتين الآلتين فحسب ، فقد كانت مصدر متعة فاققة له ، ولا سيما حينما أخذت أنغام الفيولينة الرقيقة تتصاعد فإذا به يحس من تحتها فجأة بأنغام البيانو المتناغمة المتعددة الألوان ، كأنها جيشان البحر الأزرق العميق الذى يرقشه ضوء القمر ... ثم فجأة ، من غير أن يدرك كيف حدث هذا ، فاحت الأنغام بعبير الورد الذى عطر هواء المساء الندى ، حتى فغم الخياشيم . ولعل جمهله بالموسيقى هو الذى جعله يتلقى هذا الانطباع التصورى الغامض . وهو انطباع شفاف لا مادى ...

وهكذا ما كادت تخفت الأنغام وتتلأشى حتى كانت ذاكرته

قد وعت تأثيراتها الخلوية ، التي ترامت أمام عينيه وأحس أبعادها ورهافتها التي لم يكن يحلم بها قبل سماع هذه الأنغام . ولن تتخذ لديه هذه المتعة إلا عن طريقها ، فتثير لديه هذه الرغبة وتلك الأشواق الغريبة . وأحس كأنه رجل جلبت امرأة عابرة في لمح البصر إلى حياته صورة جديدة من الجمال ، ضاعفت ووسعت قوة إدراكه للجمال ، من غير أن يعرف هل سيتاح له أن يرى هذه الساحرة مرة أخرى أم لا ، ولكنه يعلم أنه عشقها بكل جوارحه ، وإن كان لا يعرف عنها شيئاً ، حتى ولا اسمها .

وظل شغف سوان بهذه المقطوعة الموسيقية على مدى عدة شهور يبيت في حياته إمكان تجديد شبابه . ومنذ ذلك الحين كف عن توجيه مساره إلى أى هدف مثالي ، واكتفى بالاستمتاع العابري السطحي ، معتقداً أنه سيظل على هذا الحال إلى أن يموت ، من غير أن يتسنى لأى شيء أن يغير منه . بل إنه منذ كف عقله عن الانشغال بمشغل عليا ، لم يعد يؤمن (وإن لم ينصرح بذلك علناً) بوجودها . وتعود أن يجد ملاذه في الخواطر السطحية التافهة ، التي أتاحت له أن ينمي جانباً الأمور ذات الأهمية الجوهرية . وكما كف عن سؤال نفسه أليس خيراً له أن ينقطع عن غشيان المجتمع ، مدركاً أنه ما دام قد قبل دعوة ما فلايد له من تليبتها ، ثم عليه إن لم يقم بعد ذلك بالزيارة ، أن يترك على الأقل بطاقته لربة الدار ، كذلك حرص في أحاديثه ألا يعبر عن أى رأى شخصي بحرارة في صدد أى شيء ، بل يكتفى

بدلاً من هذا بالإدلاء بالحقائق والتفصيلات التي لها قيمة في حد ذاتها ، وتعفيه من الكشف عن مدى ما يعرفه ويراه من آراء . ولذا كنت تجده دقيقاً في الوصف التفصيلي لطبخة معينة ، كدقته في تحديد تاريخ ميلاد و وفاة رسام وعناوين أعماله . ولكنه في بعض الأحيان قد يمتضى برغمه إلى حد التصريح بانتقاد لعمل فني ، أو نقد فهم شخص ما للحياة ، ولكنه في هذه الحالة يغلف ألفاظه بالسخرية ، وكأنه لا يؤيد شخصياً الرأى الذي يصرح به . ولكن ها هو تحت تأثير تلك المعزوفة الموسيقية أشبه بالمرضى الذي تغيرت حالته فجأة وكأنه شفى من علته العضوية تلقائياً وبلا مقدمات ، وقرر أن يعيش الحياة بنمط مختلف تماماً ، وكأنما انبث فيه روح قضت على جذب روحه ، فأحس من جديد رغبة جارفة في تخصيص حياته لهدف سام . إلا أنه لم يحاول قط أن يعرف من صاحب هذا العمل الذي سمعه يعزف ذلك المساء ، ولم يستطع الحصول على نسخة منه ، وكف في النهاية عن التفتى . والواقع أنه في غضون الأيام القليلة التالية لذلك الاستماع الأول المعجز قابل عدة أشخاص ممن كانوا معه في تلك السهرة وسألهم ، ولكن معظمهم كانوا إما وصلوا بعد انتهاء العزف أو انصرفوا قبله . وكان بعضهم في ذلك البيت أثناء العزف ، إلا أنهم كانوا في حجرات أخرى للحديث . ومن استمعوا للحن لم يكن لديهم انطباع أوضح من الباقين ، أما صاحب الدار فكل علمهما أن المعزوفة حديثة عهد بالنشر ، وأن الموسيقيين الذين

استأجراهم طلبوا السماح لهم بعزفها . ولما كانت هذه الفرقة تقوم الآن بجولة في الأقاليم ، لذا لم يتمكن سوان من معرفة المزيد عن اللحن . ولسوان بالطبع أصدقاء كثيرون من المهتمين بالموسيقى ، إلا أنه برغم شدة انطباعه الشعوري بالصور التي أثارها فيه اللحن ، إلا أنه عجز عن الدندنة لم بقطعة منه كي يعرفوه باسمه أو مؤلفه . وهكذا كف آخر الأمر عن التفكير فيه .

أما الليلة ، في بيت مدام فرديران ، فما كاد الموسيقى الشاب يبدأ العزف ، حتى فطن سوان إلى أن معزوفته الفاتنة في الطريق إليه ، من تحت غلاثل الأنعام الأولى ، وتوشك أن تغمره بعبيرها السحري الذي هام به حباً ، وكانت هي معزوفته الحبيبية فعلاً ، بفتنتها المتفردة التي لا يمكن أن يكون لها بديل . فأحس سوان كما لو كان التقى في قاعة استقبال صديق له بامرأة كان قد رآها من قبل وأعجب بها ذات مرة في الطريق ، وبئس من رؤيته إياها مرة أخرى ... وانسابت الأنعام تغمر بعطرها أنف سوان وتطبع على حياه ابتسامتها . ولكنه الآن - على الأقل - يستطيع أن يسأل عن اسم هذه الحسنة المجهولة ، فقبل له إنها حركة « الأندانت » من سوناتة « فانتى » Vinteuil للبيانو والقيولينة . وهكذا اطمأن إلى أنه صار يعرف مستقرها ، وسيكون في وسعه أن يسمعها مرة أخرى ، ويدرس في داره لغتها ويدرك كنه سرها .

وهكذا عندما انتهى العازف من عزفه عبر سوان الحجرة وشكر بحرارة سرت جداً مدام فرديران ، التي سألت سوان :
- أليست ساحرة ؟ أليس فهمه لهذه السوناتة مدهشاً ؟ لا أظنك كنت تتوقع أن يتمكن البيانو وحده من أدائها بالكامل (بدون فيولينة) . وإيم الله إن فيها كل شيء ما عدا البيانو ! إنى أقع ضحيتها في كل مرة أسمعها . وإخائي أصغى لأوركسترا . إلا أن هذا العزف أفضل في الواقع من أداء الأوركسترا ، وأكل منه .

وانحنى فوقها عازف البيانو الشاب وهو يحجب باسمًا وضاعطاً على كل كلمة من كلماته كأنه ينطق بحكمة فريدة :
- أنت في غاية الكرم من نحوى !

وبينا كانت مدام فرديران تقول لزوجها :
- إجر وأحضر له كوباً من عصير البرتقال ، فقد استحقه عن جدارة !

راح سوان يخبر أوديت كيف وقع في غرام تلك الجملة الموسيقية المعينة . وعندما صاحبت مضيفتها التي كانت على مسافة منها قائلة :
- يبدو لي أن « بعضهم » كان يقول أشياء لطيفة لك يا أوديت . أجابتها :

- نعم . أشياء لطيفة جداً .

فوجد سوان بساطتها هذه رائعة . وعندئذ طلب بعض المعلومات عن « فانتى » هذا ، وماذا أبدع غير هذه المقطوعة . وفي أي فترة

من حياته ألف هذه السوناتة . وأى معنى تمثله لديه هذه الجملة ؟
فذلك ما كان سوان يريد أن يعرفه .

ولكن ما من أحد من أولئك ممن زعموا أنهم معجبون بهذا
الموسيقار (فعندما قال سوان : إن السوناتة بديعة فعلا ، صاحت
مدام فرديران « أعتقد هذا ! بديعة فعلا ! ولكنك لا تجرؤ أن تقول
إنك تجهل سوناتة فانتى . فليس من حقلك ألا تعرفها ! » وقال
الرسام : « آه . نعم ! إنها قطعة بديعة جداً . أليس كذلك ؟ فهى من
النوع الذى لا يؤثر فى عامة الناس ولكنها بالغة الأثر فىنا نحن
الفنانين ! ») .. ما من أحد سأل نفسه تلك الأسئلة فيما يبدو ، لأنه
ما من أحد منهم استطاع أن يجيب سوان عنها .

بل على أثر ملاحظة خاصة من سوان عن هذه الجملة الموسيقية
المعينة علقت مدام فرديران بقولها :

— ما أغرب هذا ! أنا لم ألاحظها قط . فأنا لست ممن يحبون
التدقيق فى تفصيلات الأشياء من خلال الميكروسكوب .. كلا ! نحن
لا نغنى أنفسنا بالتدقيق الشديد فى هذا البيت . وقد تقول « ولم لا ؟ »
فأجيب إنها ليست عادتنا ، وهذا كل ما هناك .

قالت هذا ، بينما الدكتور كوتار يحدق فيها بإعجاب وهو فاغر
القم ، ويتعقب تنقلها بين عباراتها المسكوكة التى تريد بها الإبهار .
فالدكتور وقرينته — كما هوشان الأزواج ذوى المنبت المتواضع —
حريصان على عدم إبداء رأى أو التظاهر بالإعجاب بمعزوفة يقول

كل منهما للآخر عندما ينفردان فى بيتهما لإنهما لم يفهماها ،
ولا يفهما من الأستاذ بيش بعامة . فهما مثل سائر السوق ، ليس
لديهما الحساسية المتفردة التى تقدر الأصالة الفنية ، سواء فى سوناتة
« فانتى » أو لوحات بيش ، لأن هذه وتلك لا تمثل لديهما التناغم
الواضح فى الموسيقى أو الجلال السطحي فى الرسم . فكان يخيل إليهما
والموسيقى يعزف السوناتة أنه يضرب مفاتيح البيانو خيط عشواء
بلبل بحيث تخرج أنغام لا صلة فيها بينها أو بينها وبين الأشكال
الموسيقية التى يعهدانها . كما يعتقدان أن الرسام بيش يلطخ اللوحة
بالألوان حيثما اتفق . وإذا اتفق لما أن تبينا فى إحدى لوحات بيش
شكلا بشرياً ظنا الرسام جاهلاً بتشريح أعضاء الجسم ، كتركيب
الكف مثلاً ، أو أن شعر المرأة ليس فى العادة قرمزى اللون !

ومع هذا ، عندما تفرق « الخلاء » بعيداً عن مرمى الأذن ،
انتبه الدكتور كوتار هذه الفرصة ليقرب من مدام فرديران وهى
تثنى بعبارة أخيرة على سوناتة « فانتى » ، وبلهجة من يلقي بنفسه فى
الماء للسباحة على ملاء من الناس ، قال فى عزم :

— نعم ! الحقيقة أنه موسيقار من الطراز الأول :

ولم يستطع سوان أن يكتشف ما هو أكثر من أن آخر طبعة من
سوناتة فانتى أثارت اهتماماً كبيراً بين أشد الموسيقيين تقدماً ، ولكنها
لم تزل مجهولة لدى الجمهور العام . فقال سوان عندئذ ، وهو يفكر

في معلم الموسيقى المسن بكبير اى الذى كان قد تولى تعليم أخوات جلدتى :

— أنا أعرف شخصاً يسمى فانتى معرفة جيدة .

فصاحت مدام فرديران .

— لعله هو !

فانفجر سوان ضاحكاً وقال :

— أوه . كلا ! لو رأيته للحظة واحدة لما خطر لك ذلك :

ولما سأله أهو المؤلف ؟

فقال الدكتور :

— إذن توجيه السؤال يجب أن تسبقه معرفة الحل ؟

فقال سوان مواصلاً كلامه :

— ولكن من الجائز أن يكون بعض ذوى قرباه . وهو أيضاً

مستبعد ، ولكن ما المانع أن يكون لعبرى ابن عم أبله مسن . وإن

كان الأمر هكذا فلن أحجم عن استعمال كل وسائل التعذيب إلى أن

أجعله يقدمنى للرجل الذى ألف هذه السوناتة . ولو أن الحديث إلى

هذا الأبله أول درجة من درجات العذاب لى شخصياً .

والمح الرسام أن فانتى مريض فى هذه الأيام ، وأن الدكتور

بوتان Potain يائس من حياته .

فصاحت مدام فرديران :

— ماذا ؟ ألم يزل أحد من الناس يستدعى بوتان لعيادته ؟

فتكلف الدكتور كوتار الابتسام وقال :

— آه يا مدام فرديران ! إنك تنسين أنك تتحدثين عن أحد

زملائى ، بل ينبغى أن أقول عن أحد أساتذتى .

وكان الرسام قد سمع فى مكان ما أن فانتى مهدد بفقد عقله :

وأصر على أن بعض بوادر هذا الاختلال تلوح فى بعض مواضع

سوناته . ولم يدهش سوان لسماع هذه الملاحظة ، ولكنه تحير ، لأن

الموسيقى ليست كلغة الكتابة المترابطة منطقياً . ولذا فى نظره يكون

القول باضطراب فى الترابط الفكرى لسوناته أشبه بالقول بمنحوس

كلب أو حصان . وإن لوحظت حالات جنون فى الكلاب والخيول :

وقالت مدام فرديران للدكتور كوتار بلهجة المرأة التى لديها

شجاعة معتداتها ، ومستعدة للوقوف فى وجه أى شخص يخالفها

فى الرأى :

— لا تحدثنى عن أساتذتك . أنت تعرف عشرة أضعاف

ما يعرفه ! وأنت على الأقل لا تقتل مرضاك !

فابتسم الدكتور بسخرية مرة :

— ولكنه عضو فى الأكاديمية يا سيدتى . وإذا فضل مريض أن

يموت على يد أحد أمراء العلم ... فن الوجاهة بمكان أن يقول :

« نعم . بوتان يعالجنى » !

فقال مدام فرديران :

— أدعى للوجاهة . هه ؟ هناك هذه الأيام إذن موضوعات فى

الأمراض ؟ لم أكن أعرف هذا . آه ! كم تضحكتني ! (وأخفت وجهها بيديها) وها أنا كنت أتكلم بكل الجد ، ولم أفطن إلى أنك تفرري !

أما المسيو فرديران فوجد استئناف الضحك الآن عيناً باهظاً بمناسبة شيء تافه كهذا ، فاكثني بإطلاق حلقة من دخان غليونه ، وهو يفكر بأسى في عجزه بعد الآن عن مجارة زوجته في مرحها .

* * *

وعندما كانت أوديت تلتقي تحية المساء وهي منصرفة ، قالت لها مدام فرديران :

— لقد أحببنا صديقك كثيراً . فهو غير متكلف ، ولطيف جذاب . وإذا كان كل أصحابك الذين تريدن إحضارهم إلى هنا على شاكلته ، هاتهم بأى شكل .

ولاحظ مسيو فرديران أن سوان فشل على كل حال في تقدير عمة الموسيقى حق قدرها . فقالت مدام فرديران مدافعة عنه :

— أعتقد أنه أحس الغرابة والرهبة . فلا أظنك تتوقع أن يفتن إلى روح البيت لأول وهلة ، كما يفتن إليها كوتار مثلاً ، الذى ينتمى لعشيرتنا الصغيرة منذ سنوات . إن المرة الأولى لا تحسب ، فهى مستوعبة في مجرد النظر والاستكشاف . أحسبه يا أوديت أدرك أنه سينضم إلينا غداً في شاتليه Chatelet . ولعل الأفضل أن تمرى عليه كى تحضره معك .

— كلا ! إنه لا يريد منى هذا .

— لكن ، كما تشائين . بشرط ألا نخلدنا في آخر لحظة .

وما كان أعظم دهشة مدام فرديران من أنه لم يخلد قط ، بل كان ينضم إليهم حينما كانوا ، في مطاعم خارج باريس (ولأن لم يذهبوا إلى هناك كثيراً في البداية ، لأن الموسم لم يكن قد بدا بعد) وكثيراً ما انضم إليهم في المسارح التى كانت مدام فرديران مغرمة بها . وذات مساء بينما هم يتعشون في البيت ، سمعها سوان تشكو من أنها غير حائزة لتصريح يعفيها من مشاق الانتظار على الأبواب ، والوقوف في الزحام ، وقالت : إن مثل هذا التصريح لا شك مفيد لهم جداً في ليالى الافتتاح ، وعروض الأوبرا ، وكما أسفرت لعدم حيازتها لهذا التصريح في يوم جنازة جيمينا Gambetta . وكان سوان لا يتحدث أبداً عن أصدقائه المرموقين . ولكنه رغم ألفته وتردده على حى سان جيرمان (الذى يقطنه المليون) ، إلا أنه يعرف معرفة وثيقة كل كبار الرسميين في الجمهورية الثالثة ، وهكذا اندفع قائلاً بلا تفكير :

— سأتدبر هذه المسألة ، وأنا كفيل بها . وستحصلين على التصريح قبل احتفالات دانيشيف Danicheff . فسوف أتغدى مع مدير الشرطة غداً بالصدفة في الإليزيه .

فزار وهدر كوتار بصوت كالرعد :

— ماذا قلت ؟ الإليزيه ؟

فأجابه سوان ، مستشعراً بعض الحرج :

— نعم . لدى سيو جريني Grévy .

وسأل الرسام الدكتور كوتار في جد مصطنع .

— أمتعود أنت أن تنال منك الدهشة هكذا ؟

والقاعدة العامة ، أن الدكتور كوتار متى شرح له أحد ما أدهشه

قال :

— طيب . الأمر على ما يرام إذن .

ثم لا تظهر عليه أقل شائبة من الانفعال . ولكن كلمات سوان

الأخيرة هذه المرة بدلاً من تهدئته كالعادة ، زادت حرارة دهشته

على الفور إلى درجة الغليان ، لأنه اكتشف أن رجلاً هو نفسه يتعشى

معه على مائدة واحدة ، وليس له منصب رسمي ، ولا لقب من أى

نوع ، من بين زوار رئيس الدولة . فسأل سوان في غباء رجل

شرطة معين لحراسة القصر حين يرى شخصاً غريباً يحضر ويطلب

مقابلة رئيس الجمهورية ، ثم يكتشف حقيقة الزائر المخبول فيطمئنه

إلى أنه سيرى الرئيس فوراً ، ويدله على الطريق إلى حجرة استقبال

مستشفى شرطة القصر .

وقال له سوان :

— أنا أعرفه معرفة سطحية ، فلنا أصدقاء مشتركون (ولم يمرؤ

على أن يقول له إن أحد هؤلاء الأصدقاء المشتركين هو أمير ويلز ،

وإلى عهد بريطانيا العظمى) ثم إن الرئيس شديد التوسع في دعواته ،

وأؤكد لك أن مآذب غذائه ليست بهيجة إطلاقاً ، بل هى شديدة

للأساطة ، ولا يزيد الضيوف على المائدة عن ثمانية .

ومضى يتوسع في التقليل من شأن اتصالاته وعلاقته برئيس

الجمهورية ، في ضوء بهر عيني كوتار . وتوهم كوتار — على عادته —

أن أقوال سوان صادقة حرفياً ، فاعتقد أن دعوات المسيو جريني

لا يحرص عليها أو يسعى إليها أحد ، وأنها ترسل إلى كل من هب

ودب . ومنذ تلك اللحظة لم يعد يدهش إذا سمع أن المسيو سوان أو أى

أحد سواه « دائم التردد على الإنليزية » ، بل شعر ببعض الرثاء لمن

يذهب إلى حفلات غداء مملّة بهذه الصورة !

فقال الدكتور بلهجة موظف الجمارك الذى كان مرتاباً حتى

هذه اللحظة ، ولكنه بعد أن سمع تفسيراتك يختم جواز سفرك

ويتركك تواصل رحلتك من غير أن يعنى نفسه بتفتيش حقائبك :

— آه . عظيم عظيم . كل شيء على ما يرام إذن !

وقالت مدام فرديران التي لم تكن ترى في رئيس الجمهورية

إلا سمجاً مضجراً يستحق الأزدراء بصفة خاصة ، ما دام يملك رهن

إشارته وسائل الإغراء ، بل والإجبار ، التي لو استخدمت لاقتناص

« خصلاتها » من الممكن جداً أن يخذلواها :

— أستطيع أن أصدقك في أنك لا تجد هذه المآذب ممتعة .

والواقع أنها طيبة (تعنى تضحية) منك أن تقبل الذهاب إليها ! ويبدو

أن رئيس الجمهورية أصم ، ويأكل ليلاته وأيامه !

فرنت نبرة أسي ورتاء في صوت الدكتور، وهو يقول :

— بشرفي لا بد أن ذهابك إلى هذه المآدب يستمك كثيرًا ؛

ثم لفت نظره اقتصار عدد الجالسين إلى المائدة على ثمانية أشخاص ، فقال متسائلا :

— هل هذه المآدب إذن هي ما يسمونه حفلات « خاصة حميمة » ؟

ومهما يكن من زراية مدام فرديران وتواضع المسيو سوان في الحديث عن علاقته الحميمة برئيس الجمهورية ، إلا أن رئيس جمهورية فرنسا ظل شخصية مجيدة في نظر الدكتور كوتار ، ولذا لم يكن يجلس بعدها إلى المائدة مع آل فرديران من غير أن يسأل بلهفة :

— أتظنون أننا قد نرى المسيو سوان الليلة ؟ إنه صديق شخصي للمسيو جريني . أظن هذا يعني أنه ما يسمونه « جنتلمان » ؟

ووصل به الأمر إلى حد تقديم بطاقة دعوة لمعرض الأسنان إلى سوان ، قائلا له :

— هذه الدعوة تتيح لك الدخول أنت ومن معك . ولكن غير مسموح بدخول الكلاب . وأنا أقول لك هذا لأن بعض أصدقائي لم يكونوا يعرفون هذا ، وحدثت لهم متاعب .

أما المسيو فرديران فلم يفتحه أن يلاحظ ما أصاب زوجته من

ثبوت وكآبة عندما اكتشفت أن لسوان أصدقاء من ذوى النفوذ ، لم يكن قد حدثها عنهم من قبل .

وما لم يكن هناك اتفاق على الذهاب إلى مكان آخر ، ففي بيت آل فرديران كان سوان يجد « العشيرة الصغيرة » مجتمعة . ولكنه لم يكن يحضر إلا في الليل ، ولم يقبل قط دعوتهم لتناول العشاء ، برغم توسلات أوديت .

فاقترحت عليه أن تتعشى معه في أى مكان آخر وحدهما ، فقال :

— ولكن ماذا عن مدام فرديران ؟

— الأمر هين . ما على إلا أن أقول : إن ثوبى لم يكن جاهزاً ،

أو إن عربتي تأخرت في الحضور إلى هناك دائماً عنر جاهز .:— ما أظرفك !

ولكن سوان قال لنفسه : إنه إن استطاع أن يجعل أوديت تشعر (بقبوله الالتقاء بها بعد العشاء فقط) أن هناك مسرات أخرى يفضلها على صحبتها ، فسوف تكون رغبتها في لقائه بعيدة عن الوصول بسهولة إلى درجة التشيع — يضاف إلى هذا أنه كان يفضل على طراز جمال أوديت جمال فتاة عاملة تفضيلاً لا متناهياً ، فهي مليئة القوام ناضرة كالوردة يحبها بشراة . ولذا يفضل أن يقضى معها الجزء الأول من الأمسية ، وهو على يقين من تمكنه من رؤية أوديت بعد ذلك . ولعين هذا السبب لم يسمح قط لأوديت أن تزوره في بيته ، لتأخذه إلى بيت آل فرديران : وكانت الفتاة العاملة الصغيرة تنتظر — غير بعيد

من بابہ - عند ناصية شارع . وكان ريمي Rémi حوزيه الخاص يعرف أين يقف ، فتقفز الفتاة إلى جوار سوان ، وتطوقه بذراعيها إلى أن تقف العربية عند باب آل فرديران. ويدخل إلى قاعة الجلوس ، وبينما مدام فرديران تشير إلى الورد الذي أرسله إليها ذلك الصباح قائلة :
- أنا غاضية منك !

ثم تسير معه إلى المكان المحجوز له بجوار أوديت ، يعزف الموسيقى لها لا لأحد سواهما تلك الجملة الموسيقية الصغيرة من سوناتة فانتى ، التي كانت بمثابة « السلام الوطني » لهما . ويشعر سوان كم هي باطلة وجوفاء تلك السعادة التي تشير إليها تلك الأنغام ، ققى باطنها شعور خفى بالإحباط تبينه سوان مع تكرار العزف والسماع . ولكن ذلك لم يكن ذا بال في نظره ... فللسوناتة قيمتها الذاتية بصرف النظر عنه وعن أوديت وعن أى أشخاص معينين . وتحل عن فكرة استئجار موسيقيين محترفين لعزفها له في بيته بمفرده ، مع أنه لم يزل علمه بها منحصراً في تلك الجملة ، بعد أن قالت له أوديت :

- لماذا تريد بقبتها ؟ كل ما نحتاج إليه منها هو هذا الجزء الخاص بنا .

وقد يحدث أن يكون قد بقي في الخارج مدة أطول من المعتاد مع فساته الصغيرة ، قبل التوجه إلى بيت آل فرديران ، حتى أنه بمجرد أن يعزف الموسيقى الجملة القصيرة ، يكتشف سوان أن الوقت

حان كى تعود أوديت إلى بيتها . وكان من عادته أن يأخذها في عربته حتى باب بيتها الصغير في شارع لا بيروز La Pérouse ، وراء قوس النصر . ولعل هذا هو السبب - لكى لا يطلب احتكار الخطوة بها - في تضحيتها بمتعة رؤيتها في وقت مبكر من المساء (وهى متعة ليست جوهرية لديه) أو الذهاب معها إلى بيت آل فرديران ، وفي مقابل ذلك يستمتع بمغادرتها هذا البيت معاً ، وهو امتياز قابلته بالعرفان ، وصار هو يقدره تقديراً متزايداً ، لأنه ضمن بذلك أن أحداً غيره لن يراها بعد ذلك ، ولن يمنعه أحد من البقاء معها بروحه ، بعد أن فارقتها لقضاء الليل .

وهكذا ، ليلة في إثر ليلة ، بعد أن تنزل يقف هو عند البوابة ويغمغم :

- إلى الغد إذن !

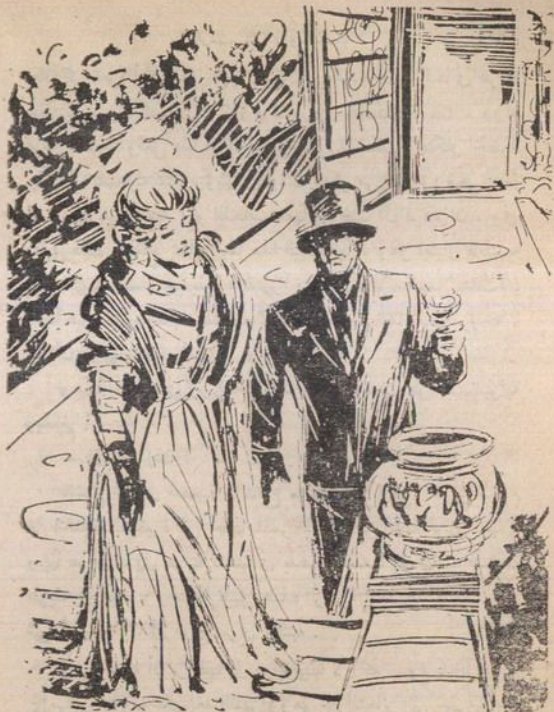
فكشيع عنه في عصبية واندفاع ، وتقطف زهرة كريس تيموم من الحديقة الصغيرة التي تحف بالممر المفضى من الشارع إلى بيتها ، وبينما هو عائد إلى عربته تدسها في يده . فيضمها إلى شفتيه طول طريقه إلى بيته ، وعندما تدبل هذه الزهرة يدخرها كأنما هى شيء ثمين جداً ، في درج سرى بمكتبه .

ومن عادته أن يرافقها إلى بوابة بيتها لا أكثر . ولم يدخل بيتها مرتين لتناول شاي بعد الظهر (وهو من الشعائر التي تهتم بها جداً في حياتها) . والواقع أن عزلة وإفقار هذه الشوارع القصيرة (التي

تتكون غالباً من بيوت منخفضة السقوف ، مستقلة ولكنها غير منفصلة ، متشابهة رتيبة لا يقطع رتابتها إلا حانوت صغير كتيب بين الحين والحين ، هو بقية أثرية من العهد الذى كانت فيه هذه المنطقة سيئة السمعة) وسط بقايا التلج العالق بالأشجار وأحواض الحدائق ، كل ذلك كان يضفى عنصراً من الغموض على الدفء والأزهار والرفاهة التى وجدها داخل بيتها .

وكان الطابق الأرضى لبيت أوديت مرتفعاً عن مستوى الشارع من الجهة اليسرى ، ومخدع أوديت يطل على خلفية البيت ، أى على شارع صغير آخر مواز للشارع الأمامى ، الذى به باب بيتها . وعند الدخول ارتقى سلماً محصوراً بين جدارين قاتمى الطلاء ، مزينين بطنافس شرقية ، ومسابع تركية ، وفانوس يابانى ضخم مدلى من السقف بجبل من الحرير (والفانوس مضاء بالغاز لكى لا يشكو زوارها من الافتقار إلى آخر وسائل المدنية الغربية) ويفضى هذا السلم الداخلى مباشرة إلى حجرى الاستقبال ، الكبيرة والصغيرة ، ولها مدخل صغير مزخرف يقوم مقام صوبة الحديقة الشتوية ، وأهم ما به صف من أزهار الكريز نتم الكبيرة ، التى كان حجمها يومئذ يعد ظاهرة جديدة ، وإن كان المستنبتون قد استنبطوا حجماً عملاقاً من هذه الزهور بعد ذلك . وكان سوان يضيق بمنظر هذه الأزهار هناك ، التى كانت فى تلك السنة « الموضة » الجارفة فى باريس :

وكانت أوديت قد استقبلته فى ثوب للشاي من الحرير الوردى



ومن عادته أن يرافقتها الى بوابة بيتها لا أكثر .
ولم يدخل بيتها الا مرتين لتناول شاي بعد الظهر .

يكشف عن عنقها وذراعيها . وأجلسته بجوارها في ركن من أركان الحجر الكبيرة ، تظلل أوراق النخيل النابت في أصص من الخرف الصيني ، وتجبط به ستائر ثبتت فوقها صور فوتوغرافية لمراوح وأنشوطات . وقالت على الفور :

— لست أراك مستريحاً هناك . انتظر لحظة . سأرتب لك كل شيء :

ودغدغت حلقها ضحكة تنبئ عن أنها ستقدم له ابتكاراً خاصاً بها ، ثم وضعت خلف رأسه وتحت قدميه سائد ضخم من الحرير الياباني ، غير مبالية بضمها الفادح . ولكن عندما جاء خادمها إلى الحجر حاملاً على التعاقب المصابيح التي لا تخصي (داخل أصص من الصيني) التي أضيئت أزواجاً أو فرادى فوق قطع الأثاث المختلفة وكأنها مذابيح مقدسة ، فبددت عتمة ما بعد الظهر المبكرة في أوائل الشتاء . وكانت عنها تراقب حركات الخادم ، شاعرة أن أي خطأ في وضع أي ضوء في غير مكانه المناسب سوف يفسد كل شيء ... ولا سيما أنها حريصة على سقوط الضوء على صورتها الزيتية القائمة على حامل مكسو بالقطيفة . وهكذا جعلت تتابع حركات الخادم ، وتؤنيه بقسوة عند أي خطأ ، أو أي احتكاك بأصص الأزهار ، وتهض لتؤكد من سلامة كل زهرة . فهي تجد سحراً خاصاً لكل حلية من تحفها الصينية ، وفي أزهار الأركيد بصفة خاصة (فهي الأثيرة لديها إلى جانب الكريز نيم) لأنها ذات منظر متفرد ، وكأنها

مصنوعة من الحرير أو الساتان . وقالت لسوان وهي تشير إلى الأركيد برنة لإجلال :

— إنها تبدو كما لو كانت مقصودة من بطانة ثوبي . وكأنها ترى في هذه الزهرة أختاً راقية ممتازة لها منحها إياها الطبيعة ، على تباعد رتبتهما في الوجود ، إلا أنها أجدر لرهاقتها من نساء كثيرات بالدخول إلى قاعة استقبالها . وعندما لفتت نظره إلى التنانين ذات الألسنة النارية المرسومة فوق إناء ، ثم إلى باقة من الأركيد ، ثم إلى تحفة من الفضة المطعمة ذات أعين ياقوتية ، كانت قائمة على رف موقدها ، تظاهرت بالإجفال من هذه الوحوش الخرافية ، ثم ضحكت من سخافتها ، وراحت تداعب تماثيل لضفدع وجمل مصنوعين من الخشب وتقبلهما في دلال وخفة . وهي خفة تناقض إجلالها لتمثال عذراء لاجيتو Laghetto التي شفتها ذات مرة من مرضها العضال عندما كانت مقيمة في نيس Nice ، وراحت تنسب لها كرامات لا حد لها .

وتولت بنفسها صب الشاي لسوان وسألته :

— ليون أم قشدة ؟

ولما أجابها باسماً :

— قشدة من فضلك . مقدار بسيط جداً .

ثم أثنى على دقتها الممتازة في وضع المقدار المناسب من القشدة ، فقالت :

— ها أنت ترى أى أعرف كيف تحب شايك أن يكون .

وبدا لها هذا الشاى — مثلما بدا لسوان — شيئاً ثميناً . والحب يحتاج إلى التماس ما يبرره ، وما يضمن استمراره فى ملذات ، لولا الحب نفسه لما كان لها وجود ، وتنقضى بانقضائه . وهكذا عندما غادرها فى الساعة السابعة ليذهب ويرتدى ثياب المساء ، ظل طوال الطريق إلى بيته جالساً منتصباً فى عربته ، عاجزاً عن كبح السعادة التى مألته بها مغامرة ما بعد الظهر ، وظل يكرر لنفسه :

— يا لها من متعة أن يكون لدى المرء امرأة صغيرة كهذه فى مكان يمكن للمرء أن يكون على يقين من حظوته بما لا يضمن وجوده فى مكان آخر ، وهو فنجان من الشاى المتنق .

وبعد ساعة أو نحوها تلقى رقعة من أدويت ، وعرف على الفور خطها المزخرف الذى يحمل آثار تعمد خطوط الإنجليز . ولعل صاحب فراسة كان قتيماً أن يجد فيه ما يدل على نقص فى التعليم ، ونقص فى الصدق والإخلاص والحسم ، وكان سوان قد نسى علبة سمائره فى بيتها ، فكتبت إليه تقول :

— لماذا بربك لم ترك هنا قلبك أيضاً ؟ عندئذ ما كنت لأعيده إليك !

ولعل الزيارة التالية — بعد الأولى بقليل — كانت أهم . ففى طريقه إلى بيتها راح يكون صورة لها فى ذهنه . وحاول أن يركز

انتباهه على عظمى وجنتها الناصرتين الورديتين ، التماساً لمواطن الجمال فيها ، وغض خياله عن تصور بقية خلدتها الشاحبين غالباً ، إلا إذا غطتهما البقع القاتمة أحياناً ، فيمتلىء فؤاده أسى لأن سعادة البشر ناقصة دائماً . وكان يحمل لها معه لوحة تحت طلبت أن تراها ، ولم تكن على ما يرام فى ذلك اليوم ، فاستقبلته فى دثار من الكريب دى شين البنفسجى المطرز بغزارة . ولما وقفت بجواره ودغدغت خده غداً شعرها المناسبة ، وحنّت إحدى ركبتيها لكى تميل لترى الصورة بدون عناء ، وراحت تحديق فيها بعينها الكبيرتين اللتين تبدوان مكدودتين غائرتين عندما لا يوجد ما يثبت فيهما الحيوية . عندئذ أدهش سوان أن يلاحظ وجه الشبه بينها وبين زبورا Zipporah ابنة جثرو Jothro ، التى يمكن مشاهدتها فى إحدى لوحات الفريسكو بكنيسة سكستين Sixtine . وكان يجد دائماً متعة خاصة فى تعقب أوجه الشبه بين رسوم الأساتذة الأقدمين وبين الملامح الفردية للرجال والنساء الذين يعرفهم . مثلما رأى مثلاً وجه شبه بين التمثال النصفى للدوج لوريدان Loredan من عمل أنتونيو ريزو A. Rizzo من حيث عظام الخد البارزة ، والحاجبين المائلين (وباختصار رأى شهماً ناطقاً بين تمثال الدوج) وبين حوزيه ريمى Ghirlandaio وفى أعمال أخرى التقط الشبه بين صورة لجيرلنداى Palancy ، وبين لوحة لتنتوريتو Tintoretto من حيث الأنف والنظرة النفاذة والأهداب المتوردة

وبين الدكتور دى بوبلون Boublon . ولعل هذا الاهتمام فيه تكفير عن فرط اهتمامه بالمجتمع على حساب الانغماس فى العناية بالفن: ولعله أيضاً احتفظ فى أعماقه باهتمام خاص بالفن الرفيع بحيث يجد لذة أصيلة فى مراقبة تلك التشابهات فى ملامح من يعرفهم . ومن هذا القبيل ما أدهشه من تشابه بين أوديت وبين « زبورا » من صنع أليستندرو دى مريانو A. de Mariano بحيث صار لإحساسه بملامح أوديت أقرب إلى الإحساس بأنها لوحة فنية تمثلها .

ووقف يحدق فيها ، فإذا بقايا من لوحة الفريسكو تلك ظاهرة فى وجهها وفى أطرافها ، وصار فيما بعد كثيراً ما يحاول أن يتأملها بلا توقف ، وهو مع أوديت أو حين يفكر فيها وهى غائبة عنه : وبرغم أن إعجابه بهذه الرائعة الفلورنسية ، ربما كان راجعاً إلى أن أوديت تماثلها ، إلا أن هذا زاد من قيمة جمال أوديت عنده وجعلها أثمن فى نظره . وصار سوان يؤنب نفسه منذ ذلك الوقت على تقصيره فى تقدير جمال مخلوقة كان سانندرو العظيم خليقاً أن يعيدها ، وعد نفسه مجدوداً لأن منعه فى تأمل أوديت صار لها مبرر من عقيدته الفنية . وقال لنفسه : إنه باختياره فكرة أوديت ملهمة لأحلامه بالسعادة المثل ، لم يكن ينحط بمستواه - كما كان يظن حتى تلك اللحظة - ما دامت تنطوى على ما يشبع أرهف أذواقه الفنية :: وفاته أن يلاحظ أن هذه الصفة فى أوديت لا تجعلها فى عداد النساء اللواتى يشتهين ، لأن رغباته واشتهاءاته كانت تجرى دائماً فى اتجاه مضاد

لذوقه الفنى . فكلما « الفن الفلورنسى » أتاحت له لقباً شريعياً يخلعه على صورة أوديت بحيث يدخلها إلى عالم الأحلام والأوهام الذى كانت حتى ذلك الحين محرومة من الدخول إليه : وفى هذا الإطار اكتسبت شكلاً جديداً بديلاً . وفى حين كان مجرد النظر إليها بلحمها ودمها يؤثر خيبة أملة فى مجموع بحاياها وقامتها وجمالها كله بحيث تبرد حرارة حبه ، إلا أن هذا القصور فى جمالها لم يلبث أن انجرف أمام استطاعته تقديرها على أساس متين من مبادئه الفنية لا من شهوته . وإذا بالقبلة أو الضمة التى كان يخالها لا تثير دمه ، وقد صارت تنويعاً لعبادته لرائعة فنية ، فهى ممتعة لذيدة بقدر ما هى خسارة للطبيعة .

وعندما خامره الندم لأنه فى الشهور الماضية لم يصنع شيئاً اللهم إلا زيارة أوديت جعل يؤكد لنفسه أنه لم يضع وقتاً هباء حين خصص معظمه للدراسة عمل فنى لا يقدر بمال ، وقد صب معدن جديد مختلف ومن نوع خاص فى سميره . لدراسة نموذج لا يضارع يتأمله حيناً بروح وعقل الفنان المتواضع التزيه ، وفى حين آخر يزهو وأنانية ونشوة المقتنى الشهوانى :

وعلى مكتبته - حيث يعمل - وضع صورة منقولة عن لوحة ابنة جثرو ، وكأنها صورة أوديت ، وينظر بإعجاب إلى العينين الكبيرتين ، واللامح الرقيقة ، وخصلات شعرها البديعة التى تنسدل على خديها المكدودتين ، ثم يلصق شعره نحو هذا الجمال الفنى بفكرة

امرأة حية ، ويتخيل لها مزايا جسدية بارعة ، ويهين نفسه على اجتماعها في شخص من سوف يملكها في نهاية المطاف ... وعندما يكون قد قضى وقتاً طويلاً وهو يحرق في عمل بوتشيلي Botticelli يتخيل إليه أن عمله حتى في أوديت ، فيزداد تقديره لملاحظتها ، وعندما يدنى منه صورة زبوراً يتخيل أنه إنما يضم أوديت نفسها إلى قلبه :

ومع تكرر فرص التلاقى كل ليلة ، لم يعد لدى أوديت جديد تقول له ، ولذا خشي أن يتسبب هذا المسلك - بعد المعاشرة - في تخريب أمله في علاقة رومانسية . مع أنه لن يغدو عشيقها ، ولن يظل عشيقها إلا إذا اعترفت بهواها المتقد له . ولكنها تبدو الآن هادئة هامة المشاعر في رتبة تقلقه . ولذا كتب إليها خطاباً حرص على أن يصلها قبل وقت العشاء . وكان يعلم أنها سترتاع ، وسرد عليه : وكان يأمل أن يستثير خوفها من فقدانه مشاعرهما الرصينة الهامة ، فتخط إليه كلمات لم يسمعها من قبل تخرج من فيها . وكان مصيباً : فبهذه الحالة حصل منها على خطابات الملتبة . وأحد هذه الخطابات (وكانت قد أرسلته إليه ظهراً مع رسول خاص من الميزون دوريه Maison Dorée في يوم الحفلة المقامة بيساريس لصالح ضحايا الفيضانات الأخيرة في ميرسيا Murcia) وقد بدأت بقولها : « يا عزيزى . إن يدى ترتجف حتى لأكاد أعجز عن الكتابة ... »

وقد احتفظ بهذه الرسائل في نفس الدرج الذى به أزار الكريز تيم

الذابلة . أما إن لم يتسع أمامها الوقت للكتابة ، فبمجرد دخوله صالون آل فرديران كانت تجرى إليه قائلة :

— عندى شيء أقوله لك !

وينظر بفضول إلى حيائها الذى يعبر عن مضمون كلماتها التى ظلت تخفيها عنه في قلبها . بل إنه وهو يقترب من باب آل فرديران ويرى مساحات الضوء الذى ترسله المصابيح من نوافذ قاعة الاستقبال التى لم تكن مصاريحها الخشبية تقفل مطلقاً ، كان يتأهب الشوق والحنين إلى المخلوقة الفاتنة التى سيراهما عند دخوله القاعة رافقة في هذا الضوء الذهبي . وهنا وهناك تبدو له أشكال وقامات الضيوف كالبقع السوداء التى تحول دون سطوع الضوء من النوافذ بأكملها : ويحاول وهو في الشارع أن يتبين قامة أوديت من بينهم . ومتى دخل تألقت عيناه بالسعادة والجور بلا وعى حتى أن المسيو فرديران قال للرسام :

— صم ! يبدو أن حرارته ارتفعت ؟

والواقع أن وجودها كان يضئ على البيت ما لا يتمتع به أى بيت آخر من البيوت التى يزورها . يضئ عليه نوعاً من الحساسية الملمسة والعصبية التى تنتشر في كل حجرة من حجراته ، وتبث الإثارة المتواصلة في فؤاده .

وهكذا تحولت « العشيرة الصغيرة » في بيت آل فرديران من كيان اجتماعي لدى سوان إلى سلسلة من اللقاءات اليومية مع أوديت، مما أتاح له أن يتظاهر بعدم الاكتراث برؤيتها، أو حتى عدم الرغبة في ذلك. ولم يكن هذا التظاهر ينطوي على مخاطرة كبيرة، لأنه في يوم تغيبه يكون قد كتب إليها رسالة أثناء النهار، يؤكد فيها ضرورة رؤيتها في المساء واصطحبها إلى بيتها.

ولكن ذات ليلة، ضاق ذرعاً بتلك الرحلة في عربته الممتعة معاً، فأخذ فتاته الأخرى حتى الغابة، لكي يؤخر بقدر الإمكان ظهوره لدى آل فرديران. وتأخر كثيراً في الوصول، حتى أن أوديت حسبت له أن يأتي ففادرت الاجتماع، وما إن رأى سوان القاعة خالية منها حتى اعتصر قلبه الغم، وشعر أن متعة كبرى فاتته، متعة بدأ الآن يدرك مدى شدتها وعمقها، وأدرك أن يقينه من الخطوة بها كل ليلة قد جعله يغفل عن أبعادها في نفسه وتنقص قيمتها في عقله الواعي:

وسأل المسيو فرديران زوجته:

— ألاحظت سمحتة عندما تبين أنها ليست هنا؟ أحسبه قد وقع في الحيلة!

وتساءل الدكتور كوتار عن معنى هذا الكلام، لأنه كان غائباً عن المكان لبعض الوقت كي يعود مريضاً، ثم رجع ليأخذ زوجته، فلم يعرف عن يتحدث الزوجان.

— إذن أنت لم تقابله على عتبة الباب وأنت قادم؟ أعني فخر آل سوان!

— لا: أكان المسيو سوان هنا؟

— لمدة لحظة واحدة، لمخناه فيها شديد الاضطراب متهبج الأعصاب. والسبب أن أوديت كانت قد انصرفت:

— أتعني أنها ذهبت معه إلى آخر الشوط؟ وأنها أحرقت مراكبها؟

— كلا بالطبع. ليس هناك شيء من هذا. الواقع — بيني وبينك — أظنها ترتكب خطأ جسيماً، وتتصرف ببلاهة وغفلة:

فعارض المسيو فرديران زوجته قائلاً:

— على رسلك! ما أدراك أن لا شيء من هذا بينهما؟ لإننا لم نكن معهما لنرى ما يحدث!

فأجابته مدام فرديران بأنفة:

— كانت خليقة أن تخبرني: فهي تقول لي كل شيء: ولما كانت غير مرتبطة بأحد حالياً، فقد قلت لها إنها ينبغي أن تعيش معه. وهي تزعم أنها لا تستطيع هذا. مع أنها تعترف بأنها كانت منجذبة إليه بشدة في البداية، إلا أنه شديد الخجل معها، وذلك يجعلها شديدة الخجل معه. ثم إنها لا تهتم معه بهذه الناحية كما تقول. فهو حب مثالي: أفلاطوني كما يقولون. وهي تخشى أن

تقضى على ازدهار هذا الحب . أوه : نصف كلامها لا أفهمه . وفي الوقت نفسه تقول إنه الرجل الذى تريده بالضبط !

فقاطعها المسيو فرديران بخدر قائلا :

— أستأذنك فى الاختلاف معك : فأننا لست راضياً عن هذا

السيد تمام الرضا ، لأنى أشعر أنه « متكلف » .

فتصلب كل جسم مدام فرديران ، وحدثت أمامها فى فراغ كأنما تحولت إلى تمثال : وهى حيلة تستخدمها للتظاهر بعدم سماع هذا اللفظ الكريه ، فهى لا تتصور أن يتجاسر أحد على أن « يتكلف » فى بيتها ... وقال زوجها :

— على كل حال ، إن لم يكن بينهما شيء ، فليس السبب أن « صاحبنا » يعتقد أنها مصونة العفة : ثم هو فيما يبدو يعتقد أنها ذكية . ولا أدرى هل سمعته أم لا وهو يحاضرها ذات أمسية عن سوان فانتى : ومع إخلاصى لمودة أوديت ، إلا أن طرح نظريات فى علم الجبال عليها يدل على أن الرجل مغفل من الطراز الأول .

فصاحت مدام فرديران بلهجة « الطفل المدلل » التى كثيراً ما تلجأ إليها :

— اسمع ! لن أسمع لك أن تنتقص من قدر أوديت : إنها فانتة !

— ليس هناك ما يمنع من أن تكون فانتة . ونحن لا نقول عنها

ما يشينها ، وكل ما قلناه عنها إنها ليست التجسيد الحى للفضيلة والعفة أو الثقافة :

ثم التفت إلى الرسام وقال :

— أمن الأهمية بمكان أن تكون عفيفة مصونة أم لا ؟ لعمرى إن فتنتها تنقص كثيراً جداً لو أنها كانت عفيفة مصوناً !

وعلى السلم وهو نازل قابل سوان كبير خدام آل فرديران (الذى كان بالخارج عند قدوم سوان) وأخبره أن لديه رسالة من أوديت كلفتها بتبليغها إليه (ولكن ذلك كان عند انصرافها منذ ساعة على الأقل) مؤداها أنها قد تذهب لتناول فنجان من الشكلاتة فى محل بريفو Prévost فى طريقها إلى البيت . وتوجه سوان من فوره إلى محل بريفو ، ولكن عربته كانت تتوقف فى زحام العربات أو المارة كل بضعة أمتار ، وهى عقبات كان يسعده أن يدهمها بعجلات العربات وسنابك الخيل ، لولا أن رجل الشرطة كان سيستوقفه عندئذ ويعطله مدة أطول ربما يحجر محضراً بالحدث . فقد كان يحصى الدقائق كالحصى ، تلهفاً على الوصول قبل انصرافها من محل بريفو . ثم تنبه لنفسه كمن يستيقظ من سبات كله أحلام ، وعجب من حاله ، فليس من عادته أن يكون على هذا النحو من التوتر العصبي منذ وصل إلى صالون آل فرديران وعرف بانصراف أوديت . فهذا الوجيب فى قلبه شيء طارئ عليه لا عهد به له من قبل ! ما هذا ؟ أكل ذلك الانزعاج مجرد أنه قد لا يرى أوديت الآن ، حتى الغد . مع أن هذا ما كان يتمناه وهو متوجه بعربته منذ أقل من ساعة إلى بيت

آل فرديران : واضطر للإقرار بأنه الآن ، وهو جالس في نفس
العربة ، لم يعد نفس الرجل وهو في طريقه إلى محل بريفو . بل ولم
يكن وحده ، بل كانت إلى جواره شخصية أخرى مندجبة فيه ، وقد
لا يتسنى له التخلص منها أبداً . ومع هذا ، شعر في هذه اللحظة الأخيرة
التي أحس فيها وجود هذا الآخر أن شخصية جديدة قد انضافت إلى
شخصيته ، فصارت الحياة أدعى للاهتمام وأشد طرافة على نحو ما .

وعبثاً راح يؤكد لنفسه أن هذا اللقاء المحتمل في محل بريفو ، قد
يتبين ، بعد كل شيء ، في حالة حدوثه ، أنه نسخة طبق الأصل
من سائر لقاءاتهما ، وليست له أهمية كبيرة . فكما يحدث كل ليلة ،
مضى صار في صحبة أوديت ، وبمجرد شروعه في النظر المختلس إلى
مخنتها المتغيرة ، يسرع بغض بصره أو الابتعاد به عنها حتى لا ترى
في عينيه أول أمارات الرغبة ، فلا تعود تصدق عدم مبالاته . ويكف
عندئذ عن التفكير فيها لانشغاله بالبحث عن ذرائع تتيح له
ألا يفارقها على الفور ، ويتذكر نفسه أنه بيقيناً سيجدها حيث هي
الآن في الليلة التالية ، ببيت آل فرديران .. وهي ذرائع تمكنه من
إطالة المكث وتجديد خيبة أمله في تلك المرأة التي تعذبه خيبة أمله في
حسنها ، والتي يمكنه أن ينالها ولكنه لم يجزؤ قط على معانقته .

ولم يجددها في محل بريفو : وكان لا بد له أن يبحث عنها في كل
مطعم مطل على البولفارات : وتوفير الوقت ذهب بنفسه في اتجاه
وبعث حوزيه ريمى في اتجاه آخر . وبعد أن خاب مسعاه وقف

حيث ينبغي أن تأتي العربة للقائه . وطال غياب العربة ، وداعت
الآمال في عودة ريمى ليقول له :

— سيدى . السيدة هناك .

أو ينتابه اليأس فيتخيله يقول له :

— لم أجد السيدة في أى مقهى .

وهكذا جعل يتأرجح بين العثور عليها أو العودة لبيته من غير
أن يراها هذه الليلة .

وعاد الحوذى : ولكنه ما إن وقف أمامه حتى قال سوان ، بدلا
من « هل وجدتتها ؟ » :

— ذكرنى غداً كى أطلب المزيد من خشب الوقود : فأنا
متأكد أن ما عندنا منه كاد ينفد !

ولعله كان قد أقنع نفسه أنه إذا كان ريمى قد وجد أوديت في
إحدى المقاهى ، وأنها تنتظره هناك ، فقد انتهت إذن ليلة عذابه بهذا
التحقق لأمنيته ، وبدأت ليلة فرح وسرور ، فلا حاجة به إلى التهافت
على سعادة صارت في متناول اليد ، ولن تفلت من قبضته . ولكن
وراء هذا المسلك أيضاً قوة القصور الذاتي المشاهدة عند بعض الناس
حتى في مواطن الخطر . ولعله لو بادره الحوذى بقوله :

— لقد وجدت السيدة .

كان قائلاً له :

— آه ! طبعاً . هذا ما أمرتك به . وقد نسيت ذلك .

أن يصحبها إلى البيت ، ثم تركه وهو يرتجف . ولم يكف عن إمعان النظر في هذه الأشكال الغامضة ، وكأنما هو يبحث في الظلمات عن روح هبطت إلى العالم الآخر ...

وطلب سوان إلى ريمى أن يذهب به إلى المطاعم التي لم تزل مفتوحة . فقد كان هذا هو الغرض الوحيد لتحقيق سعادته التي زاد إلحاح رغبته فيها . ولم يعد قادراً على إخفاء اضطرابه ، ووعد حوزيه أن يجزل مكافأته في حالة نجاح هذه المهمة . كأنما هذه الأمنية السحرية كافية لجعل أوديت التي لعلها أوت إلى فراشها منذ وقت طويل ، تنتفض جالسة في أحد المطاعم المطلّة على البولفارات . ومضى في بحثه حتى الميزون دوريه ، واندفع مرتين إلى داخل محل تورتوني Tortoni ، من غير أن تكتحل عيناه بمرآها . وكان خارجاً من مقهى الإنجليز زائف النظرات ليتجه إلى عربته التي كانت تنتظره عند ناصية بولفار الإيطاليين ، وإذا به يرتطم بشخص قادم من الجهة الأخرى . وكانت هي أوديت !

وقالت له فيما بعد إنها لم تجد مكاناً شاغراً في محل بريفو ، فذهبت لتناول العشاء المتأخر في الميزون دوريه ، وإنها كانت جالسة هناك في خلوة منعزلة ولذا لم يرها ، وإنها الآن بسبيل البحث عن عربتها . ولم تكن تتوقع أن تراه ، ولذا تراجعت في ذعر . أما هو فكان قد نقب في كل شوارع باريس ، لا عن اقتناع يجدوى البحث بل لأن ترك البحث كان أقسى عليه من أن يحتمله . أما الآن فكان

ثم يواصل بحث موضوع خشب الوقود ، لكي يخفى عن خادمه الانفعال الذي شعر به ، وليتيح لنفسه فسحة من الوقت للانفصال عن القلق وترك قياده للمتعة والفرح . ثم نصحه .

والواقع أن الحوذى عاد ليقول : إنه لم يستطع العثور عليها في أى مكان :

بدالة الخادم القديم :

— وأظن يا سيدى أن كل ما نستطيعه الآن هو العودة إلى البيت . ولكن مظهر عدم الاهتمام الذى كان من السهل على سوان أن يتخذه عندما قال له ريمى هذا القول نخل عنه تماماً ، كأنما صدمه أن يدعوه ريمى إلى التخلي عن الأمل والتراجع عن مواصلة البحث ، فصاح به :

— كلا بالتأكيد ! لا بد لنا أن نعثر على السيدة . هذا أمر في غاية الأهمية : فيينا موعده عمل ، وقد بغضبنا منى ألا تقابلنى الليلة ؟ — لست أفهم لماذا يمكن أن تغضب السيدة ، ما دامت هي التي انصرفت من غير أن تنتظر قدومك ، وهي التي قالت إنها ذاهبة إلى محل بريفو ، وإذا بها ليست هناك !

وفى هذه الأثناء كانت المطاعم قد أخذت في إقفال أبوابها وإطفاء أنوارها . وتحت أشجار البولفارات كانت هناك بقية من المتراضين ، تكاد تخفيهم العتمة . وبين الحين والحين كان يترأى لسوان شبح امرأة تدنو منه وتهمس في أذنه بكلمة ، أو تطلب منه

سروره الفجائي بادياً لا يمكن إخفاؤه ، وقد صارت - بعد بأس -
أمام عينيه ساطعة كأنوار الحقيقة :

وركب في إثرها عربتها التي كانت قد استبقته في انتظارها ،
وأمر حوذيته أن يتبعه بعربته الخاصة :

وكانت في يدها باقة صغيرة من أزهار « الكاتليا » ، ورأى سوان
تحت الدانتلا التي تغطي رأسها زهرات أخرى من نفس النوع مثبته
في ريشة بيعة . وكانت ترتدى تحت عبايتها ثوباً فضفاضاً من الخمل
الأسود . وعند فتحة العنق مزيد من هذه الأزهار . ولم تكن قد
أفاقت تماماً من صدمة وقوع بصرها فجأة على سوان ، عندما حدث
عائق جعل الحصان الذي يجسر العربة يخجل ، فدفع الراكبين إلى
الأمام ، وأطلقت صرخة ، ثم سقطت إلى الخلف وهي ترتجف مبهورة
الأنفاس . وراح يطمئنها قائلاً :

- لا بأس عليك . لا ترتاعى .

ودس ذراعه حول كتفها ، ليسند جسمها بجسمه ، ثم أردف :
- لا تتكلمى . يكنى أن تومئى بنعم أو بلا . وإلا انقطع تنفسك
مرة أخرى . ألدريك مانع من أن أثبت هذه الأزهار التي سقطت من
مكانها فوق صدرك . لن أزيد على تثبيتها كما يجب في مكانها .
ولم تكن قد تعودت أن تعامل بكل هذه الرسميات من جانب
الرجال ، ولذا ابتسمت وهي تجيبه :

- لا . لا مانع عندي إطلاقاً .



ولم تكن تتوقع أن تراه ، ولذا تراجعت في دعر .
أما هو فكان قد نقب في كل شوارع باريس ..

وصدمته إيجابتها ، وهتف بها :

— لا . لا . لا ينبغي أن تتكلمى . وإلا انقطع نفسك من جديد ،
يمكنك أن تجيبى بالإشارة . وسوف أفهم . أحقاً لا تمانعين ؟ ثم إن
بعض متك الأزهار (حبوب اللقاح) انسكبت على ثوبك . أسمحين
لى أن أنفضها بيدي ؟ لا أظننى ألتك ؟ لعلنى أدغدغك بعض الشيء ،
ولكنى لا أريد أن ألس المخمل حتى لا أدفعه فى عكس اتجاه وبره .
ألدليك مانع من أن أشم الآن هذه الأزهار وهى فى موضعها لأؤكد
من أنها تحتفظ بعبيرها ؟ لا أظننى شمت هذا النوع من قبل .
أسمحين لى ؟ قولى الحقيقة .

فهزت كتفها قليلا وهى لم تزل تبسم ، وكأنها تريد أن تقول :
— أنت لا شك معتوه . فأنت تعلم جيداً أنى أستطيع هذا .

ومد يده الأخرى فتحسس بها خد أوديت ، فثبتت عينها عليه
بتلك النظرة الجادة الفاترة الهمة التى تتميز بها النساء فى الصور
الفلورنسية القديمة ، والتى اكتشف فيها نمط سخنة أوديت . وكانت
عينها — مثل عيونهن — تكاد تسقط من وجهها لتندرج على خديها
وكانهما دمعتان كبيرتان ، وحت رقبها كما يحنين جميعاً رقابهن فى
تلك اللوحات ، سواء فى المشاهد الوثنية أو المشتقة من الكتب المقدسة .
ومع أن مسلكتها كان غريزياً وتلقائياً ، وبصورة تعلم هى أنها ملائمة
لثل هذه المواقف ، إلا أنها بدت كما لو كانت بحاجة إلى كل قواها
كى تعود بوجهها إلى الوراء ، وكأن قوة خفية تجذب وجهها إلى

أسفل نحو وجه سوان . وكان سوان هو الذى أمسك بوجهها لحظة
أطول على مسافة قليلة من وجهه قبل أن تسمح لوجهها أن يتكبد
على شفتيه كما لو كان هذا الانكباب رغم إرادتها . فقد قصد أن
يترك لعقلها فسحة من الوقت للتفكر فى حركات جسمها ، والتعرف
على الحلم الذى طالما حلمته ، ولكى يساعد على تحقيقه عن وعى
وتدبر . وكان عقلها أمّ دعيت لتشهد تقديم جائزة التفوق للطفل الذى
ربته وأحبته . ولعل سوان نفسه كان فى الوقت نفسه مركز الانتباه
على ملامح أوديت التى لم يتملكها بعد . بل لم يقبلها بعد ، وها هو
يتأملها الآن بنظرة شاملة مستوعبة كنظرة المسافر الذى يريد قبل
رحيله أن يحمل معه فى ذاكرته منظر القطر الذى لن يعود إليه .

ولكنه كان شديد الحجل وهو يقترب منها ، حتى أنه بعد تلك
الأسمية التى بدأت بتنسيق الأزهار على فتحة صدرها ، والتى انتهت
باستسلامها التام ، لجأ إلى نفس الذريعة فى الأيام التالية . فإن كانت
فى فتحة صدرها أزهار مثبتة قال لها :

— لسوء حظى البالغ أن الأزهار ليست بحاجة هذه الليلة إلى
تثبيت ، فلم تتبعثر كما حدث فى تلك الليلة ، ولكنى أحسب هذه
الزهرة ليست فى مكانها تماماً . أسمحين لى أن أؤكد من أن عبيرها
أشد من عبير الأزهار الأخرى ؟

أما إذا لم تكن فى فتحة صدرها أزهار ، فإنه كان يقول لها :

— أوه . لا أزهار الليلة . إذن ليس هناك ما أقوم بتنسيقته .

وهكذا لم يحدث تغيير في الإجراءات التي تلت تلك الليلة الأولى التي بدأ فيها بلمس رقبته بأنامله أولاً ، ثم بشفتيه . فكانت مداعباتهما تبدأ دائماً وبلا تغيير بهذا الاستكشاف المتواضع . وبعد مدة طويلة تقادم فيها العهد على شعائر أو طقوس تنسيق الأزهار على صدرها ، تحولت هذه العادة إلى كناية أو استعارة ، بحيث تعني عبارة « تنسيق الأزهار » في لغتهما الخاصة عملية الاتصال الجنسي ، وتذكرهما هذه الكناية بتلك الشعائر التي أملت بعد أن كانت مفتاح علاقتهم الجسدية . ثم إن هذه الطريقة الخاصة في التعبير عن « الاتصال الجنسي » ليس لها المعنى الحاد المحدد لمرادفها المعتاد . ذلك أنه مهما كان الاتصال الجنسي بكل أنواع النساء متشابهاً ، بحيث يمكننا وصف تفصيلاته مقدماً ، إلا أنه يغدو اتصالاً ناضراً ومتعة مثيرة إذا كانت المرأة المعنية مقترنة في تفكيرنا بأنها صعبة المنال - ولو في وهما فحسب - بحيث تحتاج إلى التدرج بالحيلة للوصول إلى امتلاكها ، كما فعل سوان بلريقة تنسيق تلك الأزهار . وارتجف وهو يأمل في تلك الأمسية الأولى (وإن قال لنفسه : إن أوديت إن اتخذت بحيلته وخبطته ، فلن تفهم أو تخمن مقصده منها) أن يصل إلى امتلاك تلك المرأة عن طريق هذه البتلات الزهرية الكبيرة الغنية بألوانها ، وبدأت له تلك المتعة التي شعر ببوادرها فعلاً وكأنها لم توجد من قبل ، لأنه هو الذي يكافح الآن لإبداعها ، فهي متعة متفردة بجذبتها ، لا بد له من ابتكار اسم خاص لها يحفظ عليها هويتها .

* * *

ومنذ تحطم الجليد بينهما ، صار كلما صحبها بعربته كل مساء إلى بيتها يتبعها حتماً إلى الداخل . وكثيراً ما كانت تخرج في ثياب نومها وروبوها لتشيعه إلى عربته ، وتقبله تحت بصر حوذيته قائلة :
- وما أهمية أن يرانا الناس ؟

وفي الليالي التي يتخلف فيها عن الذهاب إلى بيت آل فرديران (وهو ما صار يحدث أحياناً ، لتوفر وسيلة لقائه بأوديت في مكان آخر) وصار يذهب - بندرة متزايدة - إلى المجتمعات الراقصة ، كانت أوديت ترجوه أن يأتي إليها وهو في طريقه إلى بيته ، مهما كان الوقت متأخراً .

وكان الوقت ربيعاً ، والليالي صافية كثيرة الصقيع ، فيخرج من حفلة ساهرة ويثب إلى عربته المكشوفة ، ويغطي ركبتيه ببطانية ، ويقول لأصحابه الذين يلحون عليه أن يأخذهم معه إلى بيوتهم إنه لا يستطيع ذلك لأنه ليس ذاهباً في اتجاه منازلهم ، وعندئذ ينطلق الجودى بكل سرعة الركض بدون أمر يتفوه به سيده ، لعلمه سلفاً أين ينبغي أن يذهب . ويترك أصحابه متعجبين من أمره . والواقع أن سوان لم يعد الرجل الذي يعهدونه : فلا أحد منهم يتلقى الآن منه خطاباً يطلب تقديمه إلى امرأة . وكف عن الاهتمام بالنساء ، وصار ينأى بنفسه عن الأماكن التي توجد بها النساء عادة . وفي المطعم ، أو في الريف ، سلوكه الآن نقيض ما كان يعهده فيه أصحابه من سماته الدائمة الثابتة قبل بضعة أيام . وإلى هذه الدرجة يتجلى العشق فينا

وكانه طبع جديد متميز مؤقت ، يحل محل طبعنا المؤلف ، وينسخ أماراته . ومن جهة أخرى صارت لسوان عادة جديدة لا تتغير ، وهى أنه أيا كان مكان سهرته لا يمكن أن يغفل الذهاب بعدها مباشرة لدى أوديت . وبعد الشقة بين هذا المكان وبين بيتها لا يحول بينه وبين اجتياز هذه المسافة حتماً . والحقيقة أنه فى أحيان ، كثيرة عندما تمتد سهرته إلى ساعة متأخرة جداً ، كان يفضل لو ذهب إلى بيته فوراً ، من غير أن يقطع هذه المسافة الطويلة إلى بيتها ، مرجئاً لقاءهما إلى الغد ، ولكن إحساسه بما يتطلبه ذلك من جهد فى سبيل زيارتها ، وعلمه أن أصحابه يقولون عنه إنه صار مكبلاً تماماً بامرأة تصر على أن يزورها فى أى ساعة ، كل ذلك كان يشعره بأنه يعيش حياة تلك الفئة التى يلون الغرام حياتها ، بحيث يحس العاشق أن تضعيته براحتة ومصالحة الخاصة مصدر سحر روحى خاص .

ولعله لم يكن واعياً تماماً بهذا الإحساس ، ولكن علمه بأن أوديت تنتظره يقيناً ، وأنها فى بيتها وليست فى أى مكان آخر ، أو مع أى أحد آخر ، وأنه سيراه قبل ذهابه لبيته ، كل هذا كان يستل منه لذعة ذلك الكرب الذى انتابه ليلة ذهب إلى بيت آل فرديران فوجدها بارحته وراح يبحث عنها كالجنون . فاختفاء هذا الكرب والقلق كان أقرب شيء عنده إلى الشعور بالسعادة .

ولعل تلك الساعة من الكرب والقلق واللهفة هى مبعث ما صار لأوديت من أهمية كبرى لدى سوان : والآخرون ، عندما نكل إلى

واحد منهم سلطة تسبب التعاسة البالغة أو السعادة البالغة لنا ، يبدو لنا هذا الشخص كما لو كان متميماً إلى كون مختلف ، يكتنفه الشعر ولم يكن بوسع سوان أن يسأل نفسه بدون قلق ماذا يمكن أن تعنى أوديت فى الأجوام القادمة . وأحياناً ، عندما كان يرفع رأسه وهو فى عربته المكشوفة فى تلك الليالى البديعة الباردة من أوائل الربيع ، فىرى أشعة القمر تسقط بين عينيه وبين الشوارع المقفرة ، عندئذ كان يفكر فى ذلك الوجه الآخر المتألق مثل وجه القمر ، الذى طلع فى أفق عقله ذات يوم ، ومنذ ذلك اليوم وهو يسكب على الدنيا ذلك الضوء الغامض الذى يراها سابحة فيه .

وكان إذا وصل بعد الساعة التى ترسل فيها أوديت خدمها إلى مضاجعهم ، دار أولاً حول البيت وذهب إلى الشارع الخلفى قبل أن يرن الجرس المثبت عند بوابة حديقته الصغيرة . فعلى الشارع الخلفى تطل حجرة نومها . وتبدو له كل البيوت المتجاورة هناك متشابهة مظلمة ، ما عدا نافذة مخدعها المضاءة ، التى فى مستوى كتفه ، فيدق بخنقة على الزجاج ، وتسمع هى هذه الإشارة وتليها بصوتها قبل أن تجرى لمقابلته عند البوابة . ويجد على البيانو نوتات مفتوحة لبعض معزوفاتها المفضلة ، مثل « فالس الورد » و « الجنون المسكين » من موسيقى تليافيكو Tagliafico (وقد نصت فى وصيتها على أن تعزف فى جنازتها) ولكنه بدلا من هذه الموسيقى يطلب إليها أن تعزف له الجملة الموسيقية الصغيرة من سوناتة فانتى ... فهذه الجملة

لم تزل مقترنة في ذهن سوان بحبه لأوديت . وكان واعياً في الوقت نفسه أن صفات أوديت لا تكفي في ذاتها لتبرير ما يعزوه من قيمة للساعات التي قضاها في صحبتها . وكثيراً ما كان - عندما يعلو صوت العقل على كل ما عداه - يعتقد أنه ما كان ينبغي له أن يضحي بكل هذه الاهتمامات الثقافية والاجتماعية في سبيل هذه اللذة الموهومة . ولكن ما إن تصافح أذنيه أنغام هذه الجملة الموسيقية حتى تتغير النسبة بين ملكاته النفسية ، ويخلو في نفسه مكان لا يمكن أن تشغله لذة خارجية عدا حبه لأوديت . ولكن هذا الحب فريد في بابه ، لأنه يتخذ لديه قيمة موضوعية أعلى من حقيقة الأشياء الأخرى المحسوسة . وتوقف هذه الجملة الموسيقية لديه هذا الظمأ الأول لفنتنة لم يتذوقها بعد ، ولكن من غير أن تكفي بذاتها لإرواء هذا الظمأ .

فالواقع أن هذه الجملة الموسيقية تحمون نفسه كل اهتمام بالأمور الدنيوية ، وتترك صفحاتها خالية تماماً ، بحيث يتسنى له أن يكتب فيها اسم أوديت . وعندما تبدو عاطفته نحو أوديت مخفية للآمال بعض الشيء ، وتلتمح بجوهر هذه العاطفة . فن يرقب وجه سوان وهو مصغ لهذه الجملة يخيل إليه أنه يستنشق مخدراً يسمح له بالتنفس بمزيد من الحرية والعمق .. وإحساسه بهذه الجملة شبيه بما تحذثه في حسه تجاربه في إبداع العطور الجديدة من لذة عميقة . فهو لإحساس أقرب للراحة العميقة والانتعاش الغامض ، فكأنما قد صار مخلوقاً غريباً عن



وتوقف هذه الجملة الموسيقية لديه هذا الظمأ الأول لفنتنة لم يتذوقها بعد ، ولكن من غير أن تكفي بذاتها لإرواء هذا الظمأ ..

البشرية : مخلوقاً أعمى ، محروماً من ملكاته المنطقية ، فهو حيوان خرافى لا وعى له بالعالم إلا عن طريق أذنيه فحسب . وهكذا يطلب هذه الجملة الموسيقية المعينة كمن يتجرد من درع عقله ، ويغوص بأعماق سريره وروحه إلى أغوار عالم الصوت المظلم . وبدأ يدرك كم كان هذا مؤلماً ، بل كم يمكن تحت عبثية الجملة الكثير من الأسى الخفى والحزن الذى لا يخمد ، ومع هذا لم تكن هذه الجملة تشعره بالمعاناة أو العذاب . وما أهمية أن تكرر هذه الجملة كل مرة الإيحاء بأن الحب رهيف هش عابر ، بينما حبه هو بكل هذه القوة ! لقد كان يلهو ويتلهى بهذه السوداوية التى تشيعها الجملة ، ويشعر بها تكتنفه ، وتغمره بما يشبه المداخلة التى تعمق وتحلى إحساسه بسعادته . ويطلب من أوديت أن تعزف الجملة عشرة ، وعشرين مرة ، تبعاً ، مصرأ على أن تظل تقبله طوال قيامها بالعزف . وكل قبلة تثير قبلة تتلوها . وطبيعى جداً أن القبلات تنبرى للعبادة فى تلك الأيام الأولى من باكورة الحب . ويعجز العاشقان عن إحصاء قبلاهما فى ساعة واحدة من الزمان ، مثلاً يعجزان عن إحصاء الأزهار التى أنبتتا شهر مايو فى أحد المروج . ثم تتظاهر بالتوقف عن العزف قائلة : - كيف تريدنى أن أتمكن من العزف وأنت تحتضننى هكذا ؟ أنا لا أستطيع أن أصنع كل شيء فى آن واحد . استقر على رأى فيما تريده بالضبط . أتريدنى أن أعزف ، أم تريد أن تلهو معى ؟ وعندئذ يتضايق ، وعندئذ تنفجر ضاحكة ، ضحكة لا تلبث

أن تنهمر عليه بوابل من القبل ! أو تنظر إليه مقبلة متجهمة ، فىرى عندئذ وجهاً كان جديراً بأن يظهر فى لوحة بوتشيللى «حياة موسى» ، فيميل رأس أوديت ليأخذ الوضع المتسق مع هذه اللوحة . وينتشى حسه الفنى ، ويتذكر أن هذه الرائعة من روائع القرن الخامس عشر على حائط كنيسة سكستين ، كائن حتى موجود معه فى حجرة واحدة إلى جوار البيانو فى هذه اللحظة ، وعلى استعداد للتقبيل والمضاجعة ، فيستولى عليه من وجودها المادى المحسوس انشواء جارف ، ويلقى بنفسه مفتوح الفم ، جاحظ العينين ، فوقها كأنما يهم بالتهاهما ، ويقبل «عذراء بوتشيللى» ويعض خديها كما يشتهى .

وما إن يغادر بيتها ، حتى يعود ليقبلها من جديد ، لأنه نسي أن يأخذ معه فى طوايا ذاكرته إحدى تفصيلات ملاحظها أو نكهتها ، ثم وهو فى عربته يبارك قلبه أوديت التى سمحت له بهذه الزيارات اليومية ، وإن كان يشعر أنها لا تسبب لها سعادة كبرى ، ولكنها على كل حال تحصنه ضد حمى الغيرة ، أو ذلك الكرب الذى استبد به فى تلك الليلة التى وجدها فيها قد غادرت بيت آل فرديران . ويلاحظ وهو يتطلع إلى السماء أن القمر غير موضعه وكاد يلامس الأفق . ويخطر له أن حبه - مثل القمر - خاضع ولا شك لقوانين الطبيعة الثابتة ، فيسأل نفسه هل ترى هذه المرحلة من حبه مقدر لها أن تستمر طويلاً ، أم سيحين وقت قريب يلاحظ فيه عقله أن هذه السحنة الغالية صارت تشغل منه ضعفاً يقلل من فتنها ويعددها عنه : ذلك أن سوان صار

يجد في الأشياء ، كرة أخرى ، منذ وقع في الحب ، ذلك السحر الذى كان قد وجده وهو مراهق ، حينما خال نفسه فناً . وكل ما هناك من فارق بين الحالتين ، أن ما في الأشياء من سحر تضفيه عليها أوديت دون سواها . وها هو الآن يشعر بأن إلهامات صباه تستيقظ فيه ، بعد أن كانت قد تبددت بين تفاهاات الحياة . إلا أن هذه الإلهامات تحمل طابع كائن معين . وهكذا صار يجد لذة في قضاء ساعات طويلة في بيته ، في خلوة مع نفسه الناقهة ، فقد استرد نفسه ، ولكن في اندماج مع كائن آخر .

* * *

كان يذهب إليها في الليل فقط ، ولم يكن يدري شيئاً عن كيفية قضائها وقتها أثناء النهار ، كما لا يعرف شيئاً عن ماضيها : فما كان يعرف عنها كان من الضالة بحيث لا يتيح له أى أثر يتعقبه ويتخيل على أساسه ما يجهله ، أو يثير لديه الرغبة في المعرفة . ولذا لم يسأل نفسه قط ماذا عساها تصنع ، ولا كيف كانت حياتها . وكل ما هناك أنه كان يتيسم أحياناً عندما يتذكر أن أحدهم حدثه منذ سنوات - قبل أن يعرف أوديت - عن امرأة - إن لم نخنه ذاكرته - لا بد أنها أوديت ، وكيف وصفها بأنها « عاهرة » و « امرأة محزنة » ، أى واحدة من تلك النساء اللواتي كان يتصور - لجهله بهن - أنهن يتصفن بكل الانحلال الذى صورهن به بعض الروائيين على مدى سنوات طويلة ، حتى استقر ذلك في الأذهان : وعندئذ يقول لنفسه

إن على المرء كى يحكم حكماً منصفاً على أى أحد ، أن يأخذ الجانب المناقض لسمعة هذا الشخص عند عامة الناس . فأوديت تبدو له غاية في الطيبة والبساطة والتحمس للمثل العليا ، وتكاد تعجز عن الكذب ، حتى أنه عندما أحب أن يتعشى معها ذات ليلة على انفراد ، وطلب منها أن تكتب إلى مدام فرديران قائلة : إنها متوقعة ولذا تعتذر عن الحضور تلك الليلة . وأجابته إلى طلبه . ولكنه رآها في اليوم التالى عندما سألتها مدام فرديران هل شفت من وعكها ، تحمر خجلا ، وتلعثم ، وتفضح كذبتها بهذا الارتباك ، فأدرك كم يتنافى الكذب مع طبيعتها المستقيم .

وفي بعض الأيام - وإن كانت نادرة - قد تزوره بعد الظهر ، فتقطع عليه انشغاله ببحثه عن فرير الذى استأنف كتابته . ويقول له الخادم : إن مدام دى كريسي في الصالون الصغير ، ويذهب ليأتى بها ، وعندما يفتح الباب تطالعها بهذه الابتسامة الخاصة بها ، التى رآها لأول مرة ليلة سألها وهما في العربة أليديا مانع من أن يثبت الزهور في فتحة صدرها . ولما كان يجهل كل شيء عنها فقد تخيل حياتها صفحة بيضاء كأنها الخلفية المحايدة ، مثل اسكتشات واتو Watteau التى يرى المرء على صفحاتها ابتسامات شتى في كل ركن منها ، مرسومة بثلاثة ألوان .

ولكن صديقاً له فطن إلى علاقة الحب بينه وبين أوديت قال له ذات يوم : إنه رآها في الصباح . ووصف له قوامها وهي سائرة

على قدميها في شارع أباتوتشي Abbattucci لابساً كاباً وقبعة من طراز رمبرانت Rembrandt ، وعلى صدرها باقة من البنفسج ؛ فكان هذا الوصف البسيط كافياً لإشاعة البلبل في نفس سوان ، لأنه أدرك من خلاله فجأة أن لأوديت وجوداً ليس خاضعاً لوجوده كل الخضوع ، فتحرق شوقاً لمعرفة من ذا الذي كانت تسعى لفتنته بهذا الزى الذي لم يرها فيه قط . وآلى على نفسه أن يلح عليها كي تخبره أين كانت ذاهبة في تلك اللحظة . كأنما ليس في حياتها عدا ابتساماتها له والساعات التي تقضيها معه إلا هذا الحادث الواحد ، حادث سيرها بقبعة من طراز رمبرانت وعلى صدرها باقة من البنفسج .

* * *

وفيما عدا طلب سوان من أوديت عزف جملة « فانتى » الموسيقية الصغيرة . بدلا من « فالس الورد » ، لم يحاول سوان مطلقاً أن يغريها بعزف الأشياء التي يفضلها شخصياً . ولا حاول في الأدب أو الموسيقى تصحيح أخطائها الكثيرة في الذوق . فقد أدرك تماماً أنها لم تكن ذكية . وعندما قالت كم تود أن يحدّثها عن الشعراء الكبار ؟ توقع أن يبلّسها على أشد الصفحات رومانسية في الشعر ، على غرار أشعار الفيكونت دي بوريلي De Borelli ، أو ما هو أشد من ذلك تحريكاً للمشاعر . أما عن فرمير فقد اكتفت بسؤاله هل عانى هذا الرسام العذاب بسبب امرأة . وهل كانت له ملهمة من النساء . ولما قال لها

سوان أن لا أحد يدري بالضبط ، فقدت كل اهتمام بذلك الرسام ، وكثيراً ما كانت تقول :

— أنا على يقين أنه لن يكون هناك شيء يعادل الشعر بالطبع لو كان كله صادقاً ، وكان الشعراء حقاً مؤمنين بما يقولون . ولكن الراجح أنك لن تجد من هو أحسن ولا أكر من هؤلاء الناس ؛ أنا أعرف بعض الشيء عن الشعر . فقد كانت لي يوماً ما صديقة عاشقة لشاعر رديء ، لم يكن يتحدث في شعره إلا عن الحب والسماء والنجوم . فالتذمت فيه ! وتمكن من ابتزاز ما يزيد عن ثلاثمائة ألف فرنك منها قبل أن يتركها !

وإذا حاول سوان أن يريها كنهه الجلال الفني ، وكيف ينبغي للمرء أن يقدر الشعر أو الرسم ، كفت بعد دقيقة أو دقيقتين عن الإصغاء ، قائلة :

— آه . لم يخطر قط ببالى أن الأمر هكذا .

فيشير أن خيبة أملها عظيمة جداً ، بحيث يفضل بعد ذلك أن يكذب عليها ، مؤكداً لها أن ما قاله سابقاً ليس صحيحاً كله ، وأنه إنما مس الأمور مساً سطحياً ، وأنه لم يتسع أمامه الوقت للإحاطة بأطراف الموضوع . وعندئذ تقاطعه قائلة :

— أهناك ما هو أكثر مما قلت أيضاً ؟ .. أخبرني !

ولكنه لا يغيرها بشيء ، لعلمه أن ما سيقوله شديد الاختلاف عما تتوقعه وأقل إثارة وتحريكاً للمشاعر . ولأنه خشى كما خاب

أملها في الفن ، أن يخيب أملها في الحب ! وكانت النتيجة أنها وجدت سوان أقل ثقافة مما كانت تظن ، وكانت تقول له :
- أنت دائماً شديد التحفظ ، ولا أستطيع أن أفهمك :

وازداد عجبها من قلة اكترائه بالمال ، ومن تهذيبه مع الجميع على السواء ، ومن رهاقة ذهنه ... ثم كان هناك الاحترام الذي تشعر به أوديت نحو مركز سوان الاجتماعي ، وإن لم ترغب في أن يحصل لها على دعوات . ولعلها غالباً كانت تخشى إذا فاتح سوان أحداً في أمرها ، أن يستثير تصريحات غير مستحبة عنها . والواقع أنها قيده دائماً بوعده لها ألا يذكر اسمها لأي أحد إطلاقاً . وكان السبب الذي تذرعت به لعدم الرغبة في غشيان المجتمع ، كما قالت له ، شجار نشب بينها وبين فتاة أخرى منذ زمن بعيد ، وأن تلك الفتاة انتقمت منها بإشاعة أقوال فضيحة عنها . واعترض سوان بأنه لا يمكن أن يكون كل الناس من معارف هذه الفتاة ، فأجابته أوديت بأن كلمة السوء تنتشر مثل بقعة الزيت ، والناس في غاية السوء ! ولم يستطع سوان أن يقتنع بهذا الرأي العام عن الناس وعن كلمة السوء ، ولكنه في الوقت نفسه رأى أن شيوع هذا الاعتقاد دليل على صدقه أحياناً . أليس من الجائز إذن أن تكون حالة أوديت مما ينطبق عليه هذا الاعتقاد ؟

وجعل يغيط نفسه بهذا السؤال ، إلا أنه لم يمض في ذلك طويلاً ، لأنه كان فريسة ذلك الضغط النفسي الذي كان يرهق أباه من قبل ،

كلها واجهته مشكلة صعبة . ولعل ذلك المجتمع الذي ألهم أوديت بذلك الرعب ، ولم تكن تواقه لدخوله ، لبعده الشديد عن العالم الذي كانت تعرفه بالفعل ، بحيث يتعذر عليها أن تكون عنه فكرة واضحة . وفي الوقت نفسه كانت شديدة السذاجة في علاقاتها الاجتماعية (فهي مثلاً احتفظت بصداقة خياطة متواضعة ، تقاعدت حالياً عن العمل ، وتواظب على صعود سلمها المظلم الشديد الانحدار النتن الراحة كل يوم تقريباً) ، وفي الوقت نفسه كانت ظمآنة إلى مجارة أحدث الموضوعات ، مع أن فكرتها عن الموضوع لا تطابق فكرة الخبراء فيها فعلاً . فالموضه في نظر هؤلاء الخبراء تصدر عن عدد صغير نسبياً من زعمائها ، ومنهم تنتشر على أوسع نطاق من أصدقائهم وأصدقاء أصدقائهم ، الذين تكون أسماؤهم فهرستاً ثابتاً في المجتمع . وأهل « المجتمع » يحفظون هذا الفهرس عن ظهر قلب ، ولهم بهذا الموضوع دراية أكسبتهم ذوقاً خاصاً تلقائياً . فسوان مثلاً لا يحتاج إلى استنفار معرفته بالدنيا ، إذا قرأ في إحدى الصحف أسماء من كانوا ضيوفاً على مائدة عشاء ، بل يمكنه على الفور أن يستنتج من ذلك مستوى هذه المائدة . تماماً كما يستطيع رجل الأدب من مجرد قراءة عبارة واحدة أن يقدر بالضبط القيمة الأدبية للمؤلف . ولكن أوديت كانت من الأشخاص الذين لا معرفة لهم بهذه الناحية ، بل تتخيل الموضوع شيئاً مختلفاً تماماً ، وتتخذ مظاهر مختلفة على حسب الدائرة

التي ينتمى إليها الشخص . إلا أنها على كل حال متاحة لجميع الناس::
ولكن هناك في رأيها أماكن «وجيبة» :

ولو سألتها سوان ماذا تعني بهذا قالت ، بشيء من الزرابة :
— الأماكن الوجيبة ! عجب أن تحتاج في سنك هذه إلى من
يغبرك ما هي الأماكن الوجيبة في باريس ! ماذا تتوقع مني أن أقول ؟
في صباح يوم الأحد مثلاً هناك شارع الإمبراطورة ، وما حول
البحيرة في الخامسة بعد الظهر ، وفي يوم الخميس هناك مسرح عدن ،
وميدان سباق الخيل يوم الجمعة .. ثم هناك الحفلات الراقصة .
— أية حفلات راقصة ؟

— يا للغباء ! الحفلات الراقصة التي يقيمها الناس في باريس .
الحفلات الأنيقة طبعاً . انتظر قليلاً . لقد تذكرت مثلاً هربنجيه
Herbinger . وأنت تعرف طبعاً من أعني . إنه شخص يعمل في
أحد مكاتب السمسة الكبرى . نعم : طبعاً أنت تعرفه حتماً . إنه
من أشهر الناس في باريس ! شاب ضخم أشقر الشعر ، يمثال في
أفخر الثياب ، وهناك دائماً زهرة في عروته سترته وله معطف فاتح
اللون في ظهره كسرة ، ويظهر دائماً مع امرأة عجوز ، ويصحبها
إلى كل الليالي الافتتاحية . وقد أقام حفلة راقصة منذ بضع ليال ،
حضرها كل أهل الأناقة والوجابة في باريس . وكنت أحب أن
أذهب ! ولكن كان لابد من إبراز دعوتك عند الباب ، ولم أستطع
الحصول على دعوة من أي مكان . ولكنني في النهاية سررت لأنني

لم أذهب ، لأنني كنت حتماً سأوطأ بالأقدام من شدة الزحام ،
ولا أرى شيئاً . ومع هذا يكفي أن يقول المرء إنه كان حاضراً
حفل هربنجيه الراقص . وأنت تعرف كم أنا مغرورة . إلا أنه يمكن
أن توقن بأن نصف من قالوا إنهم كانوا هناك كذابون ... ولكنني
مندحشة من أنك لم تكن هناك . وأنت الوجهة الأمثل !

ولم يحاول سوان تصحيح تصورها هذا للأناقة والوجابة ،
لإحساسه أن تصوره لها شخصياً تصور خاطئ أيضاً ، ولا أهمية له ،
ولذا لم يجد جدوى للإفشاء به إلى عشيقته ، بحيث إنها بعد بضعة
أشهر لم تعد تبدي اهتماماً بالبيوتات التي يتردد عليها ، اللهم إلا عندما
تكون هناك وسائل لحصوله هناك على تذاكر تدخلها الحقول الملحقة
بأسطبلات السباق ، أو ليالي الافتتاح في المسارح . ففي هذه الحالة
كانت تمنى أن تستمر معرفته هؤلاء الناس وتنمو ، إلا أنها صارت
تعدم أقل وجابة منذ مرت في الشارع بالمركيزة دي فلباريزي
Villeperisis ورأتها مرتدية ثوباً أسود من القماش العادي وقلنسوة
ذات شرائط . فصاحت مستنكرة :

— ولكنها تبدو كالحادمة يا عزيزي ! أهذه مركيزة ؟ الله يعلم
أني لست مركيزة . ولكنك لابد أن تدفع لي مبلغاً باهظاً من المال
لكي أقبل الظهور في شوارع باريس بهذا الزي الزرى !

ولم تستطع أن تفهم سر استمرار سوان في السكن ببيتته على

« رصيف أورليان » Quai D'Orléans ، الذى كانت تعدده غير لائق به ، وإن لم تقل له هذا :

أجل لأنها كانت تزعم أنها مغرمة بالعاديات ، وتبدى النشوة البالغة وهي تعترف كم تحب أن تقضى طول النهار وهي « تنقب » فى محلات الأشياء المستعملة بحثاً عن أثاث ينتمى إلى « العصر المناسب » . ومع أنها كانت حريصة كل الحرص وبكل إصرار على ألا تجيب أبداً عن أى أسئلة أوتدلى بأى بيانات عن كيفية قضائها يومها ، إلا أنها حدثت سوان ذات مرة عن صديقة زارت بيتها بدعوة منها ، فوجدت كل شيء فيه ينتمى إلى « ذات العصر » . ولم يستطع سوان أن يستخلص منها أى عصر كان ذلك . ولكنها بعد لآى قالت : إنه العصر الوسيط ! واتضح بعد ذلك أنها تعنى أن الحوائط كانت مبطنة بالخشب . وبعد فترة من الزمن حدثته مرة أخرى عن صديقتها ، وأضافت - فى لهجة مترددة ولكنها واثقة كذلك اللهجة التى يتحدث بها المرء عن شخص قابله بمكان ما على العشاء ، ولكن أصحاب الدار كانوا يعدونه مشهوراً وذا شأن - إن حجرة مائدتها من القرن الثامن عشر . ولكنها كانت تعتقد فى الوقت نفسه أن شكلها بشع ، وعارية من الزخارف . وأن النساء كنَّ يبدن فيها فظيحات ، فلا شك أنها حجرة لا تنفق والذوق الأنيق أو الموضحة . وأشارت إلى هذه الصديقة مرة ثالثة حين أطلعت سوان على اسم وعنوان الرجل الذى صمم حجرة المائدة ، وقالت إنها تريد أن تستدعيه عندما يتوفر لديها

المال الكافى ، لتسأله أن يصنع لها مثل تلك الحجرة ! ليس مثلها بالضبط طبعاً ، بل حجرة فى مستوى إتقانها ولكنها أشبه بما تعلم به ، ولكن يبيتها الصغير لسوء الطالع لن يتسع لها ، لأنها تريد من طراز عصر النهضة الضخم الفخم ، وبمدفأة مثل تلك الموجودة فى قصر بلوا Blois . وفى هذه المناسبة صارت سوان برأيها فى مقره برصيف أورليان . قالت بلهجة ربة البيت البرجوازية :

- صديقتى لا يمكن أن ترضى مثلك بالسكن وسط كراسى محطة وأبسطة بالية !

وكانت تضع أصحاب الذوق فى انتقاء وتسقط الأشياء الجميلة ، ومن يعجبون بالشعر ، ويحتقرون حسابات الكسب والخسارة ولم مثل عليا فى الشرف والحب ، فى طبقة خاصة بهم ، أعلى من سائر البشرية . ولم تكن هناك حاجة فى نظرها للاحتفاظ بهذه الأذواق ، بشرط أن يستطيع المرء الكلام عنها باستفاضة . وعندما يقول لها رجل ما على مائدة عشاء : إنه يجب أن يجوب الأزقة ، ويغطفى الغبار والتراب يديه فى محلات الأثاث العتيق ، وإنه لا يكثرث بالعصور ذات القيمة التجارية ، تعود إلى بيتها وهو تقول :

- إنه لشخص رائع ، شديد الحساسية ! لم أكن أظنه كذلك !

ثم نحس نحوه بصداقة وثيقة ، ولكن من ناحية أخرى ، كان أمثال سوان ممن يملكون الذوق الرفيع فعلاً ولكنهم لا يشدقون به ،

لا يحركون عواطفها . وكانت تعتقد فعلاً أن سوان شديد المسخاة بماله ، ولكنها تردف ذلك بقولها متذمرة :

— ولكن ذلك ليس ما عنيت بالذوق الرفيع .

فما يجذبها ليس التزاهة ، بل التشديق بها !

ولما كان قد شعر بهذا ، وبأنه لا يستطيع أن يتيح لها المتع التي تحمل بها ، لذا كان يحاول على الأقل أن يكفل لها السعادة في صحبته ، بالأل يعارض أفكارها السوقية ولا ذوقها الفاسد الذي كانت تكشف عنه في كل مناسبة ممكنة ، وهو ذوق كان يحبه من أجلها لأنه لا يسعه إلا أن يحب كل شيء يصدر منها ، فعيوب المرأة المحبوبة تبرز تفردا أكثر مما تبرزه محاسنها ! وهكذا عندما تكون في حالة انتعاش لأنها ذاهبة لرؤية « الملكة توباز » Reine Topaze ، أو عندما تكون عيناها جادتين ومضطربتين إن خشيت التأخر عن معرض الزهور ، أو حتى لجرد التأخر عن موعد الشاي مع الفطائر والتوست في محلات الشاي بشارع « رويال » — حيث تعتقد أن تناول الشاي هناك بانتظام أمر لا غنى عنه ، لأنه يضمن على المرأة الشهادة المعتمدة بأناتها ووجاهتها ، عندئذ يستطير السرور سوان لهذه السذاجة ، مثلاً يستخفنا جميعاً السرور أمام مسلك طفل برىء ، ويقبل على عشيقته بكل مرح وبشاشة ، ليقول لها :

— أوه ! إذن أوديت الصغيرة تريد منا أن نأخذها إلى معرض الزهور . أليس كذلك ؟ وتريد أن يعجب بها الناس هناك ؟ وهو

كذلك ! سنأخذها إلى هناك ، فليس في وسعنا إلا أن نطيع رغباتها : ولما كان نظر سوان قد بدأ يضعف ، كان لابد له أن يلبس نظارة ، عندما ينكب على العمل في المنزل : أما عندما يواجه العالم فإنه يستخدم مونوكلا (نظارة زجاجية لعين واحدة) لأنه أقل تشويهاً للوجه . وعندما رأته لأول مرة بهذا المونوكل لم تتألم نفسها من شدة الطرب وضاحت :

— أعتقد أنه ، أعني بالنسبة لرجل ، شيء غاية في الوجاهة ! كم تبدو وسيماً به ! كل سنتيمتر فيك يقول إنك جنتلمان . وكل ما ينقصك الآن أن تحصل على لقب !

وكانت نبرتها في العبارة الأخيرة تفيض أمي وحسرة . وكان يجب من أوديت أن تقول هذه الأشياء ، تماماً كما كان يمتعه — عندما أحب فتاة من مقاطعة بريطانيا — أن تبدو في زيا المحلى ، وتقول إنها تؤمن بوجود الأشباح . وهكذا نجد أناساً كثيرين تنمو أدواقهم في الفنون الجميلة مستقلة تماماً عن حساسيتهم الشهوانية : ومن هنا كان هذا التفاوت الجسيم بين ما يرضى كلا النوعين من الذوق عند سوان ، حتى غدا ذوقه الفنى مع الأيام يزداد رهاقة في حين تزداد متعته بمصاحبة نساء يزدن مع الزمن أمية وسوقية . ولذا من الممكن أن تراه يأخذ خادمة يافعة إلى لوج له ستائر في مسرح تعرض به مسرحية منحطة ، أو إلى معرض للرسوم الانطباعية ، معتقداً أن إحدى نساء المجتمع الراقى ما كانت تريد عينا فهاً لتلك

اللوحات ، ولكنها ما كانت لتلتزم الصمت المريح المهذب مثل هذه الخادمة . أما الآن وقد عشق أوديت ، فقد تغير هذا كله ، وصارت مشاركتها ما تميل إليه مهمة محبة إليه ، حتى أنه صار يحاول أن يجد الرضا والمتعة في الأشياء التي تحبها هي . وصار لا يجد متعة ولذة في محاكاة عاداتها فحسب ، بل أيضاً في اعتناق آرائها . وهذه مسألة أخطر وأعمق ، لأن عاداتها وآراءها لم تكن نابعة من جذور في عقلها أو ذكائها ، ولكنه مع ذلك يعتنقها حباً لها هي ، وصار يفضلها على عاداته وآرائه شخصياً ! وهكذا صار يرتاد حفلات موسيقية معينة - لم تكن تخطر بباله - لمجرد مشاركتها في ذوقها . وصارت جاذبية اختياراتها أحب إليه من ارتياد الأماكن التي كان يحبها لجمالها الموضوعي ولكنها لا تذكره بأوديت . وكان مع نضجه قد صار شكوكياً ، يعتقد أن الموضوعات التي تعجب بها ليست لها قيمة مطلقة في حد ذاتها ، وأن المسألة كلها مسألة تواريخ ، ووجهات نظر ، وموضات متعاقبة . وأن أشدها سوقية لها نفس قيمة ما نحسبه غاية في الرفاهة . ولما كان قد قرر أن الأهمية التي تعلقها أوديت على تلقى بطاقات الدعوة لعرض خاص ليست في حد ذاتها أخف من المتعة التي كان يحسها يوماً ما في التوجه لتناول الغداء مع أمير ويلز ، لذا لم يعتقد أن إعجابها بمونت كارلو أو الريجي Righi ليس منافياً للمعقول أكثر من حبه شخصياً لولندة (التي كانت تخالها قبيحة) ، ولفرساي (التي كان تضجرها إلى حد البكاء) ، ولذا حرم نفسه

لذة الذهاب إلى تلك الأماكن التي يحبها ، معزياً نفسه بأنه إنما يريد ألا يشعر بشيء أو يحب شيئاً إلا ما تشعر به هي وتحبه .

ومثل أي شيء آخر من عناصر بيئة أوديت ، التي تتيح له أكبر الفرص للوجود معها ، صار سوان يستمتع بمجتمع آل فرديران ، بما يستتبع ذلك من كل حفلاتهما ، ومآدب العشاء ، والأمسيات الموسيقية ، والألعاب ، وحفلات العشاء المتأخر في ملابس تنكرية ، والرحلات إلى الريف ، والحفلات المسرحية ، بل والسهرات الموسعة النادرة التي يدعون إليها « السمجين » : فما دامت أوديت حاضرة ، ومرآها متاحاً ، والحديث معها ميسوراً ، فهو في غاية السرور لدعوة آل فرديران إياه إلى كل تلك المناسبات ، وإنه يشعر في هذه « الخلية الصغيرة » بمزيد من المتعة أكثر مما يشعر بها في أي مكان آخر ، وجعل يبتعد في تحمل وتوهم المزاي لكل عضو من أفرادها ، متخيلاً أن ذوقه سيحمله على التردد على مجتمعهم سائر حياته . ولم يجسر على أن يهمس لنفسه - حتى لا يداخله الشك - بأنه سيحب أوديت على الدوام ، وإن أوحى لنفسه أنه سيظل يتردد دائماً على بيت آل فرديران (وهو فرض لم يثر في البداية أي اعتراض من جانب ذكائه) وكان يخال نفسه دائماً مستمراً في مقابلة أوديت كل مساء . وإن كان هذا لا يعني بالضبط أنه سيكون دائماً عاشقاً لها :

ولكن ما دام في الوقت الحاضر يجب أوديت ، فلا محل لتخيل أنه سينقطع يوماً واحداً عن رؤيتها : وكان يقول لنفسه :

— يا له من جو خاص ساحر ، ذلك الذى يعيش فيه هؤلاء الناس بهذه الأصالة ! فهم أذكى ، وأكثر فنية من جميع من أعرفهم . ومدام فرديران (برغم مبالغاتها اليسيرة المضحكة) شديدة الإخلاص في حبها للرسم والموسيقى ! وكم هى مولعة بالأعمال الفنية ، وكم هى متلهفة على إدخال السرور على الفنانين ! وآراءها عن بعض الناس الذين أعرفهم ليست صائبة تماماً ، ولكن آراء هؤلاء الناس عن الأوساط الفنية خاطئة تماماً ! ولعل لا أهتم كثيراً بالمستوى الثقافى للأحاديث ، ولكنى سعيد جداً بالتحدث إلى كوتار ، برغم غرامه بالتلاعب بالألفاظ والتورية . أما الرسام ، فهو متكلف حين يحاول التفوه بالمفارقات ، إلا أنه من أحسن العقول التى التقيت بها ... ثم إن أهم شيء أن المرء يشعر بتمام حريته هناك ، بحيث يصنع ما يحلو له دون ضغط أو حرج . فما أشد المرح الذى يسود هذا الصالون كل يوم ! وأنا بالقطع لا أرغب في الذهاب إلى أى مكان آخر ، إلا في حالات استثنائية نادرة . وسيصبح ذهابي إلى هناك كل يوم عادة متأصلة لدى ، وسوف أقضى ما بقى من عمري في صحبتهم .

ولما كانت الصفات التى افترضها جزءاً لا يتجزأ من طابع جماعة فرديران ، ليست أكثر من انعكاس سطحي في الواقع للذة التى استمتع بها في صحبتهم لحبه لأوديت ، إلا أن هذه الصفات صارت

أكثر جدية وأشد عمقاً وحيوية مع زيادة هذه المتعة : فدام فرديران صارت تقدم لسوان ، بين حين وآخر ، الجوهر الأساسى لسعادته . ففي ذات ليلة شعر سوان بالقلق لأن أوديت تحدثت مع أحد أعضاء الندوة أكثر مما تحدثت مع سوان ، وبدافع ضيقه لم يظهر المبادأة كالعادة بسؤال أوديت أتود العودة إلى البيت ، وإذا بدمام فرديران تقوم بدور حمامة السلام وتسأل أوديت من تلقاء نفسها :

— أوديت ! ستوصلين مسيو سوان إلى بيته . أليس كذلك ؟ ولما حلت عطلة الصيف ، وكان يسائل نفسه أترى ستغادر أوديت باريس بدونى ، وهل سيتاح له في الصيف أن يراها كل يوم ، وإذا بدمام فرديران تدعوها معاً لتقضاء الصيف معها في الريف . وهكذا سمح سوان لهذا العرفان أن يتسرب إلى عقله وأفكاره ، وذهب إلى حد المناادة بدمام فرديران « نفسها عظيمة نبيلة ! » فلو حدث أن كلمه أحد رفاقه السابقين في مدرسة اللوفر للرسم عن فنان نادر مرموق ، لأجابه إنه يفضل مائة مرة آل فرديران ، وأكد له بجدية طارئة عليه :

— إنهما شخصان في منتهى الشهامة والسماحة ، والسماحة بعد كل شيء هى الصفة الوحيدة ذات القيمة الحقيقية على وجه الأرض . وفي رأي أن البشر نوعان : أهل السماحة فئة ، وسواهم فئة أخرى . وقد بلغت السن التى يجب أن أنحاز فيها لفئة منهما ، وأرى الفئتين أحبا وأبيها أكرهما ، بحيث ألازم من أحبهم وأعزّض الوقت الذى

أضعته مع غيرهم ، ولا أفارقهم ما حييت . لقد حسم الأمر ، وقررت ألا أحب سوى النفوس السمحة ، التي لا يمكن أن يرقى المرء إليها بدون سمو عقلى . فقدام فرديران بلا مراة ذات فهم عميق للفن . ولكن هذا ليس أروع صفاتها ، فكل لفظة وعمل ودى صغير صدر منها لأجل ، مهما بلغت بساطته ، ومهما كان مألوفاً ، يدل على وجود فيه شمولية أكثر من كل ما فى كتبك الفلسفية !

وكان من الممكن أن يذكر نفسه ، على كل حال ، بأن من بين أصدقاء أسرته القدامى من كانوا فى مثل بساطة آل فرديران ، وهم رفاق شبابه ، وكانوا مثلهما أيضاً من حيث الشغف بالفن . ولكنه منذ انحاز نهائياً للبساطة والفن والسباحة ، كف عن رؤيتهم ، ولكن هؤلاء الناس لا يعرفون أوديت ، ولو عرفوها لما فكروا أبداً فى تقديمها له .

وهكذا لعله لم يعد بين « خلصاء » آل فرديران من يحبهما بكل الإعزاز الذى يحبهما به سوان . ومع هذا فعندما قال مسيو فرديران إنه غير راض عن سوان ، لم يكن معبراً عن رأيه الخاص ، بل كاشفاً عن رأى زوجته أيضاً . أجل إن سوان كان يضمّر إعزازاً خاصاً لأوديت ، ولكنه لم يكشف بذلك مدام فرديران . وهذا التكمّم هو الذى جعله أحياناً كثيرة جداً يعتبر عن عدم حضور مادبة العشاء لديهما ، لسبب لم يخطر ببالها ، فى الوقت الذى يتلهف على عدم

رفض دعوة إلى بيت بعض « السمجين » ، ثم هناك أيضاً ما اكتشفاه تدريجياً - رغم تكتمه - عن مركزه المتألق فى المجتمع الراقى . فلا شك أن هذه العوامل مجتمعة أسهمت فى ضيقهما العام بإزاء سوان . ولكن السبب الأساسى كان مختلفاً عن هذا كله ، وهو أنهما اكتشفا لديه باباً موصداً لقسم من نفسه ، يؤمن فيه خفية أن أميرة ساجان ليست قطعية ، وأن نكات كوتار ليست مسلية . وفى عبارة أخرى ، اكتشفا استحالة فرض معتقديهما القطعية عليه ، وإدخاله حظيرة إيمانهما ، وكان فى وسعهما أن يغفرا له تردده على بيوت « السمجين » (التى يفضل عليها فى أعماق قلبه بيت آل فرديران و « خليلتهما الصغيرة ») لو أنه كان قدوة حسنة لغيره بنبذه هؤلاء « السمجين » وتنديده بهم أمام « الخلصاء » . ولكن هذه الردة كما يعرفان جيداً كانا عاجزين عن انتزاعها منه .

وما أشد اختلافه فى هذا عن « قادم جديد » طلبت أوديت إليهما أن يدعوا . مع أنها شخصاً لم تقابله إلا مرات قليلة ، وكانا يبنيان عليه آمالاً كبيرة ، وذلك هو « الكونت دى فور شفيل ! » Comte de Forcheville (واتضح أنه ليس أكثر ولا أقل من زوج أخت سانيت ، وهو اكتشاف مألج جميع الخلصاء بالدهشة : فسلك دارس النقوش القديمة كان متواضعاً جداً ، بحيث اعتقد الجميع أنه ينتمى إلى طبقة أدنى اجتماعياً من طبقتهم ، ولم يتوقعوا قط أن يعرفوا أنه ينحدر من عائلة ثرية و « أرسقراطية » نسبياً) . وطبعاً

كان فورشفيل صاحب المقام الرفيع الذى لم يكنه سوان ، وطبعاً ما كان ليحلم - مثل سوان - بوضع وسط فرديران فوق سائر الأوساط . ولكنه كان يقتصر إلى الرهافة الطبيعية التى منعت سوان من الانضمام إلى الانتقادات التى كانت توجهها مدام فرديران إلى من يعرفهم من الناس . أما عن التفرغ السوقي والمفتعل الذى كان الرسام ينغمس فيه أحياناً ، ومزاج التجار المتجولين الذى كان كوتار كثيراً ما ينساق فيه - فى حين أن سوان - الذى يحب كلا الرجلين بإخلاص - كان يجد لهما عذراً فيه ، من غير أن يجد الشجاعة للتصنيف له . أما فورشفيل فكان على مستوى ثقافى يسمح له بأن يذهل ويدهش لهذه المطاعن (من غير أن يفهم على الإطلاق مراميها) ويطرب فى الوقت نفسه لما فيها من فكاكة . وكان أول عشاء فى بيت آل فرديران حضره فورشفيل كافياً تماماً لإلقاء ضوء كاشف تماماً على كل ما بين الرجلين من اختلافات ، بحيث أبرزت مزايه لدى آل فرديران ، وأسّرت بالتقليل من حظوة سوان) :

وكان موجوداً على مائدة هذا العشاء ، إلى جانب المجموعة المعتادة ، أستاذ فى السوربون ، يدعى « بريشو » Brichot ، وكان قد التقي بمسعود مدام فرديران فى أحد أماكن الاستشفاء بالمياه المعدنية . ولولا أن واجباته فى الجامعة وأعماله العلمية الأخرى لا تترك له فراغاً كبيراً ، لسره أن يأتى لديهما مراراً كثيرة .. فهو من ذلك الطراز المتحرر فى نظراته إلى الحياة ، مع قدر من الشك فى موضوع ومجال

دراسته . وهو طراز يجعل من الأطباء كافرين بالطب ، ومن المعلمين كافرين بمجدوى التطبيقات المدرسية ، فيكتسب هذا الصنف من الناس سمعة الذهن المتألق وسعة الأفق . وكان يعتمد عندما يكون فى صالون مدام فرديران أن يختار أمثلة لآرائه من أبرز موضوعات الساعة ، عندما يتحدث عن التاريخ أو الفلسفة ، لأنه يعد هذين العلمين مجرد تمهيد للحياة نفسها ، وتخيل أنه يرى تطبيق ما تعلمه من الكتب حتى الآن فى ممارسات هذه « العشيرة الصغيرة » . وكان يجد سروراً فى توهّم خلع روب الجامعة عندما يتحدث بتحرر وبأسلوب الحديث العادى عن موضوعات حففلها وحشا بها دماغه منذ صباه . وفى مرحلة مبكرة من العشاء ، قال المسيو دى فورشفيل الجالس عن يمين مدام فرديران (التى كانت احتفاءً بالقادم الجديد قد عنيت عناية فائقة بزيئها) .

— كم هو طريف فى أصالته هذا الثوب الأبيض !

وكان الدكتور لا يحول عينيه عنه ، لشدة فضوله إلى معرفة طبيعة وخصائص رجل من الطبقة التى يسبق اسمها كلمة « دى » ، ويتلهف على فرصة يلفت فيها نظره ، كى يزداد اتصالاً به ، والتقطت أذناه كلمة « أبيض » ، فعلق على ذلك بتورية لفظية ليس لها مناسبة ولا طعم . فابتسم سوان ابتسامة مغتصبة تنبئ عن رأيه فى سخافة هذه التورية . أما فورشفيل فأبدى على الفور إعجابه بها ، فراق ذلك مدام فرديران . وسألت فورشفيل :

— ما رأيك في عالم على هذه الشاكلة ؟ إنك لا تستطيع أن تتحدث إليه حديثاً جاداً لمدة دقيقتين متتاليتين .

وأردفت ملتفتة إلى الدكتور :

— أهذا هو نوع الكلام الذى تقوله للناس في مستشفىك ؟ لا بد أنهم يستمتعون بالمرح هناك ، إن كان الحال هكذا . وهذا يغرينى بدخول مستشفىك كمریضة !

فقال أستاذ السوربون بريشو لمدام فرديران التى استبد بها السرور حتى أنها أغلقت عينيها بإحكام ، ودفت وجهها بين يديها ، ومن بينهما كانت تطلق صيحة بين الحين والحين :

— أظننى سمعت الدكتور يذكر اسم هذه النصابة الشريرة « بلانش دى كاستيل » Blanche de Castile . أليس كذلك يا سيدتى ؟

وراح الأستاذ يلقي بحثاً مستفيضاً عن الخفايا التاريخية لهذه المرأة ، فسأل فورشفيل ربة الدار :

— من هذا السيد ؟ يبدو أنه يتحدث عن خبرة عظيمة .

— ماذا ؟ أترید أن تقول إنك لا تعرف بريشو الشهير ؟ إنه ذائع الصيت في أوروبا بأسرها !

فصاح فورشفيل وهو يثبت عينيه الجاحظتين على ذلك الرجل الشهير :

— أهذا هو بريشو إذن ؟ ما أطرف أن يقابل المرء المشاهير

على مائدة العشاء . ولكنك يا سيدتى والله الحمد تحسنين تخير ضيوفك ، فلا يشكو أحد الملل في أمسياتك :

فقال لمدام فرديران بتواضع :

— الأمر وما فيه أن ضيوفى يشعرون هنا بالأمان . ففى وسعهم أن يتحدثوا عن أى شىء يخطر ببالهم ، فتنتطق الأحاديث كالألعب النارية . ولكن بريشو هذه الليلة ليس فى أوجه المعتاد . وقد رأيته فى مناسبات أخرى غاية فى التألق ، وعندئذ توشك أن تجثو على ركبتيك أمامه . ولكنه عندما لا يكون معى وحدنا لا يكون فى أفضل حالاته ، وتكاد تحتاج إلى جذب الكلام من فمه ، وربما بدا مملاً .

فقال فورشفيل بدهشة تناسب المقام :

— ما أغرب هذا !

وكانت نكات بريشو من نوع يبدو لسوان وخطائه فى باكورة حياته ضرباً من الغباء أو البلاهة الذهنية ، لو هن علاقتها بالذكاء الحقيقى . وقد تأثر سوان بمعاييرهم إلى حد أنه لم يستطع النظر بعين الرضا إلى مزاح بريشو ، الذى بدا له متحذلقاً ، وسوقياً ، وجلفاً بصورة مقززة . وقد صدمه أيضاً — وهو الذى ألف معاشر ذوى السلوك المهذب — ما لمسه من فجاجة تعبيراته التى تكاد تشبه لغة ثكنات المجندين ، أياً كان الشخص الذى يتحدث إليه .

ولعل سوان — أخيراً — كان قد نفذ صبره وهو يراقب لمدام

فرديران ترحب بكل هذه الحرارة التى لا يمر لها ولا ضرورة

بذلك المدعو فورشفيل ، الذى خطر لأوديت - لسبب لا يدريه - أن تأتى به إلى هذا البيت . وشعرت أوديت بالحرج بسبب وجود سوان ، فسألته :

- ما رأيك فى ضيقي ؟

وفجأة أدرك سوان للمرة الأولى أن فورشفيل ، الذى عرفه منذ سنوات ، يمكن بالفعل أن يجتذب امرأة ، وهو نموذج حسن للرجل ، فأجابها :

- شنيع !

وطبعاً لم يخطر له ببال أن يغار على أوديت ، ولم يشعر بالسعادة كعادة ، وعندما شرع بريشو يخبر الحاضرين بقصة أم « بلانش دى كاستيل » ، التى كانت حسب روايته « تعاشر هنرى بلنتاجنيه Henry Plantagenet سنوات طويلة قبل أن تتزوجه شرعاً ، ثم سأل سوان ليستدرجه للالتفات إلى حديثه :

- أليس كذلك يا مسيو سوان ؟

فاعتذر سوان بقلّة اهتمامه ببلانش دى كاستيل ، وانصرف إلى الرسم يسأله عن موضوع آخر . والظاهر أن سوان كان قد ذهب بعد ظهر ذلك اليوم نفسه إلى معرض رسوم فنان آخر ، وهو أيضاً من أصدقاء مدام فرديران . وكان هذا الرسم قد توفى منذ قليل . وأراد سوان أن يستفسر من الرسم الجالس بجواره (لأنه كان يقدر حصافته وحسن تمييزه) هل فى هذا المعرض الأخير ما يتجاوز

النبوغ أو المهارة والحذق اللذين لفتا أنظار الناس بشدة بالغة فى معارضه الباكرة :

وقال سوان باسمًا :

- من ناحية الحذق ، كان المعرض خارقاً للمعتاد ، ولكن لم يخيل إلى أن ما رأيته فى هذا المعرض شكل من أشكال الفن التى يمكن أن نسميها « رفيعة » :

فقاطعه كوتار رافعاً ذراعيه متصنعاً الوقار :

- رفيعة ... إلى مستوى المعهد العلمى !

فانفجرت المائدة كلها بالضحك ، وقالت مدام فرديران لفورشفيل :

- ماذا قلت لك ؟ مستحيل أن يكون المرء جاداً معه : فعلى حين غرة ، تبذر منه النكتة !

ولكنها لاحظت أن سوان ، دون سواه ، لم يضحك : فهو لم يكن مسروراً للغاية من أن كوتار أضحك الحاضرين عليه أمام فورشفيل . ولكن الرسام بدلا من الرد على سوان بطريقة تتمشى معه أو تثير اهتمامه - كما كان خليقاً أن يصنع لو أنهما كانا وحدهما - أثر أن يكسب إعجاباً سهلاً فى نظر الآخرين ، بالتنكيت على موهبة صديقهم الراحل . قال :

- لقد ذهبت إلى أحد معارضه ، مجرد مشاهدة صنعته ، ودسست أنفى فى لوحاته . ولكنى لم أستطيع أن أتبين أرسنها بالغراء ،

أم بالصايون ، أم بالشمع الأحمر ، أم بضوء الشمس ، أم النخمية ، أم البراز ! ... بل يبدو أنه لم يرسمها بشيء إطلاقاً ... أجل كانت رانحتها على ما يرام ، ويمكن أن تدبر رأسك ، وتجعلك تلهث ... ولكنك لن تعرف أبداً كيف رسمها ولا بأى شيء رسمها . إنه رجل ساحر ، أشبه بالخواة ، وعمله يبدو معجزة خارقة . ولكنه (وانفجر ضاحكاً) غشاش !

وفيا عدا اللحظة التي تلفظ فيها بكلمة « البراز » - وعندئذ ألقى فورشفيل نظرة مختلة على من حوله ليتأكد أن الأمر على ما يرام ، قبل أن يفتر عن ابتسامة مجارة محتشمة - كانت المجموعة كلها (اللهم إلا سوان) مثبتة أعينها بكل انتشاء على شفتي الرسام : وصاحت مدام فرديران ، عندما فرغ من كلامه ، وهي شديدة السعادة بأن أحاديث المائدة بلغت هذا الشأو البديع ليلة قدوم فورشفيل :

- كم أحبه عندما يخلق في الهواء على هذا النحو !
والتفت نحو زوجها قائلة :
- ماذا بك يا صاحبي الجالس هناك ؟ إنك فاغر الفم كأنك حيوان كبير !

واستدارت نحو الرسام ، وقالت :
- ولكنك تعرف أنه يحسن الكلام عندما يريد . ومن يراه الآن يحسبه يسمعك الليلة للمرة الأولى . ولو رأيته وأنت تتكلم لرأيته

يشرب كلامك شرب الظائم . وغداً سيعيد على مسامعنا كل ما قلته ، لا يغفل منه حرفاً واحداً .

فاتحج الرسام قائلاً ، وقد طرب لنجاح حديثه :
- لا لست مازحاً في الحقيقة ! كلكم يبدو عليكم أنكم حسبتموني أخضر ، أو أحوال خداعكم بأضحوكة - سأخذكم لتروا المعرض بأنفسكم ، وعندئذ ستعرفون هل كنت أهزل وأبالغ أم كنت جاداً ، ومستعد للرهان بأى شيء بأنكم ستخرجون من هذا المعرض وأنتم أشد مني حيرة !
فقالت مدام فرديران :

- ولكننا لم نخطر ببالنا لحظة واحدة أنك تبالغ . وكل ما هناك أننا نريد لك أن تكمل عشاءك ، وكذلك زوجي . (للخدام) أعط المسيو بيش سمكة موسى أخرى . ألا ترى أن سمكته بردت ؟ نحن لسنا متعجلين ، وأراك تندفع حول المائدة كأن حريقاً شب في البيت . تمهل قليلاً ، ولا تقدم السلطة الآن :

وكانت مدام كوتار امرأة خجولا ، لا تتكلم إلا نادراً ، إلا أن الثقة بالنفس لم تكن تنقصها عندما يسوق إليها الإلهام كلمة مناسبة ، وتحس أنها ستقابل بقبول حسن . وكانت تجد الشجاعة عندئذ للكلام لا رغبة في التألق ، بل رغبة في تحسين مركز زوجها . وهكذا لم تترك كلمة « السلطة » التي تفوهت بها مدام فرديران تمر بدون تعليق ، فهمست ملتقطة نحو أوديت :

— إنها ليست سلاطة يابانية . أليس كذلك ؟

ثم فاض سرورها الطفلى لتوفيقها فى مزج النكتة المحتشمة
لالتعريض الواضح بمسرحية المسيو ديما Dumas الجديدة اللامعة ،
فانفجرت فى ضحك فاتن طفلى ليس عالياً جداً ، ولكنه قوى عميق
بحيث انقضت فترة قبل أن تتمكن من السيطرة عليه .

وسأل فورشيل :

— من هذه السيدة ؟ إنها فيما يبدو ذكية بارعة .

فأجابته مدام فرديران :

— لا . إنها ليست كذلك . ولكننا سنحضر لك واحدة بهذه
الصفة إن جئت لتناول العشاء يوم الجمعة القادم .

وقالت مدام كوتار لسوان :

— إنك قد تظننى ريفية جداً يا سيدى ، ولكن أتعلم أنى لم
أذهب بعد لمشاهدة هذه المسرحية الشهيرة «فرانسيون» Francillon
التي يتحدث عنها الجميع . أما الدكتور فقد ذهب لمشاهدتها (وأتذكر
الآن لم كان استمتاعه بتضمينته الأسمية هناك معك) ويجب أن أعترف
أننى لا أجد من المعقول أن يتفق مالا ثمناً لمقعدين كى يصحبنى إلى
هناك . ما دام قد شاهد المسرحية بالفعل : أجل إن قضاء أمسية فى
« المسرح الفرنسى » لن تكون مضیعة للوقت أو المال : فالتثيل هناك
جيد دائماً . ولكن لنا نفراً من أطفاف الأصدقاء ، الذين لم لوج فى
معظم الليالى ، ويتكرمون بأخذنا معهم إلى كل المسرحيات الجديدة

التي تستحق المشاهدة . ولذا فأنا واثقة بأنى سوف أرى مسرحية
« فرانسبون » هذه إن عاجلاً أو آجلاً ، وعندئذ أستطيع أن أكون
عنها رأياً : ولكنى مع هذا أشعر بأنى مغفلة — وأنى أعترف بهذا
صراحة — كلما قمت بزيارة أحد هنا أو هناك ، وإذا بالجميع يتحدثون
— وهذا أمر طبيعى — عن تلك السلاطة اليابانية . حتى أن المرء بدأ
يميل سماع الحديث عنها :

ولاحظت أن المسيو سوان أقل اهتماماً مما كانت تأمل بمثل هذا
الموضوع الساخن ، ولذا استطردت قائلة :

— ولكنى لا بد أن أعترف أن طريقة مزاحهم حول هذا
الموضوع مسلية . فى مثلاً صديقة غاية فى الطرافة والأصالة ، مع
أنها امرأة جميلة جداً فى الواقع ، ومشهورة للغاية ، فى المجتمع ، وتذهب
إلى كل مكان ، وقد قالت لى إنها جعلت طباحتها تعد طبقاً من
السلاطة اليابانية ، ووضعت فيها كل ما قال المسيو ديما الشاب فى
مسرحيته أنك يجب أن تضيفه إليها . ثم دعت مجموعة من الأصدقاء
للحضور كى يتذوقوها . ويؤسفنى أن أقول إننى لم أكن من بين
هذه القلة القليلة المحظوظة ، ولكنها أخبرتنا بكل ما جرى فى يوم
« استقبالها » التالى ، إذ يبدو أن هذه السلاطة كانت فظيعة الطعم
جداً ، وجعلنا وصفها نضحك حتى دمعت عيوننا :

ولما رأت المسيو سوان ما زال عابساً ، أردفت فى تردد :

— ولعل ما أضحكنا هو طريقة سردهم...

ثم خطر لها أن سبب تهجم المسيو سوان قد يكون عدم سروره بمسرحية «فرانسيون» فقالت مستدركة :

— ومن يدري ، ربما لم ترقني هذه المسرحية ، بل لعلها تخيب أملى ، ولست أحسبها بعد كل شيء في مثل جودة المسرحية التي تهتم بها مدام دى كريسي (أوديت) وهى «سيرج بانين» Serge Panine . فهى مسرحية شديدة العمق ، وتحملك على التفكير ! ولكن تخيل الأدلاء بوصفة عمل نوع من السلاطة على خشبة المسرح الفرنسى ! أما سيرج بانين ، فهى طبعاً مثل أى شيء ينشئه قلم المسيو جورج أونيه G. Ohnet ، فهى مكتوبة بليجادة وإتقان . وإنى لأتساءل هل شاهدت «المعلم الحداد» التي أفضلها أيضاً على «سيرج بانين» ؟

فقال المسيو سوان ، فى سخرية مهذبة :

— عفوك ياسيدتى ! ولكنى أؤكد لك أن عدم إعجابى موزع بالتساوى بين كل هذه الروائع !

— الحقيقة أن هذا شيء طريف حقاً ومثير للاهتمام . وما الذى لا يروقك فيها ؟ ألن تغير رأيك فيها أبداً ؟ لعلك تظن أن موضوعاتها محزنة أكثر مما يجب .. ومن رأيي دائماً أن المرء لا ينبغى أن يناقش أحداً فيما يتعلق بالمسرحيات أو بالروايات ، فكل إنسان لديه طريقته الخاصة فى النظر إلى الأشياء : وما قد يكون فظيهاً فى نظرك ، قد يكون أحب ما يمكن فى نظرى !

وقطع عليها كلامها صوت فورشفيل مخاطباً سوان . وما حدث هو أنه بينما كانت مدام كوتار تناقش فى شأن مسرحية «فرانسيون» كان فورشفيل يعرب لمدام فرديران عن إعجابه بمحدث الرسام ، قائلاً لها :

— صديقك هذا لديه موهبة التدفق اللغوى ، مع ذاكرة عجيبة ! ونادراً ما رأيت شيئاً كهذا ، ولو اشتغل بالوعظ لكان واعظاً من الطراز الأول . كنت أتمنى — وإيم الله — لو كنت هكذا ، وأراك فزت بجائزتين رابحتين هذه الليلة بدعوتك هذا الفنان والأستاذ بريشو ، وإن كنت أعتقد أن الرسام يخطف الأضواء من الأستاذ فى بعض الجوانب . فالكلام يتدفق من فيه بسلاسة طبيعية ، ولا يخطر ببالك أنه كمن يقرأ فى كتاب . وإن كان طبعاً يستخدم بعض ألفاظ واقعية أكثر مما ينبغى ، ولكن هذه هى «الموضة» هذه الأيام . وأنا على كل حال لم أسمع منذ وقت طويل أحداً يملك ناصية الخطابة فى مثل براعته . أو «يحمل المصقة» كما كنا نقول ونحن فى الجيش ، وبهذه المناسبة أراه يذكرنى بزميل كان معنا فى الكتبية . كان فى وسعك أن تختارى أى شيء . وليكن هذا الكوب ، وتدفعينه إليه ، فيسترسل فى الكلام عنه ساعات وساعات . كلا ! ليس هذا الكوب فهو اختيار ضعيف ، ولكنى أعنى شيئاً أكبر من هذا الكوب ، وليكن معركة واترلو مثلاً ! أو أى شيء من هذا القبيل . وتأكدى

أنه سيقول لك أشياء لا يمكن أن تصدقها . وكان معنا في المكتبة في ذلك الوقت سوان ، ولا بد أنه يعرف هذا الشخص .

فسألته مدام فرديران :

— أترى المسيو سوان كثيراً ؟

فأجابها :

— لا ، وربي !

ثم تذكر أنه إذا تطف مع سوان ربما راق ذلك أوديت ، فقرّر أن ينتهز هذه الفرصة كي يتملقه ، بالحديث عن أصدقائه الوجهاء ، ولكن بما أنه شخصياً من رجال المجتمع ، فقد تحدث بلهجة الناقد المترفق ، لا بلهجة من يهين سوان على حسن طالع لا يستحقه ؛ قال :

— أليس هذا صحيحاً يا سوان ؟ أنا لم أعد أراك . أليس كذلك ؟ ولكن أين بحق الله يمكن للمرء أن يراه ؟ إنه يقضى وقته كله في أماكن مغلقة مع أصدقائه من آل تريمويل Trémouilles ، ومع آل لوم Laumes ، ومن لف لفهم !

وهو اتهام كان من الممكن أن يكون غير صحيح في أى وقت ، ولكنه الآن أمعن في البهتان وقد مضى على سوان أكثر من عام وقد تخلّى عن الذهاب إلى أى بيت تقريباً عدا بيت آل فرديران . ولكن ذكر أسماء الأسر التي لا يعرفها آل فرديران قوبلت لديهما بصمت مشحون بالوم .



بينما كانت مدام كوتار تتناقش في شأن مسرحية « فرانسيسون » كان فورشفيل يعرب لمدام فرديران عن إعجابه بحديث الرسام ..

وخشى المسيو فرديران من الوقوع المؤلم على زوجته لذكر هؤلاء «السمجين» ، ولا سيما أن هذا حدث بتلك الصورة الخسالية من الذوق ، وفي حضور «الخصاء» ، فرمقها بنظرة مختلطة كلها تعاطف وقلق ومناشدة أن تتشجع ، فتبين من سمعتها أنها قررت عدم إلقاء بالها إلى ما حدث وما سمعت ، وكأنه لم يبلغها شيء من الأنباء التي وجهت إليها ، فكأنها أصيبت بالصمم ، كما يفعل المرء حين يذكر أمامه اسم خصم يكون ذكره أمامه من المحرمات . وهكذا أفرغت مدام فرديران سمعتها من كل أمارات الحياة ، الراضية والرافضة على السواء ، فبدأ جبينها صفحة صافية لم يعكرها ذكر آل تريموي وآل لوم هؤلاء ، الذين يقضى المسيو سوان جل وقته مختلياً بهم . وكل ما هناك أن تغضنا سيراً اعترى أنفها فوسع من منخريها . وكان يخيل إليك أن شفتيها المنفرجتين تهمان بالكلام ؛ ولكن الحقيقة أن ملامحها كلها كانت كتتمثال جامد من الشمع ، يصلح للعرض في «قصر الصناعة» بالمعرض العام ، نموذجاً مجسماً لأنفة آل فرديران في مواجهة تماثيل آل تريموي وآل لوم ، وكيف أنها نداء لها ، (إن لم تكن أفضل منهما) ولكل «السمجين» الآخرين على وجه الأرض جمعاء ! لقد كان جودها وبياضها في هذه اللحظة جديرين بالبابا !

ولكن التمثال الجامد تحرك في النهاية لكي يعبر عن ازدرائه لحساسية من يردد على بيوت كهذه ، الزوجة فيها مغمورة دائماً ،

والزوج غير متعلم . وختمت مدام فرديران كلامها وهي ترمق سوان بمنتهى التعالي :

— ستغرم مبلغاً باهظاً من المال كي تغربني بالسباح لأى واحد من هذه الطغمة بأن تطأ قدمه أرض بيتي !

ولم تكن تتوقع منه أن يسلم بوجهة نظرها تسليماً كاملاً ، بحيث يردد أصدااء السذاجة التي تكلمت بها عمة عازف البيانو ، التي صاحت على الفور :

— ما أعجب هذا ! إن ما يدهشني أن هؤلاء الناس يغرون أى أحد بالاقتراب منهم . أنا شخصياً أخشى الاقتراب منهم . ولا يمكن للمرء في هذا أن يكون مفرطاً في الحذر . ولا أدري كيف يمكن لأحد أن تبلغ به السوقية إلى حد الجري وراءهم ، أو الترائى عليهم ! ولكنه كان يستطيع — على الأقل — أن يقول مثل فورشفيل :

— رباه ! إنها دوقه . ولم يزل هناك أناس كثيرون يبهرون هذا اللقب .

وكان ذلك يتيح لمدام فرديران الرد النهائي :

— وما أجدى هذا عليهم !

ولكن بدلاً من هذا ، اكتفى سوان بالابتسام ، بصورة تفيد أنه لم يكن باستطاعته طبعاً أن يأخذ مثل هذا القول مأخذ الجد . أما المسيو فرديران للذي كان لا يزال يلقى نظرات مختلطة ومتقطعة نحو زوجته ، فتبين أنها الآن في حالة غضب وغيظ شديدين ، وكأنها رئيس محكمة

التفتيش وقد شعر بالعجز عن سحق هرطقة . ولذا فعلى أمل حمل سوان على الارتداد قال :

— قل لنا الآن بكل صراحة ما رأيك شخصياً في هؤلاء الناس ونحن طبعاً لن نخبرهم بما تقول .

فرد عليه سوان قائلاً :

— أنا لست خائفاً على الإطلاق من الدوقة (إن كنتم تتحدثون عن مدام دي تريوى) . فإني أستطيع أن أؤكد أن كل امرئ يجب أن يذهب لزيارتها .. ولست أعنى بهذا أنها « عميقة » (وتفوه بهذه الكلمة وكأنها تعنى شيئاً خفيفاً أو مضحكاً) ، بل أنا صادق جداً في قولي لإنها ذكية ، أما زوجها فهو فعلاً دودة كتب . لإنهم ناس ممتازون .

وكان كلامه بالغ الأثر حقاً . وأدركت مدام فرديران الآن أن هذه الحالة من الزندقة ستحول دون تمتع « عشيرتها الصغيرة » بوحدة الرأي التامة . ولم تستطع أن تتألك نفسها ، لشدة غضبها من عناد هذا التعس الذي عجز عن تبين مدى ما يسببه لها بكمالاته هذه ، فصاحت بصوت عال ، من أعماق قلبها المعذب :

— لك أن تعتقد هذا إن شئت ، ولكنك على الأقل ما كان ينبغي أن تقول هذا لنا !

وشعر فورشفيل أن دوره حان كي يكون ألمياً ، فقال :

— الأمر كله يتوقف على ما الذى تعنيه بالذكاء . فسر لنا الآن يا سوان ما الذى كنت تعنيه بأنها سيدة ذكية ؟

فصاحت أوديت :

— هاك ! هذه مسألة من المسائل الكبرى التى طالما رجوته أن يحدثنى عنها ، ولكنه كان يأبى هذا دائماً .

فاحتج سوان قائلاً :

— أوه . ولكن ...

فقالت أوديت :

— أوه ، ولكن هذا هراء !

وواصل فورشفيل كلامه قائلاً :

— هل الذكاء في نظرك ما يسمونه الكلام البارع ، فأنت تعرف نوع الناس الذين يزحون المجتمع ويمهلون سبيلهم فيه . وقالت مدام فرديران لسانيت بجفاء ، وقد رآته استغرق في التفكير وكف عن تناول طعامه :

— انته من تناول طبق الحلوى ، كى يتسنى للخدم رفعه ...

ثم لعلها خجلت من قضاظتها فعدت تقول له :

— لا بأس . خذ كل وقتك . فلسنا متعجلين . ولكنى قلت

لك هذا من أجل الآخرين ، لأن هذا التأخير يعطل الخدم ...

فشرع بريشو يتكلم متشدقاً بكل مقصود في كلامه .

— هناك تعريف غريب للذكاء أورده هذا الفوضوى المتع

فينيلون Fenelon

فقلت مدام فرديران لفورشفيل والدكتور :

— أنصت إلى هذا الكلام ! إنه سيذكر لنا تعريف فينيلون للذكاء . وهذا شيء طريف . ولا تسنح فرص كثيرة لسأعه .

ولكن بريشو كان يدخر تعريف فينيلون إلى ما بعد تفوه سوان بتعريفه . وظل سوان صامتاً . وبهذه الخيانة الجديدة أفسد مباراة الجدل التي كانت مدام فرديران سعيدة بتقديمها إلى فورشفيل .. لكن أوديت قالت بعناد :

— ها أنتم ترون أنه فعل معكم كما يفعل معي . ولست آسفة لأنني أرى أني لست الوحيدة التي لا يجدها ترفع إلى مستواه .

وتساءل بريشو ، وهو يضغط على ألفاظه :

— هل آل دي لا تريموى التي أظهرت مدام فرديران لنا أنهم غير مرغوب فيهم ، ينحدرون من سلالة من قالت عنهم تلك المتفبقة دي سيفيني Seigné إنها سرت بمعرفتهم ، لأن ذلك مفيد جداً لفلاحها ؟ وطبعاً كان لدى الركيزة دي سيفيني سبب آخر لهذا القول ، لأنها كانت في أعماقها صحفية ممتازة . وكانت الدوقة دي لاى تريموى هي التي تمولها بأسرار السياسة الخارجية ، التي تبعث بها يوماً إلى ابنتها .

فقلت مدام فرديران بياس :

— لا يا عزيزي . لا . أنا واثقة بأنها ليست من نفس هذه الأسرة .

أما سانيت ، الذي كان منذ تخليه عن طبقه من غير أن يمسه لكبير الخدم ، فقد استغرق مرة أخرى في التأمل الصامت ، ثم استقر رأيه على أن يحكي لهم — وهو يضحك ضحكة عصبية — كيف تعشى ذات مرة مع الدوق دي لا تريموى ، وخلاصة هذه الحكاية أن الدوق دي لا تريموى لم يكن يعرف أن « جورج ساند » اسم مستعار لامرأة . ولما كان سوان يحب سانيت حباً حقيقياً فقد شعر بأن من واجبه أن يقدم له بضع حقائق تبين مدى ثقافة هذا الدوق ، بحيث يتضح أن مثل هذا الجهل من جانبه مستحيل استحالة تامة . بيد أنه امتنع عن ذلك ، وقد أدرك أن سانيت ليس بحاجة إلى هذا الدليل ، وأنه يعرف أن تلك القصة المزعومة غير صحيحة ، لسبب بسيط ، وهو أنه اخترعها لساعته ! وكان هذا الرجل الفاضل (سانيت) يقاسى من أن آل فرديران يعدانه شديد الغباء ، ولما كان هذه الليلة أشد اكتئاباً من العادة ، فقد قرر أن يبدو ظريفاً مرة واحدة على الأقل ، قبل نهاية العشاء ، ولكنه لم يلبث أن استسلم بسرعة ، وبدا تأساً وهو يرى القصر الذي شاده ينهار ، ورد على سوان بصوت هزيل ، متوسلاً إليه ألا يلح في تنفيذ لا لزوم له :

— وهو كذلك . وهو كذلك ! حتى ولو كنت ارتكبت غلطة فليس هذا جرماً ، فيما أتخى !

فرغب سوان في مواساته ، بالتأكيد على أن الحكاية صحيحة بلا شك ، وأنها فضلاً عن هذا مضحكة جداً ...

وبعد العشاء اتجه فورشفيل صوب الدكتور ، وقال له :

— لا يمكن أن تكون مدام فرديران في شبابها دميعة . وهى على كل حال امرأة يمكنك أن تتحدث إليها ، وهذا كل ما أريده .
وأما مدام دى كريسى ، فهناك امرأة صغيرة تعرف الأصول : وأقسم بشرى أنك تستطيع بنظرة واحدة ذات عيتين أمريكيتين !
وقال موضحاً لمسيو فرديران عندما لحق بهما وجليونه في فقه :
— كنا نتحدث عن مدام دى كريسى . وفى رأى أنها عينة ممتازة للأئونة .

وقال كوتار في تعثر :

— أنا أفضل أن تقاسمنى فى فراشى ، على أن يقاسمنى فيه الرعد والبرق !

وسر فورشفيل للنكتة الخفية التى كان الدكتور منذ مدة يتحفز لإلقائها ويخشى أن يتحول الحديث إلى موضوع آخر ، قبل أن يلقى قطعة محفوظاته ! أما المسيو فرديران فاستطاره المرح ، وراح يهتر من شدة الضحك ، ثم أخذ يسعل ، وقد جعله الضحك يبتلع جانباً من دخان غليونه . وبإبقائه الغليون فى فقه استطاع أن يطيل مشهد الضحك إلى حد الاختناق ! أما زوجته ، مدام فرديران ، فكانت فى الطرف الآخر من القاعة تصفى الحكاية يرويها لها الرسام ، وقد

أغلقت عينيها وخبأت وجهها بين يديها . فكان الزوجان أشبه بقناعين من أقتعة المسرح ، يمثل كل منهما الكوميديا ، ولكن بطريقة مختلفة : وكان المسيو فرديران أحكم مما يظن بتبشئه وجليونه فى فقه ، لأن كوتار استأذن فى الخروج من القاعة لحظة وهو يتفوه بكناية تعلمها أخيراً وصار يردها كلما هم بالذهاب إلى دورة المياه :

— لا بدلى من الذهاب « لحاسبة القاضي » برهة !

وكانت لهجته مضحكة ، حتى كاد يخنق المسيو فرديران مرة أخرى من شدة الضحك : وقالت له مدام فرديران التى أقبلت تدور على الضيوف بصينية ليكير :

— أخرج غليونك من فمك وإلا اختنقت وأنت تحاول كتمان ضحكك بهذا الشكل :

وقال فورشفيل لمدام كوتار :

— ما أظرف زوجك ! إنه بارع النكتة :

وقال وهو يتناول كأس الليكير :

— شكراً لك : ألف شكر ! جندى قديم مثلى لا يمكن أن

يقول لا لكأس شراب :

وقال المسيو فرديران لزوجته :

— المسيو دى فورشفيل يرى أوديت فاتنة :

فقال مدام فرديران لفورشفيل :

— أتدري أنها راغبة جداً فى أن تقابل مرة أخرى ذات يوم

على الغداء ؟ ولابد أن ترتب ذلك ، ولكن إياك بأى حال أن تدع ستوان يعرف شيئاً عن هذا ، فهو يفسد بكل شيء ، كما تعلم . ولست أعنى بهذا ألا تأتى للعشاء أيضاً ، بالطبع . فنحن نتمنى أن نراك مراراً كثيرة جداً . وها هو الجو الدافئ قادم ، وسوف نتناول العشاء خارج البيت كلما أمكننا هذا . ولا أظن ذلك يضجرك : عشاء صغير هادئ ، بين الحين والحين ، فى الغابة ؟ عظيم . عظيم جداً ! سيكون هذا رائعاً : وصاحت فجأة بعازف البيانو ، وقد وجدت لها فرصة لكي تظهر أمام « قادم جديد » فى مثل أهمية فورشفيل ذكاءها المباح ، وروح فكائها ، وسلطانها الدكتاتورية على « الخلقاء » :
— ألن تقوم الليلة بأى عمل ؟

وحذرت مدام كوتار زوجها لحظة دخوله القاعة :
— لقد كان المسيو دى فورشفيل بصدد أن يقول عنك شيئاً فظيعاً :

وكان كوتار لم يزل مشغول البال بموضوع « نبالة » فورشفيل ، منذ أول السهرة . ولذا قال له الآن :

— إنى أعالج الآن بارونة : البارونة « بيتيس » Putbus ، ألم يكن فى الحروب الصليبية أفراد من آل بيتيس ؟ إنهم على كل حال يملكون بحيرة فى بوميرانيا Pomerania تبلغ مساحتها عشرة أضعاف مساحة ميدان الكونكورد : وأنا أعالجها من التهاب المفاصل الجاف : وهى امرأة فاتنة : وأعتقد أن مدام فرديران تعرفها :

فأتاح هذا الحديث لفورشفيل ، بعد لحظة ، عندما وجد نفسه على انفراد مع مدام كوتار ، أن يتم لها رأيته فى زوجها قائلاً :

— إنه رجل طريف أيضاً ، فهو يعرف بعض عليه القوم ! رباه ... لابد أن هؤلاء الأطباء يعرفون أشياء كثيرة :

وسأل عازف البيانو مدام فرديران :

— أتريدنى أن أعزف تلك الجملة من السوناتا للمسيو ستوان ؟

فصاح المسيو دى فورشفيل ، محاولاً إثارة المرح :

— أتمنى ألا تكون سوناتة الثعبان !

ولكن الدكتور كوتار ، الذى لم يكن سمع هذه التورية من قبل فاتته نكهتها ، وظن المسيو دى فورشفيل قد ارتكب خطأ ، فاندفع يصححه قائلاً :

— لا . لا . المقصود هو الثعبان ذو الأجراس !

فشرح له فورشفيل ما يقصده ، فاحمر وجه الدكتور . وقال فورشفيل :

— اعترف يا دكتور أن النكتة ليست رديئة .

— أوه ! أنا أعرفها منذ زمن بعيد !

وساد الصمت ، مع بداية العزف للجملة الموسيقية من سوناتا فانتى : واتجه إليها ستوان بكل مشاعره ، وراح يناطها من أعماق قلبه ، وكأنه يفشى لصفيه أسرار هواه : وكأنها الجملة الموسيقية صديقة

لأوديت يمكن أن تؤكد له أنه لا موجب للاهتمام بهذا الثقل المسمى فورشغيل :

ورحبت مدام فرديران بأحد « الخالصاء » ، وكانت قد وجهت إليه الدعوة للمرور بالصالون بعد العشاء ، قائلة له :

— آه ! لقد حضرت متأخراً أكثر مما يجب ! لقد كنا نحظى بحديث من بريشو وهو في قمة التجلي ! وبقينا لم يسبق لك أن سمعت مثل هذه البلاغة ! ولكنه انصرف . أليس كذلك يا مسيو سوان ؟ وأنا أعتقد أن هذه أول مرة تقابله فيها . ألم يكن بريشو رائعاً الليلة يا مسيو سوان ؟

فانحنى سوان بهذيب شديد . فسألته بحفاة :

— كلا ؟ ألم تكن مهتماً بما قاله ؟

— أوه : بل أؤكد لك أني انتشيت جداً به . ولكن لعله أشد خفة وزناً مما يروقي : وأتمنى أن أراه أحياناً وهو أقل ثقة بنفسه ، وأكثر تسامحاً . ولكن المرء يشعر دائماً أن هذا الرجل يعرف الشيء الكثير ، وهو على العموم يبدو لي شخصاً لا غبار عليه إطلاقاً .

وانفض الحفل الساهر في بيت آل فرديران في وقت متأخر جداً تلك الليلة . وكانت أول كلمات كوتار لزوجته :

— قلنا رأيت مدام فرديران في مثل هذه الصورة :

وقال فورشغيل للرسام ، وكان قد أركبه معه في عربته :

— ما هي حقيقة صاحبك مدام فرديران هذه ؟

وأما أوديت فرأت فورشغيل ينصرف وهي كارهة . فلم يكن في وسعها أن تتجاسر على رفض صحبة سوان لها إلى بيتها ، ولكنها كانت ضيقة الصدر متوترة الأعصاب وهي معه في عربته . وعندما سألها أيمكنه الدخول معها قالت :

— أظن هذا !

وهي تهر كتفياً في نفاد صبر :

وعندما تم انصراف الجميع ، قالت مدام فرديران لزوجها : — هل لاحظت الطريقة التي كان سوان يضحك بها ، ومكانت ضحكته بلهاء ، عندما تحدثنا عن مدام لاتريموى ؟

وكانت قد لاحظت ، أكثر من مرة كيف كان سوان وفورشغيل يحذقان الحرف « دى » من أمام اسم تلك السيدة . ولم يخامرها الشك أن ذلك كان عن عمد ، ليظهر مدى عدم تهيبهما من فخامة اللقب ، ولذا قررت أن تحذو حذوهما وتحاكيهما في غطرستهما تلك واستعلاهما ، إلا أنها لم تدر أى صيغة نحوية يقتضها ذلك الحذف : ولذا كانت تقول دائماً « دى » « لاتريموى » ، بدلا من « لاتريموى » مثل الجمهوريات المتطرفات ، أما ذكر حرف « دى » فلا بد أن تسبقه كلمة « السيدة » أو « مدام » أو « الدوقة » . وكانت أحياناً تقول بدون « دى » :

— مدام لاتريموى :

ثم تردف ذلك قائلة في سخرية كالمستدركة :

— أو الدوقة ، كما يسميها المسيو سوان !

وتبتسم ابتسامة صفراء ، مترثة من هذا التحديد الطبقي السخيف ، وكأنها تقول : إن المهدة في هذا الكفر على سوان ، وناقل الكفر ليس بكافر .

واستطردت تعلق على ابتسامة سوان ، قائلة لزوجها :

— أنا لا أبالي أن أقول : إنني أحسبه غاية في الغباء !

والتقط المسيو فرديران هذا الخيط فقال :

— إنه ليس مخلصاً . بل هو شخص شديد الدهاء ، ودائم التراجع من هذا الجانب إلى ذاك الجانب : يحاول في الوقت نفسه الجري مع الأرنب ، والمطاردة مع كلاب الصيد التي تقتنى أثره ! وما أعظم الفرق بينه وبين فورشفيل : ففورشفيل على الأقل رجل يخبرك على الفور ، وبصراحة ما هو مكنون فكره . ولك الخيار في أن توافقيه أو تخالفيه : وهو في هذا ليس كالأخر (سوان) الذي لا يكشف القناع عن موقفه قط . أهو مع الفئران أم مع القطط : فهل لاحظت بهذه المناسبة أن أوديت شديدة التهاق على فورشفيل ؟ وأنا شخصياً لست ألومها . ثم إذا كان سوان يتظاهر أو يفرض نفسه علينا بصفته رجل الأناقة والوجاهة ونصير الدوقات المنكودات ، فإن الآخر (فورشفيل) على الأقل صاحب لقب من ألقاب النبالة : فهو على كل حال « الكونت دي فورشفيل » :

وتفوه بهذه الكلمات في رهاقة ، وكأنه خير بالسلالات النبيلة ، يقوم بتقويم « السلعة » أو « العينة » موضوع الحديث ! فقالت مدام فرديران :

— أنا لا أبالي أن أقول إنه غامر بالنفوه ببعض التعريض السخيف بيريشو : فهو طبعاً حين رآه موضع حفاوة في هذا البيت ، أراد بالظن فيه أن يشوه ندوتنا ويقسد حفلتنا . وأنا أعرف هذا الصنف من الضيوف أصدقاء الأسرة ، الذين يمزقونك إرباً وهم منصرفون على سلم دارك !

فأجابها زوجها :

— ألم قل لك هذا ؟ إنه ببساطة شخص فاشل ، يمضي في الحياة وهو ينضح بل يطفح غيرة وحسداً لأى شيء كبير الشأن !

ولو عرفت الحقيقة ، لاتضح أنه ما من واحد من « الخلفاء » إلا وهو شر من سوان ، ولكن الآخرين حريصون على تغطية أو تمويه شرهم بالمزاح السطحي ، وبمظاهر الولاء والتزلف . أما تحفظ سوان فكان يبدو لصاحبي الدار علامة على الخيانة والغدر !

وهكذا الحال أيضاً بين المؤلفين : فهناك مؤلفون ممتازون من ذوى الأصالة يظن الناس حريتهم في التعبير متفردة ، لأنهم لم يبدعوا بتعلق الذوق العام ، ولم يستخدموا في أسلوبهم الصيغ الشائعة التي اعتادها الجمهور : وبعين هذا الأسلوب أثار سوان غضب المسيو

فرديران . فظرافة أو جدلة لغته على هذا الوسط هي التي جعلت هذا الوسط المعين يرتاب في خلوص نيته ويظن به السوء :

وكان ستوان ما يزال غير شاعر بالنقمة التي تهدده في بيت آل فرديران ، وظل ينظر إلى مخافات هذين الزوجين بتسامح ، بل بمودة واستحسان ، لأنه كان يراها بعيني حبه وإعجابه بأوديت ، وكانت القاعدة أنه لا يرتبط بمواعيد مع أوديت إلا في المساء ، ذلك أنه كان يخشى أن تمله أوديت لو أنه زارها أثناء النهار أيضاً ، وكان في الوقت نفسه لا يريد أن يحسر - ولو ساعة واحدة - المكان الذي يحتله في تفكيرها ، وكان دائماً يتسقط فرصة لاستلقات نظرها واسترعاء اهتمامها ، بأي طريقة غير منفرة لها . فإذا لفتت نظره في واجهة محل أزهار أو جواهر نبات أو حلية ، فكر على الفور في إرسالها إلى أوديت ، متخيلاً أن المتعة العابرة التي أحسها في رؤيتهما ستشعر هي أيضاً بها شعوراً غريزياً ، فيزداد إعزازها له : ويأمر على الفور بإرسالها إلى شارع « لا بيروت » على وجه السرعة ، تعجلاً للحظة التي ينقله فيها الخيال إلى المثل بين يديها في صورة هديته ، ليستمتع بفرحتها .

وكان شديد الحرص على أن تتلقى هداياه هذه قبل خروجها لقضاء الأمسية ، لكي يضيف هذا العرفان شيئاً إلى حرارة ترحيبها به عندما يصل إلى بيت آل فرديران . بل لعل صاحب المتجر إن أسرع لإرسال الهدية كما يتمنى هو ، أن يحفظها هذا على إرسال خطاب



وكان شديد الحرص على أن تتلقى هداياه هذه قبل خروجها لقضاء الأمسية ، لكي يضيف هذا العرفان شيئاً إلى حرارة ترحيبها به .

إلى سوان قبل العشاء . أو ربما وجدها شخصياً على عتبة بابه ، قادمة لزيارة فوق العادة على سبيل الشكر والعرفان . وكما كان في المرحلة الأولى يقوم بالتجارب على ردود أفعالها بالغضب أو الازدراء ، صار يحاول الآن بهذا التقرب إليها بالهدايا أن يستخرج منها مشاعرها الدفينة التي لم تكن قد كشفت عنها بعد .

وفي أحيان كثيرة كانت تضيق بحاجتها إلى المال ، وتمتعت ضغط الدائن قد تأتي إليه طلباً للمساعدة . وكان يستمتع بهذا مثل استمتاعه بكل شيء يمكن أن يوحى إلى أوديت بحبه لها ، أو بنفوذ ، حسباً تدعو حاجتها إلى ذلك .

ولعله لو كان أحد قال له في البداية :

— إن مركزك هو الذى يجذبها إليك .

أو قال له قائل في المرحلة الراهنة :

— إن مالك هو الذى تعشقه هى فى الواقع ؟

لما صدق هذا القول : ولكن حتى لو صدق هذا الاحتمال ، لما سبب له أى معاناة أن يكتشف أن حب أوديت له كان قائماً على أساس أمّن وأبقى من الإعزاز ، أو أى صفات جذابة يمكن أن تجدها فيه : مثل المصلحة التجارية الراضخة ، وهى مصلحة يمكن أن تؤجل إلى الأبد اليوم المشوم الذى يستويها فيه أن تضاع نهاية لعلاقتها . وهو فى الوقت الحالى إذ يغدق عليها الهدايا ، ويسدى إليها كل أنواع الخدمات ، إنما يعتمد على مزاي ليست جزءاً من

شخصه أو ثقافته ، بل هى محاولات لجعل نفسه أشد جاذبية لها . وهذا السرور بكونه عشيقة لها ، يعيش بالحب ولحب وحده ، وإن كان مرتاباً فى حقيقة هذا الحب ، يزيد من قيمة هذا الحب فى نظره بكثرة ما يقدمه فى سبيله من جهد ومال : على نحو ما يقتنع شخص كان يشك فى جمال منظر البحر بمبلغ هذا الجهد عندما يدفع عن طيب خاطر مبلغاً جسيماً أجراً لكل ليلة فى غرفة بفندق تطل على الشاطئ ، ومن نافذتها يستمتع بمنظر البحر وصوته ، فيشعر كم هما جديران بكل تضحية !

وذات يوم ، ساقته خواطر من هذا القبيل مرة أخرى إلى تذكر ما كان قد قاله له أحد الناس عن أوديت ، من أنها محظية أو خلية يحوزها الرجل لقاء راتب متفق عليه : وداعبه تصور « المحظية » وما فى صورتها من مزيج متلون بألوان قوس قزح لصفات مجهولة وشيطانية ومزركشة ، وكأنها إحدى تصاوير جستاف مورو Gustave Moreau ، التى تقطر فيها أزاهير غريبة سماً ، وقد تخللتها الجواهر الثمينة : ويقارن بين هذا التصور وبين أوديت التى عرفها وكَم قرأ على ملاحظها أمارات الرحمة لشقاء شتى ، وأمارات السخط على فعل جائر ، وأمارات العرفان لعمل من أعمال الرفق والحنان ، وكَم تشبه الأمارات التى رآها طفلاً على محيا والدته ، وعلى وجوه صديقات محترمت مصونات : أوديت هذه التى كثيراً ما دارت أحاديثها حول أمور هو شخصياً غاف عنها من سواه ،

مثل مجموعاته الفنية ، وحجراته ، وخادمه المسن ، وصيرفيه الذى يحتفظ له بكل أوراقه المالية ومستنداته .

وذكره تفكيره بهذا الصيرفى بأنه لا بد أن يمر عليه قريباً لكى يسحب مبلغاً من المال . ولئن كان فى الشهر الحالى قد قلل من سخائه فى معاونة أوديت فى متاعبها المالية عما كان عليه الحال فى الشهر الماضى (الذى أعطاها خلاله خمسة آلاف فرنك) ، ولئن أحجم عن إعطائها قلادة ماسية كانت تصبو إليها ؛ فهو بذلك يتبع لها التعجب من تقلص سخائه ، ويقلل من عرفانها الذى كان مصلسر سعادة كبرى له . بل إنه بذلك يغامر بأن تتخيل أن حبه لها (كما كانت تراه فى مظاهره الملموسة) قد تناقص . وعندئذ سأل نفسه فجأة أليس ما كان يصنعه معها هو ما يعنيه الناس بحيازة خليعة ؟ وهل ليس من الممكن إطلاق هذه التسمية على أوديت منذ عرفها (لأنه لم يستطع أن يتصورها تقبل نقوداً من رجل قبله) ؟ ولم يستطع أن يمتضى أكثر من هذا فى استقصاء هذه الفكرة ، لأن فكره توقف عن الاشتغال بها فجأة ، على نحو ما يتوقف الضوء الكهربى (الذى دخل البيوت أخيراً) بمجرد الضغط على زر صغير .

وظل ذهنه يعسس فى الظلام لحظة ، فخلع نظارته ، ومسح زجاجتيها ، ومر بيده على عينيه ، ولكنه لم يجد أى ضوء إلا عندما وجد نفسه وجهاً لوجه أمام فكرة مختلفة تماماً ، وهى أن يحاول فى الشهر القادم أن يبعث إلى أوديت بست أو سبع أوراق نقد من ذات

الآلاف فرنك بدلاً من خمس ، على سبيل المفاجأة السارة لها لا أكثر . وفى المساء ، عندما لا يمكن بالبيت إلى أن يحين وقت لقاء أوديت فى بيت آل فرديران ، أو فى أحد المطاعم بالهواء الطلق التى يحبون ارتيادها فى الغابة ، ولاسيما فى سان كلو Saint - Cloud ، فإنه يذهب ليتعشى فى أحد البيوت الراقية التى كان يوماً ما ضيفاً دائماً عليها . فلم يحب أن يفقد اتصاله بالناس الذين يمكن أن يكونوا ذوى نفع يوماً ما لأوديت ، ولم يزل فى استطاعته بفضلهم وعن طريقهم أن يحصل لها على حظوة أو متعة تريدها . يضاف إلى هذا أنه تعود منذ زمن طويل على الرفاهية وأساليب الترف فى المجتمع الراقى ، فصار ذلك يمثل لديه حاجة ماسة وملحة إلى غشيانه . حتى أنه عندما وصل إلى المرحلة التى صار يستوى فى نظره أفخم قصور الأمراء ، وأشد المساكن تواضعاً ما دامت أوديت موجودة به ، أمسى مع هذا لا يدخل البيت المتواضع من غير إحساس عميق بعدم الراحة . ويحدث هذا له عندما يدعى - ولا يفكر فى رفض الدعوة - إلى حفل راقص بشقة عادية يصعد إليها السلام حتى الطابق الخامس ، ويدق الباب الأيسر ، على نحو ما يهش لحضور حفل راقص فى قصر أميرة بارم Parme ، التى كانت تقيم أفخم الحفلات الراقصة بباريس على الإطلاق . إلا أنه لم يكن يشعر أنه حقاً فى حفل راقص عندما يجد نفسه وسط قطع من الآباء فى حجرة نوم ربة الشقة ، ويلاحظ أحواض غسيل الوجه التى غطيت بالمشاكير وقد تحولت

الأسرة إلى حجرات للمعاطف ، تعلوها أكداس من القبعات . فيشعر عندئذ بمثل شعور من تعود طيلة حياته على النور الكهربائي عندما يجد نفسه فجأة في مكان تضيئه شمعة أو مصباح بترول يتصاعد منهما الدخان الخائق الحارق للعيون !

وإذا كان سيتعشى في الخارج ، أمر بحضور عربته في منتصف الساعة الثامنة ، ويتساءل وهو يبذل ثيابه عما تفعله الآن أوديت : وبهذه الطريقة لم يكن يشعر بالوحدة أبداً ، لأن تفكيره المتصل في أوديت كان يضمن على لحظات اقترافه عنها نفس السحر الذي للحظات وجودها بجانبه : ويستقل عربته وينطلق بها ، وهو مدرك أن تفكيره فيها قفز معه إلى العربة واستقر على ركبته ، وكأنه حيوان أليف مدلل يأخذه معه إلى كل مكان ، ويستبقه معه على مائدة العشاء ، من غير أن يلحظ رفاقه على المائدة وجوده . ويمد يده فيدله ويربت عليه ، ويستدفئ به : وعندما ينتابه شعور بالوهن تند عنه رجفة تنقبض لها عضلات حلقه وخياشيمه ، وهو يثبت في عروته باقة الأزهار الصغيرة :

وهو منذ فترة من الزمن لم يشعر بالعافية ولا السعادة ، ولا سيما منذ أحضرت أوديت فورشفيل إلى بيت آل فرديران . ولذا كان يتمنى لو سافر للاستجمام بعض الوقت في الريف . ولكنه لم يستطع قط استجماع همته لمغادرة باريس ، ولو لمدة يوم واحد ، ما دامت أوديت موجودة بها : وكان الطقس دافئاً ، لأن تلك الفترة كانت

أجمل فترات الربيع : ومع هذا كان يمر بعربته وسط شوارع مدينة صخرية ، ليدخل بيتاً لا حديقه له ولا أعشاب حوله . في حين أن ما يترأى دائماً أمام عينيه هو بستان يملكه قرب كبراي ، حيث يتسنى له في الساعة الرابعة بعد الظهر قبل الوصول إلى حوض الإسبرجس ، بفضل التسم الذي يهب عبر الحقول من « ميزجليز » ، أن يستمتع بعبير الهواء المنعش ، سواء أكان تحت أيكه في الحديقة ، أو على شاطئ البركة التي تحف بها الأراهير . وهناك في ذاك البيت عندما يجلس إلى مائدة العشاء ، تحف به باقات الورد التي أعدتها يد البستاني الصناع .

وبعد العشاء ، إذا كان لديه موعد مبكر في الغابة أو في سان كلو ، ينهض عن المائدة التي كان ضيفاً عليها ويغادر الدار على عجل - ولا سيما إذا كان الجو ينذر بالمطر ، وبذلك يفرط عقد الجماعة قبل الأوان المعتاد - فتقول الأميرة ديه لوم Des Laumes مستاءة (حيث تأخر تقديم العشاء حتى أن سوان غادر القصر قبل تقديم القهوة ، لكي ينضم إلى جماعة آل فرديران في الجزيرة بالغابة) :
- لو كان سوان أكبر سنًا مما هو بثلاثين سنة ، ومصائباً بالسكر ، لكان له بعض العذر في الإسراع بالانصراف . أما هكذا فواضح أنه يستهين بنا !

وأقع نفسه بأن سحر فصل الربيع الذي لم يستطع التمتع به في كبراي ، في وسعه على الأقل أن يجده في جزيرة السحيم أو في

سان كلو : ولكن لما كان تفكيره منحصراً في أوديت ، لذا كان عند عودته إلى بيته لا يدري هل تنوق عبير الأوراق الحديدية على غصون الأشجار : وهل كان القمر ساطعاً أم لا ! ويستقبله عازف البيانو بالجملة الموسيقية من السوناتة ، معزوفة على بيانو المطعم - أو الحديقة . فإن لم يوجد بيانو في الحديقة ، اتخذ آل فرديران الإجراءات اللازمة لإحضار بيانو من حجرة بداخل المطعم ، لا لأن سوان عاد إلى الخطوة - فهذا لم يحدث - بل لأن ذلك التدبير يسر الزوجين صاحبي الدعوة . وبين الحين والحين يحمل سوان نفسه حملاً على تذكر الربيع ، ويلقى باله إلى الأشجار والسماء : بيد أن حضور أوديت كان يكفي كي ينتابه شعور محموم قلما فارقه الآن ، يحرمه من الطمأنينة اللازمة للإحساس بمظاهر الطبيعة :

و ذات مساء ، وقد وافق سوان على تناول العشاء مع آل فرديران ، ذكر سوان على المائدة أنه مضطر في اليوم التالي لحضور مأدبة سنوية احتفالاً برفيق قديم ، وإذا بأوديت تصيح على الفور عبر المائدة ، أمام الجميع ، وأمام فورشفيل - الذي كان قد أمسى من «الخلصاء» - وأمام الرسام ، وأمام كورتار :

- نعم . أعرف أنك ستحضر هذه المأدبة غداً ، وأنتى سوف لا أراك إلا بعد عودتي إلى البيت : فاجتهد ألا تتأخر كثيراً !
ومع أن سوان لم يكن قد استاء استياء جدياً من قبل لما تظهره أوديت أحياناً من أمارات الصداقة لأحد «الخلصاء» ، إلا أنه شعر

بفرح غامر عندما سمعها تعترف علناً على هذا النحو ، أمامهم جميعاً ، وبكل « قلة حياء » أنهم يتقابلان بانتظام كل مساء ، وأنه يحتل هذا الموضع الممتاز في بيتها ، وما ينطوى عليه هذا من تفضيل له : أجل إن سوان كان كثيراً ما فكر أن أوديت ليست امرأة غير عادية ، وأن تفضيله لامرأة أدنى منه كثيراً ليس فيه ما يطريه عندما يذاع ذلك على رءوس الأشهاد . ولكن بما أنه لاحظ أن أوديت تبدو فاتنة ومرغوبة لرجال كثيرين غيره ، لذا تمنى أن يقرن جاذبيتها الجسدية التي تتيحها له بالاستحواز الكامل على كل ذرة من فؤادها ، ومنذ هذا الحين وهو يعلق أهمية كبرى على تلك اللحظات التي يقضيها في بيتها كل ليلة ، وقد أجلسها على ركبتيه ، وراح يسألها عن رأيها في هذا الأمر أو ذاك ، معترساً بهذا الكثر الذي أصبح يحرص عليه دون سائر ممتلكاته الدنيوية . ولذا فإنه بعد الانتهاء من العشاء انتحى بها جانباً ، وعنى بشكرها شكراً جماً ، كي يشعرها بمدى قدرتها على إدخال السرور على نفسه ، وأن أقصى متعة له في الدنيا أن يأمن لذعات ونزعات الغيرة وعذابها :

* * *

ولما انصرف من المأدبة في الليلة التالية ، كان المطر ينهمر مدراراً ، وكانت عربته مكشوفة ، فعرض عليه أحد الأصدقاء أن يوصله إلى بيته في عربته المقفلة . ولما كانت أوديت بإصرارها على قدومه إليها قد أفهمته أنها لا تنتظر أحداً سواها ، لذا كان في وسعه

— بسبب المطر — أن يذهب إلى بيته ويأوى إلى فراشه مطمئناً : ولكنه خشي أن تسيء فهم عدم حضوره ، وتظنه غير حريص على أن يختم كل أمسية ، بلا استثناء في صحبتها . وربما ترتب على هذا أن تتحرر هي أيضاً من التقيد به ، ولا تخصه بالليلة التي يتمناها بالذات :

وكانت الساعة قد جاوزت الحادية عشرة حين وصل إلى بابها : وبينما هو يعتذر إليها ، لأنه لم يتمكن من القدوم قبل ذلك ، شكت إليه من أن الوقت متأخر فعلاً ، وأن العاصفة أصابها بوعكة وصداغ ، وأنذرتة بأنها سوف لا تسمح له بأكثر من نصف ساعة ، ولا بد أن تصرفه عند منتصف الليل . وبعد قليل قالت إنها مجعدة وتريد أن تنام : فساءلها :

— ألا « كاتاليا » (كناية عن الجماع) الليلة إذن ؟ لقد كنت طول السهرة أمني النفس بلذة « الكاتاليا » !

ولكنها لم تستجب لتوسله ، وقالت بعصبية :

— لا يا عزيزي . لا « كاتاليا » الليلة . ألسنت تراني على غير ما يرام ؟

— ربما أفادتلك الكاتاليا وأصلحت مزاجك ! ولكنني لن أزعجك !

وطلبت إليه أن يطفىء النور قبل انصرافه . وفعلاً أحكم الستائر حول فراشها ، ثم غادرها منصرفاً . ولكنه ما إن صار في بيته ، حتى

خطر له فجأة أن أوديت ربما كانت تنتظر قدوم أحد آخر هذه الليلة ، ولذا تذرعت بالتوعل والتعب ، وما طلبت منه إطفاء النور وهو منصرف إلا لكي توقع في روعه أنها ستنام ، في حين أنها ، ما إن غادر هو بيتها حتى بادرت بإشعال النور وفتحت بابها للشخص الآخر المجهول الذي سيكون ضيف أحضانها هذه الليلة !

ونظر إلى ساعته ، فإذا به قد فارقتها منذ نحو ساعة ونصف ، فخرج ، وركب عربة أجرة وأوقفها قرب بيتها في شارع صغير يصنع زاوية قائمة مع شارعها الخلفي ، وهو الشارع الذي كان من عادته أن يسلكه أحياناً لكي يدق على نافذة مخدعها كي تنهض وتذهب لتفتح له الباب الأمامي ويدخله خلسة . وغادر عربة الأجرة ، وكانت الشوارع هناك خالية تماماً ومظلمة : ومشى بضع خطوات حتى صار في مواجهة بيتها من الخلف تماماً : ورأى صف النوافذ المتشابهة مظلمة كله ، وقد أطفئت جميع الأنوار منذ وقت طويل ، ما عدا نافذة واحدة ليس إلا ، كان النور يتدفق من بين وصوص مصرعها المغلقين كما تغلق عصابة النبيذ على عصيرها الذهبي الثمين الخفي : وهو نفس النور الذي كثيراً ما كان يبتهج في الليالي الأخرى حين تكتحل به عيناه عندما يهل على رأس الشارع ، فيعلم أنها ساهرة في انتظار قدومه . ولكن هذا النور نفسه كم عذبه الليلة وكأنه يبيب به :

— إنها هناك ، مع الرجل الذي كانت تنتظره :

آه ! لابد أن يعرف من هو هذا الرجل !

ومشى على أطراف أصابعه لصق الحائط إلى أن صار عند النافذة : ولكن وصاوص النافذة المائلة لم تسمح له برؤية شيء بداخلها . ولكنه سمع فقط - في سكون الليل - همهمة حديث :

ويا للعذاب الذى انتابه وهو يرقب ذلك الضوء ، الذى كان يتحرك فيه الاثنان ! وراح يصغى للهمهمة التى كشفت له عن وجود ذلك الرجل الذى تسدل داخلها بعد خروجه ، وكشفت له غدر أوديت والمذلات التى تتنوقها الآن مع هذا الغريب !

ومع هذا لم يكن أسفاً لقدومه . وكان العذاب الذى دفعه لمغادرة بيته قد فقد حدته ، عندما زايه الشك . فحياة أوديت الأخرى التى كان يرتاب فى وجودها ها هى قائمة أمام سمعه وبصره ، يكاد يضع يده عليها ، واضحة كل الوضوح فى ضوء المصباح ، فى هذه الحجر التى يمكنه أن يقتحمها عنوة فيضبط هذه الحياة الخفية : أو لعل الأفضل أن يدق على مصراعى النافذة ، كما فعل مراراً عندما كان يحضر فى وقت متأخر ، وسوف تدرك أوديت على الأقل من هذه الإشارة أنه عرف كل شيء ، وأنه رأى الضوء وسمع الأصوات . فى حين أنه ، وهو الذى كان يصورها منذ برهة تضحك منه ، وتشارك هذا الرجل الآخر السرور بخداعها له ، ها هو قد صار فى موقف الساخر منهما ، فسوف تعرف أنه رآهما متلبسين بانحطاً وخيانة ، وليس على مسافة كيلومترين كما كانت تظنه . بل

ها هو هنا حاضراً بشخصه ، وعلى وشك أن يطرق مصراعى النافذة . ولعل ما شعر به (وهو شعور يكاد يكون ساراً) فى تلك اللحظة كان شيئاً أكثر من الارتياح لانتهاء هذا الشك على أى وجه ، فبرغم ألم هذا اليقين أحسن لذة عقلية ناجمة عنه .

ولئن كانت حدة الجاذبية التى لأوديت قد خفت قليلاً ، فقد حلت محل ذلك الشعور ملكات أخرى رنحت فيه منذ حدوثه وفترة دراسته ، تتركز حول الولوج بالحقيقة ، إلا أن هذه الحقيقة التى صار يهيم بها لا تخصه وحده ، بل هى مشتركة بينه وبين عشيقته ، وتستمد أنوارها منها وحدها : فهى حقيقة من نوع خاص وشخصى جداً ، موضوعها الوحيد المائل القيمة ، ذو الجلال المطلق ، هو « أوديت » : أوديت فى أوجه نشاطها وبيئتها ، ومشروعاتها الحالية والمستقبلية ، وماضيها .

وفى فترة أخرى من حياته كانت كلمات الحياة اليومية لشخص آخر ، وأفعال وتصرفات هذا الشخص تبدو عديمة القيمة تماماً فى نظر سوان . وفى حالة إعادة مثل هذا اللغو على مسامعه كان يراه بلا معنى . وأما إن أصغى له فهو لا يعيره إلا أدنى مستويات ذهنه : أما فى هذه المرحلة الجديدة الغريبة من حبه فقد تضخمت جداً صورة المعشوقة وصارت لها أعماق بعيدة ، فاستبد به الفضول لمعرفة أصغر تفصيلات مشاغلها اليومية ، وصار ظمأه إلى هذا بديلاً من عطشه القديم لدراسة التاريخ : وكل الأساليب التى كان فيها مضى ينكس

عنها في خزي - مثل التجسس هذه الليلة خارج نافذة ، والتحرى
غداً من الخدم ورشوتهم بالمال ، والتصنت على الأبواب - صارت
اليوم مشروعة ومباحة في نظره ، تماماً مثل انكيا به القديم على حل
وتفسير النقوش الغامضة ، والنش عن الوثائق وما إلى ذلك من
وسائل البحث العلمي : أجل صارت لهذه الوسائل الدينية الجديدة
قيمة ذهنية لأنها سبل - وإن كانت ملتوية - للوصول إلى الحقيقة :
ولما رفع يده وهم بالطرق على مصراعي النافذة شعر بوخزة
خزي ، مصدرها تفكيره في أوديت وأنها ستعرف الآن أنه شك فيها ،
وأنه عاد ، ووقف تحت نافذتها يتلصص عليها . وكثيراً ما قالت له
من قبل كم تفزع من الرجال الغيورين ، ومن العشاق الذين
يتجسسون . وما بهم بفعله الآن يمكن أن يكون في منتهى الخرق ،
ويمكن أن تحتقره أوديت وتحقته بسببه إلى الأبد بعد ذلك . أما إن
امتنع الآن عن الطرق ، فربما ظل له في قلبها بعض الحب ، حتى
وهي منهمكة في خيائنه مع الآخر . وما أكثر ما يهدر الأخرق سعادة
مستقبله في سبيل إلحاح نفاذ صبره الذي يتطلب إرضاء فوراً !
ولكن رغبته في معرفة الحقيقة كانت أقوى ، وبدت له أنبل وأجدر
بالاستجابة لها من اشتباهه لأوديت ورغبته فيها . وكان يعرف أنه
كان مستعداً أن يضحي بحياته في سبيل استقصاء القصة كاملة وبدقة ،
وسبيل معرفتها هو ما وراء هذه النافذة التي يتسرب من شقوقها
الضوء . وتلهف على إشباع جوعه إلى معرفة هذه الحقيقة . ثم لعل



النشوة التي يصبو إليها لم تكن في معرفة الحقيقة ، بقدر ما كانت في أن يبين لها أنه « يعرف » .

وشب على أصابع قدميه ، وطرق النافذة مرة : ولم يسمعا ، فطرق مرة أخرى ، بصوت أعلى ، فتوقف الحديث الدائر بينهما ، وسمع صوت رجل - وأرهف أذنيه جيداً ليميز صوت من يكون من بين أصدقاء أوديت الذين يعرفهم - يسأله :

— من الطارق ؟

ولم يستطع التأكد من هوية صاحب الصوت : فطرق مرة ثالثة . وسمع صوت فتح زجاج النافذة ، ثم مصراعها الخشبيين : ولم تعد هناك فرصة للتراجع . وبما أنها لا بد أن تعرف كل شيء : وحتى لا يبدو خسيساً أو غيوراً وفضولياً ، صاح بصوت غير مبال وفيه مرح وترحيب :

— أرجوك ألا ترعجى نفسك . لقد تصادف مروري من هنا ، ورأيت الضوء ، فأردت أن أعرف هل تحسنت حالتك الآن أم لا : ورفع بصره إلى أعلى ، فرأى رجلين في مواجهته مطلين من النافذة ، وفي يد أحدهما مصباح : واستطاع أن يرى الحجر من خلفهما ، فإذا هي حجرة لم يقع عليها بصره قط من قبل !

وكان قد تعود ، عند حضوره متأخراً لزيارة أوديت ، أن يتعرف على نافذتها بأنها النافذة الوحيدة المضيئة في هذه الساعة في

صف من النوافذ المتشابهة تماماً . فانخدع هذه المرة بالضوء ، وطرق نافذة تالية لنافذتها ، في بيت ملاصق لبيتها !

وأسرع يقدم الاعتذارات التي استطاعها وانصرف على عجل إلى داره . وقد استخفه الفرح لأن إشباع فضوله قد أبقي على حبه سليماً لم يمس : ولأن ما كان يخامره أحياناً وهو في خلوة مع أوديت من بوادر عدم الاكتراث قد تبخر الآن تماماً بنيران ما استولى عليه من غيرة ، فكان ذلك دليلاً دافعاً على فرط شغفه وتدلّفه في حبها :

* * *

ولم يبح لها قط بهذه المغامرة الفاشلة ، بل وكف هو شخصياً عن التفكير فيها . ولكن بين الحين والحين كانت خواطره الهائمة على وجهها تتوقف عند هذه الذكرى ، وتبعث فيها الحياة ، وتعمق أثرها في وعيه ، وتسبب له وخزاً شديداً للإيلام . وكان ذهن سوان يعجز عن تخفيف هذا الألم المعنوي وكأنه ألم جسمي ، لأنه مستقل تماماً عن مجال العقل الذي يمكنه أن يتخذ موضوعاً يتأمله ويتدبره ، إلى أن يلاحظ أنه تضاعف من تلقاء نفسه ، ثم تلاشى . إلا أن العقل حين يعاود بعد ذلك التفكير فيه يبعثه حياً من جديد . وإذا قرر سوان ألا يفكر فيه ، كان هذا القرار نفسه تفكيراً فيه ! وربما أنساه الحديث مع أصدقائه في أمور أخرى هذا الحادث ، ولكن كلمة عابرة قد تثير ذكره عن غير عمد ، كما يحدث للصريح أن يتعرف

جرحه من جديد من أثر لمسة طائشة غير مقصودة من صديق ،
أو حتى من عابر سبيل !

وعندما كان ينصرف من عند أوديت كان يشعر بالسعادة
والهدوء ، ويتذكر الابتسامة التي اقترنت - في صغرية لطيفة - بجذبها
معه عن هذا الرجل أو ذاك . وهي ابتسامة كلها رقة وحنان موجهين
إليه . ويتذكر الجدل الذي يكسو محياها حين يهوى رأسها فوق شفتيه
- وكأنما يحدث هذا رغم إرادتها - كما حدث ذلك منها ليلة قبلتهما
الأولى في العربة . ويتذكر نظرتها الواهنة المسترخية وهي مستكنة
بين ذراعيه ، وقد غاص رأسها بين كتفها كن تلوذ من شدة البرد :
ولكن لا تلبث غيرته - وكأنها ظل حبه لها - أن تمدده بنقيض هذه
الابتسامة ألا وهي ابتسامتها التي استقبلته بها تلك الليلة التي امتنعت
فيها عليه لأنها مجعدة . ويتخيلها وقد أطبقت على شفتي رجل آخر
بكل الإعزاز الذي كانت تبديه له شخصياً . وكانت كل هذه
الخواطر والرؤى التي تموج بها نفسه وهو منصرف ، كأنها اسكتشات
تزوده بها تخيلته لما يمكن أن تمتدحه لسواه في صور ودرجات مختلفة
من انتقاد العاطفة . حتى أنه صار يندم على كل مداعبة جديدة ابتكرها
في جماعه لها (وكان طائشاً حين نهبها إلى مدى حلاوتها) وعلى كل
فئة اكتشفها لديها ، لعلمه أنها بعد لحظة ستبلى حجرته السرية التي
تردح بأدوات التعذيب عند انتقاد لبيب غيرته :

وحدث تحول جديد في الموقف النفسي لسوان عندما تذكر
تعبيراً مفاجئاً كان قد لاحظته قبل ذلك ببضعة أيام ، ولأول مرة ،
في عيني أوديت . وكان ذلك بعد العشاء في بيت آل فرديران : وكان
فورشفيل قد رد على كلمة غير موفقة صدرت من نسيبه سانية بوابل
من الإهانات المتعمدة ، وشجعه على الرد في ذلك ما أبداه سانيت
من ألم وخوف وتوسل : وذلك إما لأن فورشفيل فطن إلى أن سانيت
- صهره - لم يكن يتمتع بالخطوة لدى آل فرديران ، أو لأنه استاء
من ملاحظة خرقاء وجهها إليه سانيت ، وإن كانت قد مرت ولم يقننه
إليها بقية الحاضرين الذين كانوا لا يعرفون ما وراءها من تعريض
خفي ، أو لأنه ربما كان يبحث منذ زمن عن مناسبة تكفل له بإبعاد
هذا الضيف الذي يعرف عنه الكثير ، لدرجة أنه كان يشعر بالخروج
من مجرد وجوده في الحجرة . وترتب على هذا التحرش العدواني أن
سأل سانيت مدام فرديران أيقى أم ينصرف ، فلم ترد عليه ،
فانصرف من البيت وهو يغمغم والدموع في عينيه ، وكانت أوديت
ترقب هذا المشهد من غير أن يبدو عليها أي انطباع ، ولكن ما إن
أقفل الباب وراء سانيت حتى بدلت تعبير محياها بحيث هبط إلى
مستوى سوقية تصرف فورشفيل ، ولعلت عينهاها بوميض بسمه
شريرة تنبئ بها فورشفيل على جسارته ، ومازجت هذه الابتسامة
إشفاقاً ساخرة على ضحيته : ورمقت فورشفيل بنظرة تواطئ على
هذه الجريمة ، كأنها تقول :

— ها قد فرغنا من أمره وقضينا عليه ! أترى كيف كان يبدو أبله ؟ لقد كان يبيكى فعلا .

ولما التقت عينا فورشفيل بعينها انفثأت معالم غضبه المزعوم وابتسم وقال :

— ما كان عليه إلا أن يكون لطيفاً ، كى يبقى معنا . ولا أظن التقرير الملائم يضر أحداً ، فى أى وقت .

وذاث يوم ذهب سوان فى وقت مبكر بعد الظهیر لزيارة شخص ، ولم يجده فى بيته ، فخطر له أن يذهب لزيارة أوديت ، فى ساعة لم يتعود زيارتها فيها ، إلا أنه يعلم أنها تكون فيها دائماً ببيتها ، مخلدة للراحة ، أو مشغولة بتحرير الرسائل حتى يحين وقت الشاي : وسوف يسره أن يراها برهة من غير إزعاج لها . وقال له الباب : إنه يعتقد أن أوديت موجودة بالبيت : ودق سوان الجرس ، وظن أنه سمع صوتاً ووقع خطي . ولكن لم يأت إلى الباب أحد : فانتابه القلق والضيق ، ودار حول البيت ، ووقف تحت نافذة مخدعها ، فوجد الستائر مسدلة فلم يستطع رؤية شيء ، وطرق زجاج النافذة بشدة . وصاح منادياً ، ولكن أحداً لم يجبه . ولاحظ أن الجيران يحملقون فيه ، فابتعد وهو يحسب أنه ربما كان مخطئاً فى اعتقاده أنه سمع وقع أقدام . بيد أنه ظل مشغول البال بشكوكه بحيث لم يستطع أن يفكر فى أى شيء آخر : وبعد أن انتظر ساعة عاد إلى بيتها ، فوجدها فيه . وقالت له : إنها كانت فى البيت عندما رن الجرس ،

ولكنها كانت نائمة فأيقظها الجرس ، وخمنت أنه سوان ولا شك ، وجرت لتقابلها ، ولكنه كان قد انصرف . وقد سمعت بالطبع دقه على النافذة . واستطاع سوان على الفور أن يتبين فى هذه القصة شذرات من الحقيقة الظاهرية التى يدسها الكذابون فى قصصهم لإكسابها مظهر الصدق وإخفاء ما يريدون إخفاءه خلف هذا المظهر . وخالت أن ذلك كفيلاً ألا يفضحها أو يفضح أكاذيبها ، ولكن فاتها أن عناصر الصدق التى استخدمتها لا تتكامل مع عناصر الأكاذيب ، فبقى هناك ثغرات تكشف الخديعة والزور :

وقال سوان فى نفسه :

— إنها تعترف بأنها سمعتنى أرن الجرس ، ثم أطرق النافذة : وأنها عرفت أن الطارق أنا ، وأنها كانت تريد أن ترانى . ولكن هذا لا يتفق مع امتناعها عن فتح الباب لى !

بيد أنه لم يلفت نظرها إلى هذا التضارب ، لأنه اعتقد أن أوديت لو تركت لنفسها واعتقدت أنه صدقها ، ربما زل لسانها بعد ذلك بما يرشده إلى الحقيقة . ولكن أوديت كانت حريصة على ألا يفلت منها شيء يكشف عما كانت تصنعه فعلا فى الساعة الثالثة بعد الظهر :

وعندما هم أن ينصرف عائداً إلى بيته ، رجته أوديت أن يبقى برهة أخرى ، بل واحتجزته بالقوة ، وجذبته من ذراعه وهو يفتح الباب ليخرج ، وقالت له بالبحاح :

— إنك للأسف الشديد لا تأتي أبداً لزيارتي بعد الظهر : وفي المرة الوحيدة التي جئت فيها ، لم أرك :

وكان يعرف جيداً جداً أنها لم تكن عاشقة له إلى درجة التعاسة الحقيقية لأنها لم تدركه عند الباب ، ولكنها امرأة طيبة القلب تريد أن تسره ، وكثيراً ما استاءت لأنها صنعت أى شيء يمكن أن يضايقه : ولذا وجد من الطبيعي أن تأسف هذه المرة لأنها حرمتها من قضاء ساعة في صحتها ، لا شك أنها مصدر متعة كبيرى له على الأقل ، إن لم تكن لها . ولكن المسألة على كل حال كانت قليلة الأهمية ، ولذا حيرته مظاهر كل هذا الأسف الشديد في نهاية الأمر : وذكرته بوجوده بعض النسوة اللواتي صورهن رسام البريمافيرا Primavera : فقد رأى على محياها ما على وجوههن من أمارات انكسار القلب ، وكأنهن يوشكن أن ينهرن تحت عبء حزنهن الفاجع ، وهن يرقبن يسوع الطفل يلعب برماته ، أو موسى وهو يصب الماء في طست : وكان قد رأى هذا الحزن الشديد على محياها من قبل ذات مرة ، ولكنه لا يذكر الآن متى كان هذا . ثم فجأة تذكر . لقد كان هذا عندما كذبت أوديت ذات مرة مضطرة وهى تعتذر لمدام فرديران في الأمسية التالية للعشاء الذى تناولته معه متذرة بالمرض ، في حين أنها كانت تريد أن تنفرد بسوان تلك الليلة : وبالغاً ما بلغت سذاجتها وطهارة ذمتها ، فلا يمكن أن تشعر بكل هذا الندم على أكذوبة بريئة كهذه . ولكن الأكاذيب التى كانت أوديت تنفوه بها عادة كانت

أقل براءة من هذه ، والغرض منها منع افترضاح أمور يمكن أن تسبب لها أشد المتاعب مع أحد أصدقائها . ولذا كانت عندما تكذب تشعر بقلّة الثقة في نجاحها وتحس الإعياء لفرط ما تبذله من جهد ، مثلاً يبكي الأطفال أحياناً عندما لا يحظون بالنوم . وكانت تعلم أيضاً أن كذبتها تسبب عادة ضرراً كبيراً للرجل الذى تنفوه بها له ، وقد تجدد نفسها تحت رحمته إن لم تحسن قولها . ولذا تشعر على الفور بالذنب في حضرته ...

فأى أكذوبة يا ترى دبرتها الآن لإرضاء أو ترضية لسوان ، بحيث يسبب لها هذا التدبير كل هذا الألم في تعبير وجهها ، وفي صوتها الذى يكاد يتخاذل من عنف المجهود الذى تستجمع قوتها لبذله ، وكأنها تستمحيه بذلك كله العفو والغفران ؟ وغلب على ظنه أن حقيقة ما حدث بعد ظهر هذا اليوم ليست هى ما تحاول أن تخفيه عنه ، بل هو شيء لعله لم يحدث بعد ، ولكنه من الممكن أن يحدث الآن في أى وقت : وعندما يحدث سيلقى ضوءاً على الحدث الذى وقع قبله : وفي تلك اللحظة سمع جرس الباب يرن ، ولم توقف أوديت قط عن الكلام ، ولكن كلماتها تحولت إلى شبه أنين غير واضح المعالم :

انتهى الجزء الثانى
من (غرام سوان)
ويليه الجزء الثالث

رقم الإيداع ٤٣٧٩
الترقيم الدولى ٠٨٠٠٦ - ١٧٣ - ٩٧٧

المطبعة العربية الحديثة
٨ شارع ٤٧ بالمنطقة الصناعية بالعباسية
تليفون : ٨٢٦٢٨٠ القاهرة



Looloo

www.dvd4arab.com



مختارات كتابي إصدار جديد

عزيزى القارى ..

فى الكتاب السابق قدمت لك الجزء الأول من رواية (غرام سوان) ، وهى الرواية الأولى من ملحمة الأديب الفرنسى الشهير « مارسيل بروست » (البحث عن الزمن المفقود) ، التى وصفها المفكر المصرى الكبير الدكتور زكى نجيب محمود بأنها من أعظم الكتب التى تفتق عنها الذهن البشرى فى القرن العشرين . واليوم أحدثك فى هذه النيزة المختصرة عن مؤلف هذه الملحمة الخالدة : ولد « مارسيل بروست » فى ضاحية (أوتوى) بباريس ، يوم ١٠ يوليو من عام ١٨٧١ . وكانت أسرته من عائلات باريس البورجوازية الثرية ، وكان والده أستاذاً فى كلية الطب بباريس . وقد تلقى مارسيل دراسته الابتدائية على مدرسين خصوصيين فى البيت ، فهو لم يختلف إلى مدارس فى تلك المرحلة الباكورة من طفولته وصباه ، التى كانت مرحلة اتسمت بالهدوء والتدليل . وفى مرحلة الشباب التى تلتها عقد عدة صداقات فى التبينات الاجتماعية والأدبية التى أحاطت به . وفى عام ١٩٠٠ ، وهو فى التاسعة والعشرين من عمره ، ارتحل إلى مدينة البندقية (فينيسيا) حيث اهتم بدراسة أعمال المفكر البريطانى والناقد الفنى الشهير فى العصر الفكتورى « جون راسكين » (١٨١٩ - ١٩٠٠) الذى كان قد توفى فى ٢٠ يناير ١٩٠٠ - وبلغ من إعجابه بتلك الأعمال أنه ترجم بعضها إلى اللغة الفرنسية !

.. وقد توفى والد « مارسيل بروست » فى عام ١٩٠٣ ، ولحقت به أمه فى عام ١٩٠٥ .. وكانت هاتان الصدمتان - بالإضافة إلى حالة « الربو » وضيق التنفس التى كان يعاني منها - سبباً فى حياة العزلة المتزايدة التى أخذ نفسه بها ، وإن يكن قد تبادل منات المراسلات مع العديد من الشخصيات البارزة فى

عالم الأدب والفن . ومنذ عام ١٩٠٧ عاش « بروست » فى حجرة مبطنة بالفلين ، كى يقاوم نوبات الربو التى كانت تعذبه ، وكان ينام خلال النهار ، ويعمل طوال الليل ، وقد أنجز المسودة الأولى لملمحته الخالدة (البحث عن الزمن المفقود) خلال السنوات الثلاث ، من ١٩٠٩ إلى ١٩١٢ ، لكنه ظل يراجعها ويعيد مراجعتها ، ويضيف إليها . حتى ضاعف من طولها إلى نحو ثلاثة أضعاف حجم المسودة الأولى إلى أن أدركته الوفاة فى عام ١٩٢٢ (عن ٥١ عاماً) .. وقد ظفرت الرواية الثانية من الملحمة المذكورة (وعنوانها « داخل بستان دى براعم ») بجائزة جوتكور الفرنسية المشهورة . فى عام ١٩١٩ .

هلمى مراد

١٥٠

